مكتبة

ترجمات عالمية | The Man Who Was Thursday | G.K. Chesterton

جي كيه تشستيرتون

مكتبة ٨٣٧

رواية

الرجل الذي كان الخميس

ترجمة: عماد منصور

المحروسة

مكتبة | ٨٣٧
سُر مَن قرأ

الرَّجُلُ الَّذِي كانَ الخَميسَ

چي كيه تشستيرتون

عنوان الكتاب: الرَّجُلُ الَّذِي كانَ الخَميسَ
The Man Who Was Thursday
المؤلف: چي كيه تشستيرتون G. K. Chesterton
ترجمة: عماد منصور
مراجعة لغوية: محمود شرف

مركز المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف:- 002 02 28432157

مكتبة
t.me/t_pdf

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ١٨٢٨ / ٢٠٢١
الترقيم الدولي: 978-977-313-832-5

جميع حقوق الطبع والنشر باللغة العربية
محفوظة لمركز المحروسة
2021

مكتبة | ٨٣٧
سُر مَن قرأ

الرَّجُلُ الَّذِي كانَ الخَميسَ

چي كيه تشستيرتون

ترجمة
عماد منصور

رواية

الطبعة الأولى 2021

مكتبة
t.me/t_pdf

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

تشستيرتون، چي كيه،
الرجل الذي كان الخميس: رواية/ چي كيه تشستيرتون؛ ترجمة: عماد منصور.-ط1
القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2021
229 ص؛ 14.5×21.5 سم
تدمك 978-977-313-832-5
1 - القصص الانجليزية
أ-منصور، عماد (مترجم)
ب- العنوان
823
رقم الإيداع 2021/1828

إلى إدموند كليرهيو بينتلي[1]:

سحابةٌ كانت على عقول الرجال، وهواءٌ مستغرِقٌ في النحيب،
نعم، سحابةٌ سقيمةٌ كانت على الروح عندما كنَّا صبيانًا معًا.
عِلمٌ أعلن العَدَم وفنٌّ بات مفتونًا بالخراب؛
كان العالم شائخًا ومنتهيًا؛ لكنِّي وأنتَ كُنَّا مبتهجين؛
من حولنا -في ترتيب غريب تجمَّعَت رَذائِلُهم القعيدة-
الشَّهوة التي فَقَدَت ضحكَتَها، والخوف الذي فقد خِزيَه.
كالشَّعرة البيضاء في الطائر الذهبي، والتي أضاءت متاهتنا المظلِمَة،
أظهر الرجال ريشتهم البيضاء بفَخر.
كانت الحياة كذُبابَةٍ اختفت في الأفق، والموت كلَسعَة نَحلَةٍ؛
كان العالَم قديمًا جدًّا عندما كُنَّا أنا وأنت صغارًا.
زيَّفوا الخطيئة الجميلة إلى أشكال لا يمكن تَسمِيَتُها:
كان الرجال خَجولين من الشَّرف، لكننا لم نعرف الخجل.
وإن كنا ضعفاء وحمقى، فليس لذلك أخفقنا، ليس لذلك؛
عندما حَجَبَت الآلِهةُ الكاذبةُ السَّماواتِ، لم تستطِع مَنعَ التراتيل عن آذاننا
أطفالًا كُنَّا- قِلاعُنا من الرمال لا تَقِلُّ ضعفًا عَنَّا،
عاليًا بنيناها لتحطيم أمواج ذلك البحر المرِّ.
حمقى كُنَّا في تنافُر الألوان، لا شيء سوى الثرثرة والعَبَث،
عندما كانت كل أجراس الكنيسة صامِتَةً، كان يمكن سماع أجراسنا وألعابنا.

---

(1) Edmund Clerihew Bentley (1956-1875): روائي وفكاهي إنجليزي، أحد أصدقاء تشسترتون المقرَّبين- (المترجم)

لسنا عاجزين تمامًا، دافَعنا عن القلعة؛ راياتنا المَنمَنَمَة منشورة؛
عمالقةٌ يعملون بجدٍّ لرفع تلك السحابة عن العالم
ثانيةً أجد الكتاب الذي وجدناه، أشعر بالوقت المندفِع
من باومانوك البعيدة ذات شكل السَّمَكة[1]، تصدر صيحة أشياء أكثر نقاءً؛
والقرنفل الأخضر يتلاشى كما تتلاشى الحرائِقُ في الغابات،

مصطخبةً في رياح كلِّ العوالم كانت عشرة ملايين ورقة من العُشب؛
أو حكيمة وعَذبَة ومفاجئة كغناء طيرٍ في المطر-
انبثقت الحقيقة عن توسيتالا[2] واللَّذَّة عن الألم.
نعم، بحديثٍ رائِقٍ ولطيف ومُباغِت كغناء طَيْرٍ يسكن في الضَّباب؛
تحدَّثَت دونيدن إلى ساموا[3]، والظَّلامُ إلى النهار.
لكننا كُنَّا صغارًا؛ عِشنا حتى رأينا الربَّ يكسر تعويذاتِه المريرةَ.
الربُّ والجمهورية الصالِحةُ جاءا عائِدَيْن مُتشابِكَي الأَذرُع:
رأينا مدينة مانسول، حتى مع ارتعاشها، واستقرارها-
طوبى للذين آمنوا ولم يَرَوا.

هذه حكاية عن تلك المخاوف القديمة، وعن الجحيم الخاوي ذاته،
لكنَّ أحدًا سواكَ لن يفهم حقيقةَ ما تحكيه
عن آلهة الخِزي الجبَّارة وترويعها للرجال، وانكسارها مع ذلك.
عن الشياطين الهائلة التي تُخفي النجوم، وسقوطها في ومضة طلقَةٍ مع ذلك.
الشكوك التي كانت شديدةَ السهولة في مطارَدَتِها، شديدة البشاعة في
مقاوَمتها-

---

(1) "بادئًا الرحيل من باومانوك ذات شكل السَّمَكة حيث ولدت"، مطلع قصيدة لوالت ويتمان- (المترجم)

(2) Tusitala: فصيلة من العناكب القافزة، والاسم يعني "كاتب الحكايات" في اللغة الساموية، لغة ساموا واللغة الثانية في نيوزيلندا- (المترجم)

(3) دونيدن مدينة في نيوزيلندا، وساموا بلد جنوب المحيط الهادي- (المترجم)

أوه، مَن سيفهم ذلك سواكَ؛ نعم، مَن سيفهم؟
الشُّكوكُ التي قادَتنا عبر الليل في أثناء حديثنا المتلاطِم،
والنهار الذي كان يحطِّم الشوارع دومًا على العقول.
بيننا، بسلام الربِّ، يمكن حَكْيُ تلك الحقيقة الآن؛
نعم، هناك في قوة الجذور المدهِشَة، وخير التقدُّم في العمر.
أخيراً وجدنا عقيدةً واتحادًا وأشياءَ مشتركة،
لي أن أكتبها الآن بأريحيَّة، ولك أن تقرأها بسلام.

چي كيه تشستيرتون

مكتبة
t.me/t_pdf

الفصل الأول

شاعِران من سافرون بارك

كانت ضاحية سافرون بارك تستقرُّ على الجانب الغربي من لندن، محمرَّة ومُشعَّثة كسحابَةِ غروب. شُيِّدَت الضاحية من الحجر الفاتحِ اللون بالكامل؛ كان خَطُّ أفقها مُدهِشًا، ومُخطَّطُ أرضها جامحًا. كانت ثورة بنَّاء مُستَغرِق في التأمُّل، مصبوغٍ بالفَنِّ بعضَ الشيء، يرى أن عمارتها مُشيَّدة على الطراز الإليزابيثي أحيانًا، وعلى طراز الملكة آن أحيانًا أخرى، وهذا بالطبع تحت تأثير أن كِلا العَصرَيْن مُتطابِقان. كانت توصف، على نحوٍ مُبرَّر بعض الشيء، بأنها مُستَعمَرة فنِّيَّة، رغم أنها لم تنتج أيَّ فَنٍّ بأي صورة مُحدَّدة. لكن رغم غموض مزاعمها بأنها مركز فكريٌّ، إلَّا أن مزاعمها بأنها مكانٌ بهيج كانت غيرَ قابلة للتشكيك. فالغريب الذي ينظر للمرَّة الأولى إلى تلك المنازل الحمراء الغرائبية لا يَسَعُه سوى أن يفكِّر كيف أن شكل الناس لا بُدَّ أنه عجيب جدًّا حتى يلائموا تلك المنازل. ولن يخيب أمله عندما يقابل

قاطنيها في هذا الخصوص. لم يكن المكان بهيجًا فحسب، لكن يتمتَّع بالكمال، فقط إذا استطاع الغريب اعتبارَه ليس كخداعٍ لكن كحُلمٍ. حتى إذا لم يكن الناس "فنَّانين"، فإن "الكل" رغم ذلك كان يتمتَّع بِحِسٍّ فَنِّيٍّ. ذلك الشاب ذو الشعر الطويل، البني المحمرِّ، والوجه الماجن- ذلك الشاب لم يكن شاعرًا في الحقيقة؛ لكنه بالتأكيد كان قصيدة. ذلك الچنتلمان العجوز ذو اللحية البيضاء الجامحة والقبعة البيضاء الجامحة- ذلك الدَّجَّالُ الموقَّر لم يَكُن فيلسوفًا حقًّا؛ لكنه على الأقل كان مسألةً فلسفية بالنسبة للآخرين. ذلك الچنتلمان العالِم ذو الرأس الأصلع على شكل البيضة، والعنق العاري بشكل الطَّير لم يكن يتمتَّع بحَقٍّ في المظهر العلمي الذي يدَّعيه. لم يكن قد اكتشف أيَّ جديد في الأحياء؛ لكنْ أيُّ مخلوق بيولوچي أكثر غرابةً من المخلوق الذي اكتشفه في نفسه؟ لهذا، ولهذا فقط، علينا أن ننظر إلى المكان ككُلٍّ على نحوٍ لائق، يجب اعتباره ليس ورشةَ عَملٍ للفنانين، بل عمل فني هشٌّ، لكن مكتمل. ومَن يَخْطُ إلى جوِّه الاجتماعي سيشعر كما لو أنه قد خطا إلى كوميديا مكتوبَةٍ.

على الأخَصِّ، فإن هذه اللا واقعيَّة الجذَّابة تحتوي المكانَ بالكامل مع حلول الليل، عندما تظلم الأسقف المبَهرَجَة مقابل تَوهُّج الليل وتبدو القرية المجنونة بأكملها كسحابَةٍ عابِرَةٍ مُنفَصِلَة. يتَّضح هذا أكثر وأكثر في الليالي الكثيرة للاحتفالات المحلية، عندما تُضاء الحدائق الصغيرة في المناسبات التي لا تنتهي، وتتوهَّج المشاكي الصينية على الأشجار القزمة كفواكِهَ مُتوحِّشة وشرسة. اكتسب كلُّ هذا أقوى شكلٍ في أمسية مُعيَّنة، ما زالت موضع ذكرى غائِمَةٍ في تلك الضاحية، وفيها كان الشاعر ذو الشعر المحمرِّ بطلًا. لم تكن بالتأكيد الأمسية الوحيدة التي كان بَطَلَها. في ليالي كثيرة فإن العابرين بحديقته الخلفية الصغيرة كان يمكنهم سماعُ صَوتِه الصادح التعليميّ راسِمًا القوانين للرجال، وللنساء على الأَخَصِّ. كان سلوك النساء في مواقِفَ كهذه واحدًا من

التناقُضات التي يغصُّ بها المكان؛ ذلك أن معظم النساء كُنَّ من النوع الذي يُسمَّى بغموض مُتَحرِّرًا، مُظهراتٍ شَكلًا من أشكال الاحتجاج ضد التفوُّق الذُّكوري. مع ذلك، فإن تلك النسوة الجديدات كنَّ دائمًا ما يمنحن الرجالَ أسمى آيات المجامَلَة، وهو شيء لم يكن لأيِّ امرأةٍ عاديَّةٍ أن تمنحه، بأن يُنصِتنَ إليهم أثناء حديثهم. والسيد لوسيا جريجوري، الشاعر ذو الشعر الأحمر، كان بالتأكيد (بمعنًى ما) رجلًا جديرًا بالإنصات إليه، حتى وإن لم يُثِر سوى الضحكات في نهاية حديثه. تحدَّث حينها عن الانحراف القديم لفوضى الفَنِّ وفَنِّ الفوضى بعذوبةٍ ماجِنَةٍ بعض الشيء مَنَحَت مُتعةً لحظيَّةً على الأقل. كان يجد العَونَ إلى حَدٍّ ما في الشذوذ الملفِت لمظهره، وهو ما استغلَّه، مع تَتابُع عباراته، إلى أقصى حَدٍّ. شَعرُه الأحمر الغامق المفروق في المنتصف كان كشَعرِ امرأةٍ حرفيًّا، منحنيًا في خُصلات متراخِيَةٍ لعذراءَ في لوحةٍ من عصر ما قبل رفائيل. هذا الوجه البيضاوي للقِدِّيسين، كان -رغم ذلك- يبرز فجأةً عريضًا ووحشيًّا، وقد اكتسَبَت ذَقنُه الازدراءَ الذي يُميِّز أهل لندن من الكوكنيِّ. هذا التَّبايُن كان يُرعِبُ ويُبهِجُ معًا أعصابَ الحاضرين العُصابِيِّين بطبعهم. بدا جريجوري وكأنَّه تجديفٌ وكفرٌ يمشي على قَدَمَيْن، خليطٌ من الملائكة والقِرَدَة.

هذه الأمسية بالذات، وإن لم يَكُن لأي شيء آخر، سيتذكَّرها الحاضرون في ذلك المكان بسبب غروبها العجيب. بدا الأمر وكأنه نهايةُ العالَم؛ ذلك أن السماء بأكملها قد احتجبت بريش طيور محسوسٍ وحيٍّ تمامًا، كان بمقدور المرء القول فحسب إن السماء كانت مُمتلِئَة بالريش، الذي أوشك على مُلامَسَةِ الوجوه. عبر المساحة الهائلة للقُبَّة السماوية انبثق الريشُ رماديًا، مع أغرب درجات البنفسجيِّ، ولونٍ غير طبيعي، وَرديٍّ أو أخضرَ شاحِبٍ رُبَّما؛ لكن في اتجاه الغرب كان الأمر برُمَّته غيرَ قابل للوصف، شفَّافًا وشهوانيًّا، والريش ذو الأحمر الملتهب في الأطراف قد حجبَ الشَّمسَ وكأنها شيء في غاية الروعة

لحدٍّ أنه قد يُعمي العيون إن رأته. اقترب الشيء كُلُّه من الأرض بشدَّة، وكأنه لا يعبِّر عن شيء سوى عن إخفاءٍ في غاية القسوة. بدت سماء الربِّ العليا وكأنها سرٌّ يُعبِّر عن تلك الضآلة البهيَّة التي تُمثِّل روح الوطنية المحلِّيَّة. بدت سماؤنا ذاتها ضئيلة.

قد يتذكَّر بعضُ السُّكَّان تلك الأمسيةَ بتلك السماء المظلِمَة فحسب، لكن آخرون يتذكَّرونها لأنها كانت علامةً على الظهور الأول في المكان لشاعِرِ سافرون بارك الثاني. لزمن الطويل كان الشاعر الثوري ذو الشعر الأحمر مُسَيطِرًا بلا مُنازِعٍ؛ وفي ليلة الغروب تلك انتهت عُزلَتُه بغتةً. كان الشاعر الجديد -الذي قدَّم نفسه باسم جابرييل سايم- ذا مظهر فنَّانٍ رقيق جدًّا. بلِحيَةٍ جميلة مُستدقَّة، وشَعرٍ أصفر شاحب. لكنَّ انطباعًا قد تنامى أنه كان أقلَّ خُنوعًا ممَّا يبدو. اكتسب ظهوره تميُّزًا وأهميَّةً بعد اختلافه مع الشاعر الشهير، جريجوري، بشأن طبيعة الشِّعر بأكمله. قال إنه (سايم) كان شاعِرَ قانون، شاعِرَ نِظام؛ بل قال إنه كان شاعِرَ المحترمين؛ لذلك نظر إليه جميع سُكَّان سافرون بارك كما لو أنه قد سقطَ لتوِّه من تلك السماء المستحيلة.

في واقع الأمر، فإن السيد لوسيان جريجوري، الشاعر الفوضوي، ربط بين الحَدَثَيْن.

"قد يكون الأمر هكذا"، قال -بطريقته الغنائية المفاجِئَة-: "قد يكون الأمر أنه في ليلة السُّحب والألوان الوحشيَّة تلك قد سقَطَت على الأرض مُعجِزَةٌ على شكل شاعِرٍ جدير بالاحترام. تقول إنَّكَ شاعِرُ القانون؛ وأقول إنَّكَ بمثابة تَناقُضٍ بين المصطلحات. أتعجَّب فحسب أنه لم يكن هناك نيازِكُ وزَلازِلُ في الليلة التي ظهرتَ فيها في هذه الحديقة".

تحمَّل الرَّجُل ذو العينين الزرقاوين الخانعتين واللحية المستدقَّة الشاحبة هذه التعليقاتِ الصَّاخِبَةَ بوَقارٍ خاضِعٍ لافت. بينما ضحكَ

الطرف الثالث في المجموعة، روزاموند، شقيقة جريجوري، التي كانت تحمل نفسَ خُصلات الشَّعر الأحمر لشقيقها، لكن بوجهٍ أكثر لطفًا تحتها، بخليطٍ من الإعجاب والاعتراض التي اعتادت على إبدائه لعرَّاف الأسرة.

استأنف جريجوري حِسَّه الساخر الخطابيَّ جدًّا.

"إن الفنان هو صِنوُ الفوضوي"، صاح قائلًا. "لكنَّكَ قد تُبدِّل بين الكلمات دائمًا. الفوضوي هو فنان. الرجل الذي يلقي بقنبلة ما هو إلَّا فنان؛ لأنه يفضِّل جلالَ اللَّحظَة على كل شيء. يرى كيف أن انفجار ضوء مشتَعِلٍ، قَصْفَةَ رَعدٍ واحِدَة، أكثرُ قيمَةً بكثير من الأجساد العادية لحفنَةٍ من رجال الشرطة. والفنَّان يتجاهل كُلَّ الحكومات، ويلغي كُلَّ الأعراف. يجد الشاعِرُ البهجةَ في الفوضى لا غير. وإن لم يَكُن الأمرُ كذلك، فإن أكثر الأشياء شعريَّةً في العالَم ستكون سِكَّةَ الحديد تحت الأرض".

"إذن فهي كذلك"، قال السيد سايم.

"هُراء!" قال جريجوري، الذي كان عقلانيًّا جدًّا عندما يحاول أيُّ شخصٍ آخر مُناقَضَتَه. "لماذا يبدو كُلُّ الموظَّفين والحَفَّارين في قطارات السكك الحديدية شديدي الحزن والإرهاق هكذا؟ سأخبرك لماذا. لأنهم يعرفون أن القطار يمضي في طريقه الصحيح. لأنهم يعرفون أنهم سيصلون إلى أيِّ مكانٍ يقطعون تذكرةً إليه. لأنهم بعد عبورهم ميدانَ سلون فإنهم يعرفون أن المحطَّة التالية هي فكتوريا، ولا شيء غير محطَّة فكتوريا. أوه، يا لِنَشوَتِهم الجامحة! أعيُنُهم كالنجوم، وأرواحهم في جَنَّة عدن ثانيةً، إذا كانت المحطة التالية هي بيكر ستريت بلا تفسيرٍ!".

"بل أنتَ مَن تفتقد إلى الشاعرية"، أجابه الشاعر سايم. "إذا كان ما تَقولُه عن الموظَّفين صحيحًا، فلَن يَسعَهم إلَّا أن يكونوا مُبتَذلين

تمامًا كشِعرِكَ. الشيء النادر، الغريب هو أن تصل إلى هدفك؛ والشيء الواضح، البَشِعُ أن تُفَوِّتَه. نشعر وكأن الأمر قد غَدَا مَلحميًّا عندما ينجح رجلٌ بسَهمٍ جامح واحد في إصابة طَيْرٍ بعيد. أليس مَلحَميًّا أيضًا أن يَصِلَ مُحرِّكٌ جامِحٌ واحد إلى وجهته في محطَّة بعيدة؟ الفوضى تبعث على الملل؛ لأنه في الفوضى قد يصل القطار حقًّا إلى أي مكان، إلى بيكر ستريت أو إلى بغداد. لكنَّ الإنسان ساحِرٌ، وسِحره بالكامل يتمثَّل في هذا، أن يقول مثلًا ڤكتوريا، ثم انظُرْ! إنها ڤكتوريا. لا، تَناوَلْ كُتُبَكَ من النثر والشعر المحضِ؛ دعني أقرأ جدول رحلات، بدموع الفخر. خُذْ بايرون الذي يخصُّكَ، الذي يحتفل بهزائم الإنسان؛ وامنحني برادشو[1] الذي يخصُّني، الذي يحتفل بانتصاراته. امنحني برادشو بالتأكيد!".

"أعليكَ أن ترحل؟" تساءل جريجوري بسخرية.

"دعني أخبرك"، تابع سايم بشغفٍ، "إنه في كل مرَّةٍ يصل القطار إلى المحطَّة أشعر وكأنه جاء بعد أن حَطَّم واخترق حشودًا من المحاصِرين، وأن الإنسان قد ربح جولةً أخرى ضدَّ الفوضى. تقول بازدراءٍ إنه عندما يغادر المرءُ ميدانَ سلون فإنه حتمًا سيصل إلى محطة ڤكتوريا. وأقول إن المرء قد يفعل ألفَ شيء آخر بدلًا من ذلك، وأنني متى وصلتُ حقًّا إلى هناك ينتابني شعورُ النجاح في الهروب في آخر لحظة. وعندما أسمع الحارس يصيح بكلمة "محطَّة ڤكتوريا"، فإنها ليس بكلمةٍ عديمة المعنى. بالنسبة لي هي صيحَةُ منادي الحرب مُعلِنًا نجاح الغزو. هي بالنسبة لي "ڤكتوريا"[2] حقًّا، انتصارُ آدَمَ".

هزَّ جريجوري رأسه الثقيلة المحمرَّة، بابتسامَةٍ هادئة حزينة.

---

(1) John Bradshaw (1855-1939): فنَّان ومِعماريٌّ إنجليزيٌّ- (المترجم)

(2) "Victoria": انتصار باللغة اللاتينية- (المترجم)

"حتى وإن كان الأمر كذلك"، قال، "فإننا نحن الشعراء دائمًا ما نطرح السؤال "وماذا تُمثِّل لك ڤكتوريا الآن وقد وصلتَ إليها؟"، تظنُّ أن ڤكتوريا هي أورشليم الجديدة، نعلم أن أورشليم الجديدة لن تكون إلا ڤكتوريا بالنسبة لك. لكن نعم، سيستاء الشَّاعِرُ حتى وإن كان في شوارع الجَنَّة؛ فالشاعر دائمًا في حالة ثورة".

"ها نحن ثانيةً"، قال سايم باهتياج، "ما الشيء الشِّعريُّ في أن تكون في حالة ثورة؟ قد تقول أيضًا إنه من الشعري أن تُصابَ بدُوارِ البحر. أن تكون مريضًا هو أن تكون في حالة ثورة. أن تكون مريضًا وأن تكون ثائرًا قد يكون الشيءَ النَّاجِعَ في مواقِفَ يائِسَةٍ مُعيَّنة؛ لكنني لأَشْنُقُ نفسي إن استطعتُ رؤية لماذا ترى الشِّعريةَ فيهما. الثورة في المطلق هي شيء مُثيرٌ للاشمئزاز[1]- باعِثٌ على القيء".

جَفلَت الفتاة عند سماعها الكلمة القبيحة، لكن سايم لم يكن ليلقي لها بالًا في استثارته الشديدة.

"أن تمضي الأشياء بأحسن حال"، صاح قائلًا"، "هذا هو الشِّعريُّ حقًّا! عمليات الهضم داخلنا، مثلًا، تتمُّ بقَداسَةٍ وسِرِّيَّةٍ كما ينبغي، هذا هو أساس كُلِّ الشِّعر. نعم، الشيء الأكثر شعريَّةً، الأكثر شعريَّةً من الأزهار، الأكثر شعريَّةً من النجوم- الشيء الأكثر شعريَّةً في العالم هو ألَّا تكون مريضًا".

"حقًّا"، قال جريجوري بغطرسة، "فإن الأمثلة التي اخترتَها..."

"عُذرًا"، قال سايم بتجهُّم، "نسيتُ أننا ألغينا كل الأعراف والمنطق".

للمرة الأولى ظهرت لطخة حمراء على جبين جريجوري.

"أنتَ لا تنتظر منِّي"، قال له، "أن أخلق ثورة في المجتمع في هذه الحديقة؟".

---

(1) لعب بالكلمات بين "revolt" (ثورة) و"revolting" (مثير للاشمئزاز)- (المترجم)

تطلَّع سايم مباشرةً إلى عينيه وابتسم بعذوبَةٍ.

"لا، لا أتوقَّع ذلك"، أجابه؛ "لكنَّني أفترض أنه إذا كنتَ جادًّا بشأن فوضويَّتِكَ، فهذا ما ستفعله بالضبط".

طَرَفَت عينا الثور الكبيرتان في جريجوري فجأةً كما لو كانتا عينَيْ أسدٍ غاضب، وكان من الممكن تقريبًا تَخيُّل عُرفَ الأسد الأحمر لديه وهو يرتفع.

"لا تعتقد إذن"، قال بصوت مخيف، "أنَّني جادٌّ بشأن فوضويَّتي؟".

"هلَّا أعدتَ ما قلت؟" قال سايم.

"ألستُ جادًّا بشأن فوضويَّتي؟" صاح جريجوري، بقبضتين مضمومَتَيْن.

"يا رفيقي العزيز!" قال سايم، ثم انصرف مبتَعِدًا.

لِدَهشَتِه، لكن مع ابتهاجٍ غريبٍ، وجد أن روزاموند جريجوري ما زالت في صُحبَتِه.

"سيِّد سايم"، قالت، "هل يقصد الناس الذين يتحدَّثون مثلك ومثل أخي ما يقولون حقًّا؟ هل تقصد ما تقوله الآن؟".

ابتسم سايم

"هل تقصدين أنتِ ما تقولينه؟".

"ماذا تقصد؟" سألت الفتاة، بعينين رزينَتَيْن.

"عزيزتي آنسة جريجوري"، قال سايم بلطف، "توجد أنواعٌ كثيرة من الصِّدق وانعدام الصدق. عندما تقولين "شكرًا" مقابل تقديم الملح، هل تعنين ما تقولينه؟ لا. عندما تقولين إن "العالم مُستَدير" هل تعنين ما تقولين؟ لا. هذه حقيقيٌّ، لكنَّكِ لا تعنينه. الآن أحيانًا ما يجد رجلًا مثل أخيكِ شيئًا يعنيه حقًّا. قد يكون نِصفَ الحقيقة،

ربع الحقيقة، واحد على عشرة من الحقيقة؛ لكنَّه حينها يقول أكثر ممَّا يعنيه- مندفعًا برغبته المحضة في أن يعنيه فحسب".

كانت تتطلَّع إليه من أسفل حاجِبَيْن مستويين؛ ووجهٍ رزين ومنفتح، وقد سقط عليه ظِلُّ تلك المسؤولية المفْرِطَة التي تكمن في جوهر النساء الأكثر تفاهةً وطيشًا، النظرة الأمومية القديمة قِدَم العالم.

"أي أنه فوضويٌّ حقًّا؟" سألَت.

"فقط بالمعنى الذي أتحدَّث عنه"، أجابها سايم؛ "أو إذا شئتِ، بانعدام المعنى الذي أتحدَّث عنه".

قارَبَت بين حاجِبَيْها العريضَيْن وقالت بغتةً:

"أي أنه لن يستخدم قنابل أو شيء مشابِهٍ؟".

انفجر سايم في ضحكة عظيمة، بَدَت كبيرةً على هيئته الرقيقة والمتأنِّقة بعض الشيء.

"يا إلهي، لا!" قال لها، "يجب أن يَتمَّ هذا بطريقةٍ مجهولةِ الاسم".

وعند ذلك انفجَرَت زوايا فَمِها مُشَكِّلةً ابتسامة، وفكَّرَت ببهجةٍ لحظيَّةٍ في عبثية جريجوري، وفي أنه سيكون بمأمَنٍ.

خطا سايم بجوارها إلى مقعد في ركن الحديقة، وتابعَ صبَّ آرائه. لأنه كان رَجُلًا صادقًا، ورغم خُيلائه الظاهريَّة، فقد كان مُتواضِعًا في جوهره، ودائمًا ما يكون الرَّجُلُ المتواضِعُ أكثرَ مَن يتحدَّث، بينما يراقب الرجل المتغطرسُ نفسَه عن كثب. كان يدافع عن المحترمين بعُنفٍ ومبالَغة. ينفعل في مديحه للانضباط واللياقة. طوال الوقت كانت رائحة زهور الليلك تحيط به. ذات مرَّةٍ تَناهى إلى سَمعِه في شارعٍ بعيدٍ ما صوت أرغن يبدأ في العزف، وبدا له أن كلماته البطولية كانت تنتقل إلى نغماته الخافِتَة من تحتِ أو من وراء العالم.

حدَّق وتحدَّث إلى شَعرِ الفتاة الأحمر وتأمَّل في وجهها طوال ما بدا بضعة دقائق؛ ثم نهض قائمًا، شاعرًا أن المجموعات في مكانٍ هكذا يجب أن تختلط معًا. لدهشته، اكتشف أن الحديقة بأكملها كانت خاويةً. كان الجميع قد رحل منذ زمن طويل، ثم رحل هو نفسه باعتذارٍ سريع بعض الشيء. غادَر بشعور الشَّمبانيا المسْكِر في رأسه، وهو ما لم يستطع تفسيرَه لاحقًا. لم تشارك هذه الفتاة على الإطلاق في الأحداث العاصفة التي ستتكشَّف بعد ذلك؛ لم يرها ثانيةً حتى انتهت حكايَتُه بالكامل. ومع ذلك، على نحوٍ لا يمكن وصفه، داوَمَت على الظهور كموتيفة موسيقيَّة في كل مغامراته المجنونة اللاحقة، ومضى مَجدُ شَعرِها الغريب كخَيطٍ أحمر ذهبيٍّ عبْرَ كلِّ الزخارف المظلِمَة والرديئة التي كانت تظهر ليلًا. لأن كل ما تلى ذلك كان غيرَ مُحتَمَلٍ جدًّا، لحدٍّ أنه ربما كان حُلمًا.

عندما خرجَ سايم إلى الشارع المضاء بالنجوم، وجده خاويًا في لحظتها. ثم أدرك (بطريقةٍ عجيبة ما) أن الصَّمت كان بالأحرى صَمتًا حَيًّا وليس مَيِّتًا. مباشرةً خارج البوابة انتصب مصباحُ شارع، ينساب شعاعه على أوراق الشجرة التي انحنت من فوق السور وراء سايم. وعلى بُعدِ قَدَمٍ تقريبًا من عمود المصباح انتصب شكل بشري مُتصلِّب وساكِنٍ كعمود المصباح نفسه. كانت القُبَّعة العالية والمعطف الصُّوفيُّ الطويل ذو اللون الأسود؛ والوجه، تحتَ الظِّلِّ غير المترابط، بنفس الإظلام تقريبًا. لا شيء سوى أهدابِ شَعرٍ هائج أمام الضوء، وكذلك شيء ما عَدائي في وضعيَّة الجسم، أعلن أنه كان الشاعِرَ جريجوري. في هيئته شيءٌ ما يشبه قاتِلًا مُستَأجَرًا مُقَنَّعًا ينتظر غريمه والسَّيف في يده.

أبدى تحيَّةً مثيرةً للشكوك، ردَّها سايم بطريقة أكثر رسميَّةً بعض الشيء.

"كنتُ أنتظرك"، قال جريجوري. "هل لي أن أتحدَّث معك قليلًا؟".

"بالتأكيد. بشأن ماذا؟" سأله سايم باندهاشٍ ضعيف نوعًا.

ضرب جريجوري عصاه بعمود المصباح، ثم بالشجرة. "بشأن هذا وذاك"، صاح قائلًا: "بشأن النظام والفوضى. هناك نظامُكَ الثمين، ذلك المصباح الحديدي الهزيل، القبيح والمجدِب؛ وهناك الفوضوية، غنيَّة، حيَّة، مُتوالِدَة ذاتيًّا- هناك الفوضوية، المشرِقَة بالأخضر والذَّهبيِّ".

"الأمر سيَّان"، أجابه سايم بصبر، "في اللحظة الآنية لا ترى سوى الشجرة بجوار المصباح. أتساءَل إن كُنتَ سترى أبدًا المصباح تحت ضوء الشجرة". وبعد توقُّفٍ قصير قال: "لكن هل لي أن أسألَكَ، هل تقف هنا في الظلام فقط من أجل استئناف جدالنا الصغير؟".

"لا"، صاح جريجوري، وفي صوتٍ تَردَّدَ عبر الشارع قال: "لم أقف هنا لاستئناف جدالنا، لكن لإنهائه".

غشيهما الصَّمتُ ثانيةً، وأنصت سايم، رغم أن لم يفهم شيئًا، غريزيًّا علَّه يسمع شيئًا جادًّا. بدأ جريجوري بصوتٍ ناعم وبابتسامة مُربِكَة بعض الشيء.

"سيد سايم"، قال له، "نجحتَ هذه الأمسيةَ في إنجاز شيء مُبهِر بعض الشيء. فعلتَ بي شيئًا لم ينجح في فعله أيُّ رَجُلٍ وَلَدَته امرأةٌ من قبل".

"حقًّا!".

"الآن أتذكَّر"، استأنف جريجوري حديثه متأمِّلًا، "نجحَ شخصٌ آخر في ذلك. قبطان سفينة بخارية بائسة (إن كان تذكُّري صحيحًا) في ساوثيند. لقد نجحتَ في تهييجي".

"أنا آسفٌ جدًّا"، أجابه سايم بوقار.

"أخشى أن غضبي وإهانتَكَ لي صادمان جدًّا لحدِّ أن تَمسَحَهُما بمجرَّد اعتذار"، قال جريجوري بهدوء شديد. "لا نِزالَ بيننا يمكنه مَسحُ إهانَتِك، إذا أوقَعتُكَ مَيِّتًا فلن أستطيع مسحها. هناك طريقة واحدة فقط يمكن بها مسح تلك الإهانة، وهي الطريقة التي أختارها. سأُثبِتُ لك، بأكبر شَرَفٍ وتضحية مُمكِنَة بحياتي، أنك مُخطِئٌ فيما قُلتَه".

"فيما قُلتُه؟".

"قُلتَ إنني غيرُ جادٍّ في كوني فوضويًّا".

"هناك درجات من الجِدِّيَّة"، أجابه سايم. "وأنا لم أُشكِّك أبدًا في أنَّكَ صادِقٌ للغاية في هذا المعنى، أنَّكَ اعتقدتَ أنا ما قلتَه يستحقُّ القول، أنك اعتقدتَ أن مفارقةً وتَناقُضًا ما سيوقِظُ الرجال على حقيقةٍ طالَ إهمالها".

حدَّق جريجوري فيه بثَباتٍ وألم.

"ولا تعتقد بأيِّ معنًى آخر أنني جادٌّ؟" سأله جريجوري، "تعتقد أنني كسولٌ مُتبَطِّلٌ لا أفعل شيئًا سوى أن أُلقي بالحقائق من وقتٍ لآخر. أي أنَّكَ لا تعتقد -بمعنى أعمق وأكثر فَتكًا- أنني جادٌّ؟".

ضرب سايم عصاه بعُنفٍ على أحجار الطريق.

"جادٌّ!" صاح قائلًا. "يا إلهي الطَّيِّب! هل هذا الشارع جاد؟ هل هذه المشاكي الصينية اللعينة جادَّةٌ؟ هل الناس بأكملهم جادُّون؟ يأتي أحدُهم هنا وينطق بكثيرٍ من الهُراء، وربما بعض المعنى أيضًا، لكن ينبغي أن أنظر بتدنٍّ شديد إلى الرجل الذي لا يُبقي على شيء ما في خلفيَّة حياته يكون أكثرَ جِدِّيَّةً من كل هذا الحديث- شيء ما أكثر جدِّيَّة، سواءً كان دينًا مُقدَّسًا أو مجرَّدَ شراب".

"حسنًا جدًّا"، قال جريجوري، وبدأ وجهه في الإظلام "سترى شيئًا أكثر جدِّيَّةً من الشراب ومن الدين".

وقف سايم منتظرًا بمظهر الخنوع المعتاد حتى يفتح جريجوري شفتَيْه ثانيةً.

"تحدَّثتَ لِتَوِّكَ عن أن تكون ذا دين. هل حقيقيٌّ أنك تدين بدينٍ ما؟".

أوه"، قال سايم بابتسامةٍ مُتوهِّجَة، "كُلُّنا كاثوليك الآن".

"إذن فهل لي أن أسألَكَ أن تُقسِمَ بأيِّ آلِهَةٍ أو قِدِّيسين يشملها دينُكَ على أنك لن تكشف عمَّا سأخبرك به الآن لأي مخلوق من بني آدم، وخاصَّةً الشرطة بالتأكيد؟ هل تقسم على ذلك؟ إذا عاهدتني على هذا النُكران المريع، إذا وافَقتَ على تحميل روحِكَ بعهدٍ لا ينبغي عليك أبدًا تَحمُّله، ومعرفةٍ لا ينبغي لك أبدًا حتَّى أن تحلم بها؛ فإنني أعِدُكَ بالمقابل...".

"ستَعِدُني في مقابل ذلك بماذا؟"، تساءل سايم، مع تَوقُّفِ الآخَرِ عن الحديث.

"أَعِدُكَ بأمسيَةٍ شديدة الإمتاع". انتزع سايم قُبَّعَتَه بغتَةً.

"إن عَرَضَكَ..."، قال له سايم"، "شديدُ الحماقة بحيث لا يُمكِنُ رَفضُه. تقول إن الشاعر فوضويٌّ بطَبعِه. أختلف معك؛ لكنِّي آمل على الأقلِّ أن يكون ذا رُوحٍ رياضية دومًا. اسمحْ لي، هنا والآن، أن أُقسِمَ كَمسيحيٍّ، وأن أُعاهِدَكَ كرفيقٍ صالِحٍ وكفَنَّانٍ زَميلٍ، أنني لن أُبلِّغ عن أيِّ شيء بخصوص هذا، أيًّا كان هذا، إلى الشرطة. والآن، بحقِّ كولني هاتش[1]، ما الأمر؟".

---

(1) Colney Hatch: منطقة في ضواحي لندن، اشتهرت منذ منتصف القرن التاسع عشر بوجود مصحَّةٍ نفسية سيئة السُّمعة تحمل نفس الاسم- (المترجم)

"أعتقـد"، قـال جريجـوري، بهـدوءٍ لا يُلائِـمُ الموقـف، "أن علينـا أن نسـتدعي عربـةَ أُجـرَة".

أصدر تصفيرتَيْن طويلتين، وجاءت عربة يَجرُّها حصانٌ تُقَعقِعُ على الطريق. صعدَ الاثنان إليها بصَمتٍ. ثم منح جريجوري عبرَ الحاجز الشبكي عنوانَ حانَةٍ غير معروفة على ضفَّة نهر التيمز في تشيسويك. تحرَّكت العربة بخفَّةٍ، واستأنفت طريقَها ثانيةً، وفيها هجرَ هذان المدُهشان بلدَتَهما المدهِشَة.

امسح الكود .. انضم إلى مكتبة

الفصل الثاني

سِرُّ جابرييل سايم

توقَّفَت العربة أمام خمَّارةٍ كئيبة ومُلطَّخة بالشحم، إلى داخلها قاد جريجوري رفيقَه بسرعة. جلسا في ركن مُسوَّرٍ وخافِتِ الإضاءة يشبه الحجرة، على منضدةٍ خشبيَّةٍ مُتَّسِخَة ذات قدمٍ خشبيَّةٍ واحدة. كانت الحُجرَة مُظلِمَة وصغيرة للغاية، بحيث يمكن رؤية القليل جدًّا من الساقي الذي استَدعَيَاه، بخلاف الانطباع الغامض والمكفهرِّ لشيءٍ ما ضَخمٍ مُلتَحٍ وبَطيء الحَرَكَة.

"هل تتناول عشاءً خفيفًا؟" سأل جريجوري بأدب. "طبق كبد الإوَزِّ ليس جيِّدًا هنا، لكنني أرشِّح لحوم الصيد".

استقبل سايم الملاحظة بتبلُّدٍ في الحِسِّ، مُتخيِّلًا أنها مُزحة. لكنه تقبَّل حسَّ الفكاهة، وقال بلا مبالاة مُهذَّبة:

"أوه، أحضِرْ لي بعضًا من صلصة سرطان البحر".

لدهشته التي تفوق الوصف، لم يَقُلْ الرجل سوى "بالتأكيد يا سيدي!"، وانطلق لإحضارها كما يبدو.

"ماذا ستشرب؟" استأنف جريجوري حديثه، بنفس المظهر المستهتر والاعتذاريِّ في آنٍ. "سأتناول كريمة النعناع فحسب؛ لقد تناولتُ عشائي بالفعل. لكن لا بأس في بعض الشمبانيا. دعنا نبدأ بنصف زجاجة من شمبانيا بومبيري على الأقل؟".

"شكرًا!" قال سايم الهادئ. "أنت في غاية الكرم".

في النهاية، انقطعت محاولاته الاعتباطية بعض الشيء لخلقِ حديثٍ بالحضور المفاجئ الصاعق لسرطان البحر. تَذوَّقه سايم، ووجده شهيًّا بالفعل. ثم بدأ فجأة في التهام الطعام بسرعة وشهيَّةٍ.

"اعذُرني إن كنتُ قد استمتعت بهذا الوضوح!" قال لجريجوري، متبسمًا. "لا يصادفني الحظُّ كثيراً في أن يُراوِدَني حُلمٌ كهذا. من الجديد عليَّ أن يؤدِّي كابوسٌ إلى سرطان البحر. العكس هو المعتاد بالنسبة لي".

"لستَ نائمًا، أؤكِّد لك"، قال جريجوري. "بل أنت، على العكس، قريب من أكثر لحظات وجودك إثارةً وواقعيةً. أها، ها هي الشمبانيا التي طلبتَها. أعترف بأنه قد يوجد بعض الاختلاف، لِنَقُلْ مثلًا، بين الترتيبات الداخلية لهذا الفندق الممتاز ومظهره الخارجي البسيط. لكن هذا كله مجرَّد تواضُعٍ من جانبنا. نحن الأكثر تواضُعًا على ظهر الأرض".

"ومَن نحن؟" سأل سايم، مُفرِغًا كأس الشمبانيا.

"الأمر بسيط جدًّا"، أجابه جريجوري. "نحن الفوضويُّون الجادُّون، الذين لا تؤمن بهم".

"أوه!" قال سايم باختصار. "تستمعون حقًّا بالشراب".

"نعم، أنت جادٌّ بشأن كل شيء"، أجابه جريجوري.

ثم بعد توقُّفٍ قصير أضاف:

"إذا بدأت هذه الطاولة خلال لحظات قليلة في الاستدارة قليلًا، فلا تُرجِعْ ذلك إلى غزواتك على الشمبانيا. لا أتمنَّى أن تظلمَ نَفسكَ".

"حسنًا، إذا لم أكُن ثمِلًا، فأنا مجنون"، أجابه سايم بهدوء مُطلَق؛ "لكنني أثِقُ في قدرتي على التَّصرُّف كچنتلمان في كِلتَيْ الحالتين. هل تسمح لي بالتَّدخين؟".

"بالتأكيد!" قال جريجوري، مُقدِّمًا علبة سيجار. "جرِّبْ واحدةً".

تناوَلَ سايم السيجار، قصَّ طرفه بقاطع السيجار الذي أخرجه من جيب معطفه، وضعه في فمه، أشعله ببطء، ثم أطلق سحابةً طويلة من الدخان. كان له أن يفتخر أنه أدَّى كل هذه الطقوس برباطة الجأش تلك؛ لأنه قبل أن يبدأ فيها مباشرةً كانت الطاولة قد بدأت في الدَّوَران، ببطء أولًا، ثم بسرعة، كما لو كانت جلسةً مجنونةً لتحضير الأرواح.

"يجب ألَّا تمانع في ذلك"، قال جريجوري، "إنه شكل من أشكال إضاعة الوقت".

"تمامًا"، قال سايم بهدوء، "مجرَّد إضاعة وقت. هذا ما هو عليه الأمر!".

في اللحظة التالية انطلق دخان سيجاره، الذي كان يتموَّج عبر الغرفة في التفافاتٍ ثُعبانيَّة، مباشرةً إلى أعلى كما لو كان مدخنةَ مَصنَعٍ، وسقط الاثنان، مع المقاعد والطاولة، عبر الأرضية كما لو كانت الأرض قد ابتلعتهما. هَوَيَا مُقعقِعَيْن عبر مدخنةٍ مُصطَخِبَة بسرعةٍ كمصعَدٍ انفكَّت حِبالُه، ثم وَصَلَا إلى القاع بضربة مفاجئة. لكن عندما قام جريجوري بفتح زوجٍ من الأبواب وسمح بدخول ضوءٍ أحمرَ تحتَ

أرضيٍّ، كان سايم ما زال يدخِّن بقدمه ملقاةً على الأخرى، ولم تهتزَّ شَعرةٌ صفراء فيه.

قاده جريجوري عبر مَمرٍّ مُقبَّبٍ واطئ، في نهايته كان الضوء الأحمر، صادرًا عن مشكاةٍ قُرمزيَّة هائلة، بحجم المدفأة تقريبًا، مُثبَّتة على حائط صغير، لكن حديديٍّ وثقيل. في الباب كان هناك ما يشبه العَينَ السحرية أو الحاجز المشبك، وعليه قَرَعَ جريجوري خمسَ مرات. سأله صوتٌ ثقيل بلكنة أجنبية مَن يكون. وعلى هذا أجاب بإجابة غير مُتوَقَّعَةٍ بعض الشيء، "السيد چوزيف تشامبرلين". بدأت المفاصل الثقيلة في التحرُّك؛ من الواضح أنها كانت كلمةَ السِّرِّ.

داخل الباب كان الممرُّ لامعًا كما لو أن شبكة من الصُّلب قد اصطفَّت على طوله. عند النظرة الثانية، رأى سايم أن هذا الممرَّ المتلألئ كان في الحقيقة مُبطَّنًا بصفوفٍ وصفوف من البنادق والمسدَّسات، مُكدَّسَةً أو مُتداخِلَةً فيما بينها.

"عليَّ أن أطلب منك أن تعذرني على كل هذه الشكليات"، قال جريجوري؛ "علينا أن نتَّبِعَ قواعِدَ صارِمَةً هنا".

"أوه، لا تعتذر"، قال سايم. "أعرف شغفَكَ بالقانون والنظام"، ثم خطا إلى الممرِّ المبَطَّن بأسلحة الصُّلب. بشَعرِه الطويل والجميل، ومعطفه من الصوف المسرِف في الأناقة بعض الشيء، بدا كشكلٍ بشريٍّ هَشٍّ وعجيب أثناء سيره عبر ممرِّ الموت الساطع.

عَبَرَا خلال ممرَّاتٍ كثيرة كهذه، وانتهى بهما الأمر أخيرًا إلى غرفة عجيبة من الصلب بحوائط منحنية، دائرية تقريبًا في شكلها، لكنها تُقدِّم -بمدرَّجاتها من المقاعد الطويلة- شيئًا يشبه مظهر قاعة محاضرات عِلميَّة. لم تكن هناك بنادق أو مسدَّسات في هذا الجزء، لكن حول حوائطها كانت تتدلَّى أشكالٌ أكثرُ فَزَعًا وريبةً. أشياء تشبه بُصَيلات نباتات حديدية، أو بيوض طيورٍ حديدية. كانت قنابِلَ،

والغرفة نفسها بَدَت كالجزء الداخلي من قنبلة. ضرب سايم بسيجاره على الحائط لنثر رماده المحترق، وانطلق إلى الداخل.

"والآن، عزيزي السيد سايم"، قال جريجوري، طارِحًا نفسه متمدِّدًا على المقعد الطويل تحت أكبر قنبلة، "الآن وقد ارتحنا تمامًا، دعنا نتحدَّث بشكلٍ مُلائِم. لا توجد أي كلمات بشرية قد تمنحكَ فكرة عن سبب إحضاري لك هنا. كان واحدًا من تلك الانفعالات الاعتباطية، كالقَفزِ من على جرف أو الوقوع في الحب. يكفي أن أقول إنَّكَ كنتَ رفيقًا مهيِّجًا على نحوٍ لا يمكن التعبير عنه، وفي الحقيقة، ما زِلتَ كذلك. سأنْقُضُ عشرين قَسَمًا على السِّرِّيَّة من أجل لَذَّة رَبطِكَ بالأوتاد. حتى طريقتك في إشعال السيجار لها أن تجعل كاهنًا يَنقُضُ عهد الاعتراف[1]. حسنًا، قلتَ إنَّكَ مُتيقِّنٌ تمامًا أنني لستُ فوضويًّا جادًّا. هل يمنحك هذا المكان شعورًا بالجدِّيَّة؟".

"يبدو لي وكأنه يتمتَّع بمغزى ما يختفي تحت كل مباهجه "، وافَقَه سايم؛ "لكن اسمَحْ لي أن أطرح عليك سؤالَيْن. لا حاجةَ للخوف من منحي معلومات؛ لأنك -كما تذكُر- نجَحتَ بحكمةٍ كبيرة في اقتناص وعدٍ منِّي بعدم إخبار الشرطة، وهو وعدٌ سألتزم به بالتأكيد. مَحضُ الفضول إذن هو ما يدفعني إلى طرح تساؤلاتي. بادئ ذي بدء، ما حقيقة كل هذا؟ على ماذا تعترض؟ هل تنشد إلغاء الحكومة؟".

"بل إلغاء الرَّبِّ!" قال جريجوري، فاتِحًا عينيه كالمتطرفين. "لا نسعى فحسب إلى قَضِّ مَضاجِع حفنَةٍ من أنظِمَةِ الاستبداد والشرطة؛ ذلك النوع من الفوضويَّة يوجد بالفعل، لكنه مجرَّد فرع من فروع اللا مُمتَثِلين. لكنَّنا نحفر إلى مستوياتٍ أعمق، ونُفجِّر إلى مستوياتٍ أعلى، وصولًا إلى إلغاء كل تلك التمييزات الاعتباطية بين الرذيلة والفضيلة،

(1) في الكنيسة الكاثوليكية، يُعتَبرَ عهدُ أو خاتمُ الاعتراف واجبًا مُطلَقًا على الكهنة ألاَّ يكشفوا عن أي شيءٍ يعلمونه من التائبين أثناء سِرِّ التَّوبة- (المترجم)

الشرف والخيانة، والتي يستند إليها ذوو حِسِّ التَّمرُّد العادي أنفسهم. تَحَدَّث العاطفيُّون السُّخَفاءُ في الثورة الفرنسية عن حقوق الإنسان! نكره الحقوق كما نكره المظالم. ألغينا الصواب والخطأ".

"واليمين واليسار"، قال سايم بحماس رقيقٍ، "آملُ أن تقضي عليهما أيضًا؛ فهما لا يُسَبِّبان لي سوى المتاعب".

"تحدَّثتَ عن سؤال ثانٍ"، قال جريجوري بغتةً.

"بكلِّ سرور"، استأنف سايم حديثه. "في كل أفعالك الحالية وكل ما يحيط بك توجد دائمًا محاولة علمية لتحقيق الكِتمان. أعرف حالةً كهذه تعيش فوق متجرٍ، لكن هذه هي المرة الأولى التي أجد فيها أناسًا يعيشون باختيارهم تحت خمَّارة. لديكم بابٌ حديديٌّ ثقيل. لا يمكنك المرور منه دون الاستسلام لذُلِّ تَسمِيَةِ نفسِكَ بالسيد تشامبرلين. تحيطون أنفسكم بأدواتٍ من الصُّلب تجعل المكان -اسمح لي بقَوْلِ هذا- مثيرًا للإعجاب أكثر من كَونِه منزلًا. هل لي أن أسأل لماذا إذن، بعد بَذْلِ كل هذا الجهد في حصار وتَتْريسِ أنفسكم في أمعاء الأرض، تتباهون بسِرِّكم عبر التحدُّث إلى امرأةٍ حمقاءَ في سافرون بارك؟".

ابتسم جريجوري.

"الإجابة بسيطة"، قال له. "أخبرتُكَ أنني فوضويٌّ جادٌّ، ولم تصدِّقني أنت ولا هُنَّ. وما لم آخُذكَ إلى هذه الغرفة الجهنَّميَّة فلن تُصدِّقني".

دَخَّن سايم سيجاره متأمِّلًا، وتطلَّع إليه باهتمام. تابعَ جريجوري حديثه.

"قد تَجِدُ المتعة عندما تعرف تاريخ هذا الشيء"، قال له. "عندما أصبحتُ للمرة الأولى واحدًا من الفوضويِّين الجُدُد جرَّبتُ كل أنواع التَّنكُّر المحترمة. ارتديتُ زيَّ الأساقفة. قرأتُ كل ما كُتِبَ عن الأساقفة في كُتيِّباتنا الفوضوية، "الخرافة: مصاصة الدماء" و"كهنة الفرِّيسة".

فهمتُ منهما بالتأكيد أن الأساقفة هم رجالٌ عجائِزُ غريبون ومُفزِعون يُخفون سرًّا وحشيًّا عن النوع الإنساني. كانت معلوماتي مُضلَّلَة. في محاولتي الأولى للمشي كالأساقفة في قاعة استقبالٍ صحتُ بصوتِ الرَّعد، "يسقط! يسقط المنطق البشري المتعجرف!"، اكتشفوا بطريقةٍ ما أنني لستُ أُسقُفًا على الإطلاق. اعتقلوني على الفور. ثم تنكَّرتُ في زيٍّ مليونير؛ لكنني دافَعتُ عن رأس مال بذكاءٍ كبيرٍ لحدِّ أنَّه حتى الأحمق كان بإمكانه رؤية أنني فقير تمامًا. ثم حاوَلتُ أن أكون ضابِطًا في الجيش. ورغم أنني شخصٌ مُحسِنٌ مُحِبٌّ للإنسانية بطبعي، لكنني أتمتَّع، آملُ ذلك، باتِّساع أُفُقٍ كافٍ لفهم موقف الرجال، أمثال نيتشه، الذين يعجبون بالعنف- الحرب المجنونة المتغطرسة للطبيعة وكل تلك الأشياء. ألقيتُ بنفسي في دور ضابط الجيش. كنت أسحب سيفي من غمده وأُلوِّح باستمرار، وأصيح قائلًا "أريد دماءً!" بشرود ذِهنٍ، كرَجُلٍ يطلب نبيذًا في مطعم. كثيرًا ما قلتُ "لِيَفْنَ الضُّعَفاء؛ إنه القانون". حسنًا، يبدو أن ضُبَّاط الجيش لا يفعلون ذلك. اعتقلوني ثانيةً. في النهاية انطلقتُ يائِسًا إلى رئيس مجلس الفوضويِّين المركزي، وهو أعظمُ رجلٍ في أوروبا قاطِبَةً".

"ما اسمُه؟" سأله سايم.

"ليس لك أن تَعرِفَه"، أجابه جريجوري. "تلك عظمته. قيصر ونابليون خَلَقَا عبقريَّتهما حتى يُسمَعَ عنها، وسُمِعَ عنهما. لكنه يخلق عبقريَّتَه حتى لا يُسمع عنها، ولم يُسمَع عنها. لكنَّك تَعجَزُ أن تكون معه في نفس الغرفة لخمس دقائق دون الشعور أن قيصر ونابليون هما أطفالٌ بين يدَيْه".

كان صامِتًا وبل وشاحِبًا لوَهلَةٍ، ثم استأنف:

"لكن متى مَنَحَكَ نصيحةً فهي دائمًا شيءٌ مُربِكٌ كحِكمَةٍ ساخرة، ومع ذلك عمليَّة كبنك إنجلترا. سألته ذات مَرَّة "ما التَّنكُّر الذي

يُخفيني عن العالم؟ ما الشيء الأكثر احترامًا بالنسبة لي من الأساقفة وضباط الجيش؟"، تَطلَّع إليَّ بوَجهِه الكبير الغامض رغم ذلك. "تريد تَنَكُّرًا آمِنًا، أليس كذلك؟ تبحث عن زَيٍّ يضمَنُ عدم أذِيَّتِكَ؛ زيٍّ لا يمكن لأحدٍ أن يبحث فيه عن قنبلة؟" أومأتُ. ثم رفعَ صوته الذي يشبه الأسد. "إذن، فعليك ارتداء زيِّ الفَوضويِّين يا أحمق!" زَمجَرَ حتى اهتزَّت الغُرفَة. "لا أحد يتوقَّع منكَ القيام بأي شيء خطيرٍ حينها". ثم أدارَ ظَهرَه العريض إليَّ بدون كلمة أخرى. أخذتُ بنصيحته، ولم أندم عليها أبدًا. بشَّرتُ بالدم والقتل لتلك النسوة نهارًا وليلًا، وكُنَّ -يا إلهي- يَسمَحن لي بدَفعِ عَربات أطفالهنَّ".

جلسَ سايم مُراقِبًا إيَّاه ببعض الاحترام في عينيه الكبيرتَيْن الزرقاوين.

"لكن ضَمَمتَني إلى المجموعة"، قال له. "هذه مُراوَغَةٌ ذكيَّةٌ فعلًا".

ثم بعد تَوقُّفٍ أضاف:

"ماذا تدعون رئيسكم الجبَّار هذا؟".

"عادةً ما ندعوه الأحد"، أجابه جريجوري ببساطة. "كما ترى، يوجد سَبعَةُ أعضاء في المجلس الفوضوي المركزي، يتَّخذون أسماء أيام الأسبوع. يُدعى الأحد، وبعض مُعجَبيه يدعونه الأحدَ الدامي. من اللافت للنظر أنَّكَ ذكَرتَ هذه المسألة؛ لأن نفس الليلة التي ظهرتَ فيها بلا دعوة (إذا كان لي أن أقول ذلك) تصادِفُ الليلةَ التي ينتخب فيها فرعنا في لندن، الذي يجتمع في هذه الغرفة، نائبه لشُغلِ المنصب الشاغر في المنصب. لأن الچنتلمان الذي لعب في فترة ماضية -بانضباطٍ واستحسانٍ عامٍّ- الدَّورَ الصَّعبَ للخميس، مات بغتةً؛ بالتالي، دعونا إلى اجتماع هذا المساء لانتخاب خليفته".

نهضَ وخَطَا مُتهادِيًا عبر الغرفة بشكلٍ من أشكال الحرَج الساخر.

"أشعر بشكلٍ ما وكأنَّكَ أمِّي التي وَلَدَتني، يا سايم"، تابع بتلقائيَّةٍ. "أشعر أن بإمكاني البَوحَ لكَ بكل شيء؛ لأنك وعدتني بعدم إخبار أي شخصٍ. في الحقيقة، سأبوح لك بشيءٍ لن أقوله حتَّى للفوضويِّين الذي سيحضرون إلى الغرفة خلال عشرِ دقائق. سنجتاز، بالطبع، شكلًا من أشكال الانتخابات، لكنني لا أُمانِعُ في إخبارِكَ بنتيجة الانتخابات الأكيدة". تطلَّع إلى الأسفل بتواضُعٍ لوَهلَةٍ. "من المستَقَرِّ عليه تقريبًا أنني سأكون الخميس".

"صديقي العزيز"، قال سايم بحميميَّةٍ، "أُهَنِّئُكَ. نجاحٌ عظيم".

ابتسم جريجوري بخنوعٍ، وخَطَا عبرَ الغرفة، متحدِّثًا بسرعة.

"حقيقة الأمر أن كل شيء غَدَا جاهِزًا لي على هذه الطاولة" قال له، "وربما يكون الاحتفال أقصرَ احتفالٍ مُمكِن".

خَطَا سايم أيضًا إلى المنضدة، ووجد عليها عَصَا مَشْيٍ مُلقاةً، تَحوَّلَت عند فحصها عن قُربٍ إلى عصًا تُشبِهُ السَّيف، ومُسدَّسًا "كولت" كبيرًا، وحقيبة شطائر، وقِنِّينةَ براندي كبيرة. وعلى المقعد، بجوار المنضدة، كانت مُلقاةً عَباءَةٌ أو إزارٌ يبدو ثَقيلًا.

"عليَّ فقط أن أنتهي من الشكل الرسمي للانتخاب"، تابع جريجوري بحركاتٍ من يده، "ثم أتناول هذه العباءة والعصا، وأحشو هذه الأشياء في جيبي، ثم أخطو خارجًا من بابٍ في هذه الحانة يفتح على النهر، حيث يَستقرُّ قارِبٌ بُخاريٌّ في انتظاري، وحينها- أوه، حينها، البهجة الوحشة لكوني الخميس!"، ثم صفَّق بيديه.

نهض سايم، ثم جلس ثانيةً بتراخيه المتعجرف المعتاد، لكن بهيئة مُتردِّدَةٍ غير مُعتادَة.

مكتبة
t.me/t_pdf

"لماذا أعتقد"، تساءل بغموض، "أنَّكَ شخصٌ مُحترَمٌ للغاية؟ لماذا تنال إعجابي الإيجابي، يا جريجوري؟"، توقَّف لبرهة، ثم أضاف بما يُشبِه الفضولَ المتجدِّدَ، "هل هذا لأنَّكَ أحمق؟".

كان هناك صَمتٌ تأمُّليٌّ بينهما ثانيةً، ثم صاح قائلًا:

"حسنًا، اللعنة على كل شيء! إنه أغرب موقِفٍ شَهِدتُه في حياتي، وسأتصرَّف بناءً على ذلك. جريجوري، لقد مَنَحتُكَ وعدًا قبل مجيئي إلى هذا المكان. وهو وَعدٌ سأفي به وإن وضعوني بين كمَّاشاتٍ مُنصَهِرَةٍ حمراءَ. فهل تمنحني -من أجل سلامتي الشخصية- وعدًا صغيرًا من نفس النوع؟".

"وعد؟" تساءل جريجوري، مُتعجِّبًا.

"نعم"، قال سايم بجدِّيَّةٍ كبيرة، "وعد، أَقسَمتُ أمام الله أنني لن أُفشيَ سِرَّكَ إلى الشرطة. هل تقسم بالإنسانية، أو بأيِّ شيءٍ وحشيٍّ تؤمن به، أنَّكَ لن تُفشيَ سِرِّي إلى الفوضويِّين؟".

"سِرُّكَ؟" تساءل جريجوري مُحَدِّقًا في سايم. "ألديكَ سِرٌّ؟".

"نعم"، قال سايم، "لديَّ سِرٌّ". ثم بعد بُرهَةٍ قصيرة، "هل تُقسِم؟".

حَمْلَقَ جريجوري فيه بجِدِّيَّةٍ للَحظات، ثم قال بغتةً:

"لا بُدَّ أنَّكَ أغويتني، لكنِّي أشعر بفضولٍ وحشيٍّ تجاهَكَ. نعم، أقسم أنني لن أخبر الفوضويِّين بأيِّ شيءٍ تُخبرني به. لكن احْذَرْ، فإنَّهم سيصلون إلى هنا قريبًا جدًّا".

نهض سايم ببطءٍ وألقى بيَدَيْه الطويلتين البيضاوَيْن في جيب سرواله الطويل الرمادي. وفور أن فعل هذا بالكاد تناهى إلى سَمعِهما خمسُ طَرقاتٍ على الحاجز الخارجي، مُعلِنَةً وصول أول المتآمِرين.

"حسنًا"، قال سايم ببطء، "لا أعرف كيف سأُخبِرُكَ بالحقيقة بشكلٍ أسرع من القول إنَّ حيلَتَكَ بارتداء زيِّ شاعِرٍ هائِمٍ على وجهه لا

تقتصر عليكَ أو على رئيسِكَ. نعرف ما هي المراوغة ومحاولة الهروب في سكوتلاند يارد".

حاول جريجوري الوقوفَ مستقيمًا، لكنه تَمايَلَ ثلاثَ مَرَّاتٍ.

"ماذا تقول؟" تساءَلَ بصوتٍ غير بَشَريٍّ.

"نعم"، قال سايم ببساطَةٍ، "أنا مُحقِّقُ شُرطَةٍ. لكنني أعتقد أن أصدقاءَكَ قادِمون".

من المدخل جاءَتهم الهَمهَمَةُ بالكلمات "السيد چوزيف تشامبرلين". تكرَّرَت مرَّتَين ثم ثلاثَ مَرَّات، ثم ثلاثين مرَّة، وأصبح من الممكن سَماعُ وَقْعِ أقدام حشود چوزيف تشامبرلين[1] (فكرة شعائرية) على طول الممرِّ.

(1) Joseph Chamberlain (1836 -1914): شخصيَّة حقيقيَّة، وهو رَجُلُ دولَةٍ بريطاني، كان ليبراليًّا مُتعصِّبًا في بداية حياته السياسيَّة- (المترجم)

الفصل الثالث

الرَّجُلُ الَّذي كانَ الخَميسَ

قبل ظهور أيٍّ من الوجوه الجديدة عند المدخل، كان جريجوري قد أصبح فريسةً للمُفاجَأة الصَّاعِقَة. كان واقِفًا بجوار الطاولة عاجزًا عن الحركة، بضجيجٍ في حَلقِه كوَحشٍ بَرِّيٍّ. ثم أمسك بمسدَّس الكولت ووجَّهه إلى سايم. لم يَجفَلْ سايم، بل رفع يدًا شاحِبَةً مُهذَّبة.

"لا تَكُن سخيفًا"، قال له، بوقار قِسِّيس مُخنَّث. "ألا ترى أن هذا ليس ضروريًّا؟ ألا ترى أننا في نفس القارب معًا؟ نعم، بل ومُصابون بدُوار البحر المرِح.

كان جريجوري عاجزًا عن التحدُّث، لكنه عاجِزٌ أيضًا عن إطلاق النار، بسبب التَّمَعُّن في السؤال الذي طرحه سايم.

"ألا ترى أننا هَزَمنا بعضنا البعض؟" صاح سايم. "لا أستطيع إخبار الشرطة أنك فوضويٌّ. لا يُمكِنُكَ إخبارُ الفوضويِّين أنني رجل

شرطة. ليس بإمكاني سوى مراقَبَتِكَ، عارفًا ما أنت عليه؛ لا يمكنك سوى مراقبتي، عالمًا ما أنا عليه. باختصار، إنه نزال وحيد، معنوي، رأسي ضِدَّ رأسِكَ. أنا رجل شرطة محروم من مساعدة الشرطة. وأنت، صديقي البائس، فوضويٌّ مَحرومٌ من مساعدة القانون والتنظيم الجوهري جدًّا بالنسبة للفوضويَّة. الفرق الوحيد يصبُّ لصالحك. فأنت لستَ مُحاطًا برجال شرطة فضوليِّين؛ بينما أنا مُحاطٌ بفوضويِّين فضوليِّين. لا يمكنني خِيانَتُكَ، لكن بإمكاني خيانَةُ نفسي. بِرَبِّكَ! انتَظِرْ وستراني أفضحُ نفسي. سأفعل ذلك بإتقانٍ".

أنزلَ جريجوري المسدَّسَ ببُطءٍ، مُحدِّقا ما زال في سايم كما لو كان وحشًا بحريًّا.

"لا أؤمن بالخلود"، قال أخيرًا، "لكن إذا نَقَضتَ عَهدَكَ، بعد كل هذا، فتأكَّد أن الرَّبَّ قد خلق الجحيم من أجلِكَ حتى تعوي فيه للأبد".

"لن أنقُضَ عهدي"، قال سايم بصرامة، "ولن تَنقُضَ عَهدَكَ. ها هم أصدقاؤكَ".

دخلَ جَمعُ الفوضويِّين إلى الغرفة مُتثاقِلين، بمشيَةٍ مُتسكِّعَة ومُرهَقَة بعض الشيء؛ لكنَّ رَجُلًا ضئيلًا من بَينِهم، بِلِحيَةٍ سوداءَ ونظَّارات -رَجُلٌ يشبه طراز السيد تيم هيلي[1]- خرج من بين الجَمْعِ، وتقدَّم إلى الأمام حامِلًا بعض الأوراق في يده.

"الرَّفيق جريجوري"، قال، "أعتقد أن هذا الرجل واحِدٌ من المندوبين؟".

---

(1) (1855-1931) Tim Healy: سياسيٌّ وقوميٌّ أيرلندي، كان واحدًا من أكثر أعضاء "مجلس العموم" إثارةً للجدل- (المترجم)

تَطلَّع جريجوري إلى أسفل، مأخوذًا بالمفاجأة، وهَمهَمَ بِاسمِ سايم؛ لكن سايم أجاب بما يكاد أن يكون وقاحةً:

"يسعدني أن أرى أن بوَّابَتكم تتمتَّع بحراسةٍ كافية تجعل من الصعب أن يدخل من خلالها أي شخص من غير المندوبين".

رغم ذلك، كانت انحناءة الرجل الضئيل ذو اللحية السوداء مشوبَةً بشيءٍ يشبه الشكَّ.

"أي فَرعٍ تُمثِّله؟" سأله بجِدَّة.

"بالكاد يمكنُ تَسمِيَتُه بفرعٍ"، قال سايم، ضاحِكًا؛ "قد أدعوه جِذرًا على الأقلِّ".

"ماذا تعني؟".

"الواقع هو..."، قال سايم بهدوء، "الحقيقةُ أنني أنتمي إلى السَّبتيِّين. لقد أُرسِلتُ إلى هنا خِصِّيصًا للتأكُّد من إبدائِكم الاحترامَ اللَّازِمَ للأحد".

أسقطَ الرَّجُلُ الضئيل إحدى أوراقه، وارتعشت وجوهُ المجموعة بأكملها بالخوف. بالتأكيد أحيانًا ما يُرسِلُ الرئيسُ مَرهوبُ الجانِبِ -الذي كان اسمه الأحد- سُفَراءَ على أوقاتٍ غير منتظمة إلى اجتماعات الفروع.

"حسنًا، يا رفيق"، قال الرجل ذو الأوراق بعد بُرهَةٍ، "أعتقد أنه يجدر بنا مَنحُكَ مِقعَدًا في الاجتماع؟".

"إذا طُلِبَت نصيحتي كصديق..."، قال سايم بنزعة خَيريَّةٍ شديدة، "أعتقد أنه يجدر بكم فعلًا".

عندما سمعَ جريجوري انتهاءَ المحادثة الخطيرة، وما جلبته من أمانٍ مفاجئٍ لغريمه، نهض بغتةً وخَطَا عبر الغرفة مستغرقًا في التفكير المؤلِم. كان بالفعل غارقًا في عذاب الدبلوماسية المبرِّح. لأنه

من الواضح أن وقاحة سايم الملهَمة ستنجح في النهاية في إنقاذه من كل الأزمات العارِضَة. لن يأتي منها أَمَلٌ كبير. لم يستطع هو نفسه أن يفضح سايم؛ من ناحيةٍ بدافع الشرف، ومن ناحية أيضًا لأنه إذا فضحه وفشلَ لسبب ما في تدميره فإن سايم -الذي نجح في الهروب- سيكون مُتحرِّرًا من كل التزامات السِّرِّيَّة، سايم يمضي فحسب إلى أقرب نقطة شرطة. أيًّا كان الأمر، كانت مناقشة استمرَّت ليلة واحدة فحسب، ومُحقِّق سِرِّيٌّ واحد فحسب يعرف بشأنها. ليس عليه سوى أن يكشف عن أقل قدرٍ مُمكِنٍ من خُطَطِهم تلك الليلة، ثم يخاطر بمنح سايم فرصةً للهروب.

خطا عبر مجموعة الفوضويِّين، التي كانت تتوزَّع عبر المقاعد الطويلة في القاعة.

"أعتقد أنه حان الوقت لنبدأ"، قال؛ "القارب البخاري ينتظر في النهر بالفعل. ألتمس أن يترأَّس الرفيق باتونز الجلسة".

جاءت الموافقة على هذا برفع الأيدي، ثم جلس الرجل الضئيل ذو الأوراق متعجِّلًا على المقعد الرئاسي.

"يا رفاق"، بدأ، حادًّا كطلقة رصاص، "إن اجتماعنا الليلة ذو أهمِّيَّةٍ بالِغَة، رغم أنه لا يحتاج لأن يطول. طالما تشرَّف هذا الفرع بانتخاب الأخامس للمَجلِس الأوروبي المركزي. انتخبنا أخامِسَ كثيرين مُبجَّلين. نرثي جميعًا وفاة العامِل البطل الذي شغل المنصب حتى الأسبوع الفائت. كما تعرفون، كانت خدماته للقضية كثيرةً. نظَّم ضربة الديناميت العظيمة في برايتون التي كان لها -تحت ظل ظروف أفضل- أن تَقتُلَ الجميع على رصيف الميناء. تعرفون أيضًا، أن موته كان نُكرانًا للذَّات كما كانت حياته؛ لأنه مات عبر إيمانه بخليطٍ صِحِّيٍّ من الطباشير والماء كبديلٍ للحليب، وهو مشروبٌ كان بربريًّا في نظره؛ كونه يشتمل على قَسوَةٍ تِجاهَ البقر. والقسوة، أو أي شيء يقترب من

القسوة، كانت تُثير امتعاضَهُ دائِمًا. لكننا لم نجتمع من أجل التهليل بفضائله، لكن من أجل مَهمَّةٍ أصعب. من الصعب أن نمدح خِصالَه كما يليق به، لكن الأكثر صعوبة هو إيجادُ بديلٍ لها. إليكم، يا رفاق، تؤول هذه الأمسية ومَهمَّةُ أن تختاروا من بين الحاضرين الرَّجُلَ الذي سيكون الخميسَ. إذا لم يقترح أيُّ رفيقٍ اسمًا، فليس بوسعي سوى إخبارِ نفسي أن مُفَجِّر الديناميت العزيز ذلك، الذي رحل عنَّا، قد أخذ معه إلى الغياهِبِ المجهولة السِّرَّ الأخير لفضيلته وبراءته".

ظهرت بين الجَمعِ رِعشَةٌ على شكل تصفيقٍ غير مسموع تقريبًا، كالذي يمكن سماعه أحيانًا في الكنيسة. ثم نَهَضَ رجُلٌ عجوز ضخم الجُثَّة، بلحية وَقورَةٍ، طويلة وبيضاء، ربما العامل الحقيقي الوحيد الحاضر، بتَثاقُلٍ وقال:

"ألتمس انتخابَ الرفيق جريجوري خميسًا"، ثم جلس ثانيةً بنفس التَّثاقُل.

"هل أجد تأييدًا من أحد؟" سأل رئيس الجلسة.

أبدى رجُلٌ ضئيلٌ بمعطَفٍ مخمليٍّ ولحيَةٍ مُستدقَّة تأييده.

"قبل أن أضع المسألة موضع التصويت"، سأل رئيس الجلسة، "أدعو الرفيق جريجوري لإلقاء بيان".

نهض جريجوري وسط التصفيق المتداخِل، وَجهُه شاحبٌ كالموتى، لحَدِّ أنَّ شَعرَه الأحمر بدا قُرمزيًّا. كان مُبتَسِمًا وهادئًا تمامًا. كان قد اتَّخذ قراره، ورأى أفضل سياسة مُمكِنَةٍ واضحةً أمامه كطريق أبيض. فرصته المثلى كانت أن يلقي خطابًا غامضًا، مُتزلِّفًا، حتى يخلق لدى المحقِّق انطباعًا بأن أخويَّةَ الفوضويِّين مسألة مُتسامِحَة جدًّا في نهاية الأمر. كان مؤمنًا بقُدرَته الأدبية، وقُدرَته على الإيحاء بظلال المعاني الدقيقة وانتقاء الكلمات المناسبة. اعتقد أنه بإمكانه أن ينجح -رغم الحشد من حوله- في توصيل انطباعٍ زائف عن المؤسَّسة، بدهاءٍ

ولطف. كان سايم يعتقد فيما مضى أن الفوضويِّين، بكل تَبَجُّحِهم، يتظاهرون بدور الأحمق فحسب. أَلَا يُمكِنُه الآن، في ساعة الخطر هذه، أن يجعل سايم يعتقد ذلك ثانيةً؟

"يا رفاق"، بدأ جريجوري، بصوتٍ منخفض، لكن حادٍّ، "لا أحتاج إلى إخباركم بسياستي؛ فهي سياستكم أيضًا. لقد تعرَّض إيماننا للتشويه والافتراء، غدا مُربِكًا ومُحتَجِبًا بالكامل. لكنه لم يتبدَّل أبدًا. هؤلاء الذين يتحدَّثون عن الفوضوية ومَخاطِرها يذهبون إلى كل مكانٍ وأيِّ مكانٍ للتَّحصُّل على معلوماتهم، باستثناء المجيء إلينا، نحن رأس المنبع. يفهمون الفوضويَّة من الروايات الرخيصة؛ يفهمون الفوضويِّين من صحف أصحاب المتاجر؛ يفهمون الفوضويِّين من "ألي سلوبرس هاف هوليدي" و"ذي سبورتنج تايمز"[1]. لم يفهموا الفوضويينَّ أبدًا من الفوضويِّين أنفُسِهم. لم تُتَح لنا أيُّ فرصة لإنكار الافتراءات الهائلة التي تراكَمَت على رؤوسنا من شرق أوروبا إلى غربها. الرجل الذي دائمًا ما سمع أننا طاعونٌ يمشي على قدَمَيْن لم يسمع رَدَّنا على ذلك. أعرف أنه لن يستمع إلى هذه الليلة، رغم حماسي بتمزيق السَّقف الذي يُظِلُّنا. لأنه عميق، عميق جدًّا تحت الأرض التي يُسمح للمضطهدين بالتجمُّع عليها، تمامًا كما يُسمح للمسيحيين بالتجمُّع في سراديب الموت. لكن إذا كان هنا هذه الليلة، بصُدفَةٍ لا تُصدَّق، رجلٌ ما أساء فهمنا بشدَّة طوال حياته، فإن لي أن أطرح هذا السؤال عليه: "عندما يجتمع هؤلاء المسيحيُّون في تلك السراديب، فما السُّمعة التي يجنونها في الشوارع التي تعلوهم؟ما الحكايات التي تُروَى عن فظائعهم على يَدِ رُومانيٍّ مُتعلِّم تجاه آخر؟ افترض" (سأقول له)، "افترض أننا لا نفعل سوى تكرار مناقضة التاريخ الغامضة تلك. افترض أننا نبدو

---

(1) مجلة Ally Sloper's Half Holiday هي مجلة كاريكاتورية بريطانية، صَدَرت لأول مرة في 1884. وتُعتَبر أوَّل مجلة هَزْليَّة تُجسِّد شخصيَّةً متكرِّرةً، و The Sporting Times مجلة رياضية تخصَّصَت في سباق الخيول، ظهرت 1865 وتوقَّفت عن الصدور في 1932. (المترجم)

مُثيرين للاشمئزاز كما يبدو المسيحيُّون لأننا في الحقيقة أبرياء كالمسيحيِّين. افترِضْ أننا نبدو مجانين كما يبدو المسيحيُّون لأننا في الحقيقة خانِعون"".

كان التصفيق الذي تَجاوَبَ من العبارات الافتتاحية قد بدأ في التلاشي تدريجيًّا، وعند الكلمة الأخيرة توقَّف تمامًا. في هذا الصَّمت المفاجئ، قال الرجل ذو المعطف المخمليِّ، بصوتٍ حادٍّ مرتفع:

"لكنني لستُ خانِعًا!".

"يخبرنا الرفيق ويذرسبون"، استأنف جريجوري، "أنه ليس خانعًا. أوه، كم هو قليل ما يعرفه عن نفسه! إن كلماته مُتطرِّفَة حقًّا؛ مظهره شديدُ التَّوحُّش، بل وحتَّى (بالنسبة لذائِقَةٍ عاديَّةٍ) غير جذَّاب. لكن فقط عينُ صداقَةٍ عميقةٍ ومُرهَفَةٍ كصداقتي يمكنها رؤية الأساس العميق للخنوع الصُّلب الذي يستقرُّ في جوهره، عميقًا جدًّا عن أن يراه هو نفسه. أكرِّر، نحن المسيحيُّون الحقيقيُّون الأوائل، فقط جئنا متأخِّرين. نحن بسطاء، تمامًا كالبساطة التي يبجِّلونها- انظروا إلى الرفيق ويذرسبون. نحن مُتواضِعون، تمامًا كما كانوا متواضعين... انظروا إليَّ. نحنُ رُحَماء... ".

"لا، لا!" صاح السيد ويذرسبون ذو المعطف المخملي.

"أقول نحن رُحَماء"، كرَّر جريجوري باهتياج، "تمامًا كما كان المسيحيُّون الأوائل رُحَماءَ. إلَّا أن ذلك لم يمنع اتهامَهم بأكل لحم البشر. ونحن لا نأكل لحم البشر...".

"هذا عار!" صاح ويذربسون. "ولِمَ لا؟".

"الرفيق ويذرسبون"، قال جريجوري، بابتهاجٍ محمومٍ، "توَّاقٌ لمعرفة لماذا لا يأكله أحد (ضحكات). في مجتمعنا، على أيِّ حال، وهو مجتمع يُحبُّه بإخلاص، ومُؤسَّسٌ على الحُبِّ...".

"لا، لا!" قال ويذرسبون، "يسقط الحب".

"ومُؤسَّسٌ على الحب"، كرَّر جريجوري، صارًا أسنانه، "لن نجد صعوبةً بشأن الأهداف التي يجب أن نتبعها ككيانٍ، والتي يجب أن أتبعها في حالة اختياري كمُمَثِّلٍ لذلك الكيان. مُتعالين باستخفافٍ عن الافتراءات التي تُصَوِّرنا كقَتَلَةٍ وأعداء للمجتمع الإنساني، سنمضي قُدُمًا بشجاعة أخلاقية وأحمال فكريَّة هادئة، أي المثل الدائمة للأَخَويَّة والبساطة".

عاد جريجوري إلى مقعده وضغط بيده على جبينه. كان الصمت مُفاجئًا وعصيبًا، لكن رئيس الجلسة نهض كإنسانٍ آليٍّ وقال بصوتٍ باهِتٍ:

"هل يُعارض أيُّ شخصٍ انتخابَ الرفيق جريجوري؟".

بدا التَّجمُّع الحاضر وقد التبس عليه الأمر وخاب أملُه على نحوٍ غير واعٍ، فيما كان الرفيق ويذرسبون يتحرَّك بقَلَقٍ واهتياج في مقعده، مُتمتِمًا من وراء لِحيَتِه الكثيفة. رغم ذلك، وعبر الاندفاع المحضِ للرُّوتين المعتاد فحسب، كان من المفترض تقديمُ الاقتراح وعَرضُه على الحاضرين. لكن رئيس الجلسة كان على وشك فتح فَمِه لتقديمه، عندما قفز سايم على قَدَمَيْه وقال بصوتٍ هادِئٍ وخفيض:

"نعم، سيدي الرئيس، أنا مُعتَرِض".

إن الحقيقة الأكثر فعالية في فَنِّ الخطابة هي أي تغيير غير مُتَوَقَّع في الصوت. وكما هو واضح كان السيد جابرييل سايم على درايَةٍ واضحة بفَنِّ الخطابة. بعد أن قال هذه الكلمات الرَّسميَّة الأولى بنغمة مُعتَدِلَة وبساطَةٍ مختصرة، نَطَقَ بالكلمة التالية برنينٍ وقُوَّةٍ صَدَحَت كما لو كانت بندقيَّةً انطلق عيارُها.

"يا رفاق!"، صاح قائلًا، بصوت جعل كُلَّ رجُلٍ يقفز خارجًا من حذائه، "هل أتينا هنا من أجل هذا؟ هل نعيش تحت الأرض كالجرذان حتَّى نستمع إلى حديث كهذا؟ هذا حديث قد نسمعه أثناء تناوُلِنا الكعكَ في وجبات المدارس الدينية. هل نحشو هذه الجدران بالأسلحة ونُسيِّجُ ذلك البابَ بالموت خشيةَ أن يأتي أحدٌ ويسمع الرفيق جريجوري يقول لنا، "كُن صالِحًا، تَكُنْ سعيدًا"، و"النزاهة هي السياسة المثلى" و"الفضيلة مُكافَأةٌ في حَدِّ ذاتها"؟ لم أسمع بكلمة في خطاب الرفيق جريجوري لن يستمع إليها قِسِّيسٌ بِكُلِّ ابتهاجٍ (صيحات استحسان). لكنني لستُ قِسِّيسًا (هتافات مُتجدِّدة)، الرجل المناسب لأن يكون قِسِّيسًا صالِحًا لا يمكن أن يكون خَميسًا ذا عَزمٍ وتصميمٍ والتزام (صيحات استحسان)".

"أخبرنَا الرفيق جريجوري، بنغمة اعتذاريَّة جدًّا فحسب، أننا لسنا أعداء المجتمع. لكنني أقول إننا أعداء المجتمع، بل أعداء على أسوأ شاكِلَة. نحن أعداء المجتمع؛ لأن المجتمع عدوٌّ للبشرية، عدوُّه الأقدم والأكثر قسوةً (صيحات استحسان). أخبرنا الرفيق جريجوري (بنغمة اعتذاريَّة أيضًا) أننا لسنا قَتَلَةً، لكننا في الحقيقة سَيَّافون (هتافات)".

منذ أن نهض سايم كان جريجوري قد جلس مُحَدِّقًا فيه، يمتلئ وجهه بالحماقة المندهشة. الآن في برهة توقُّفِه القصيرة، تباعَدَت شفتاه المتشقِّقتان وقال، بوضوحٍ آليٍّ، عديم الحياة:

"أنتَ أيُّها المنافق الملعون!".

تطلَّع سايم مباشرةً إلى تلكما العينَيْن المرتعبتين بعينيه الزرقاوين الشاحبتين، وقال بترفُّعٍ:

"يتَّهمني الرفيق جريجوري بالنِّفاق. يعرف كما أعرف أنني أفي بِكُلِّ تَعهُّداتي وأنني لا أفعل شيئًا سوى واجبي. لا أتصنَّع الكلمات. لا أتظاهر بذلك. أقول إن الرفيق جريجوري لا يصلح أن يكون الخميسَ رغم

خِصالِه الطَّيِّبة؛ بل لا يصلح أن يكون الخميسَ تحديدًا بسبب خِصالِه الطَّيِّبة. لا نريد لمجلس الفوضويَّة الأعلى أن يُصاب بعدوى الرَّحمة الجَيَّاشة (صيحات استحسان). لا وقت لدينا للتأدُّب الاحتفالي، ولا هذا هو الوقت المناسب من أجل التواضُع الاحتفالي. أُعلِنُ اعتراضي ضدَّ الرفيق جريجوري وضدَّ كُلِّ حكومات أوروبا؛ لأن الفوضويَّ الذي يمنح نفسه للفوضوية قد نسيَ التَّواضُعَ بقدر ما نَسِيَ الكبرياء (هتافات). لستُ إنسانًا على الإطلاق. فأنا قضية (مزيد من الهتافات). أعلن اعتراضي على الرفيق جريجوري، بمنتهى التجرُّد والهدوء الذي أختار به مُسدَّسًا على مُسدِّسٍ آخر من رفٍّ على الحائط؛ وأقول إنني أُفَضِّل، بدلًا من جريجوري وأساليبه على طريقة الحليب والماء التي يمارسها على المجلس الأعلى، أن أُقَدِّمَ نفسي للانتخاب...".

تلاشَت جُملَتُه في شلَّال التصفيق المصِمِّ للآذان. والوجوه، التي ازدادت هياجًا وتوحُّشًا بالموافقة مع ازدياد خُطبَتِه المطوَّلة تَصَلُّبًا، غَدَت الآن مُشوَّهة بتقطيبات التَّرقُّب أو مُمزَّقة بصيحات الابتهاج. في اللحظة التي أعلن فيها عن استعداده للتقدُّم لمنصب الخميس، انبثق هديرُ الاستثارة والتأييد، وأصبح خارجًا عن السيطرة، وفي نفس اللحظة اندفع جريجوري واقِفًا على قَدَمَيْه، والزَّبَدُ يندفع من فمه، وصاح ضدَّ الصِّياح.

"توقَّفوا، أيُّها المجانين الحمقى!" صاح قائلًا، بأعلى طبقةٍ صَوتيَّةٍ يتحمَّلها حَلقُه. "توقَّفوا، أنتم أيُّها...".

لكن أعلى من صياح جريجوري وأعلى من صخب الغرفة انطلق صوتٌ سايم، متحدِّثًا -ما زال- بقَصفٍ عديم الرَّحمَة:

"لن أخطو إلى المجلس لإنكار تلك الافتراءات التي تُسمِّينا بالقتلة؛ بل أخطو لأصبح جديرًا بها (هتافات عالية وطويلة). وإلى القسِّ الذي يقول إن هؤلاء الرجال هم أعداء الدين، وإلى القاضي الذي يقول إن

هـؤلاء الرجـال هـم أعـداء القانـون، إلى البرلمـانيِّ البديـن الـذي يقـول إن هـؤلاء الرجـال هـم أعـداء النظـام والـذَّوق العـام، إلى كل هـؤلاء أقـدِّم إجابتـي، "أنتـم ملـوكٌ زائفـون، لكنَّكـم أنبيـاء حقيقيـون. جئـتُ لأُدمِّرَكـم وأُحقِّـق نبوءاتكـم"".

اختَفَـت الضوضـاء الثقيلـة تدريجيًّـا، لكـن قبـل أن تتوقَّـف تمامًـا نهـضَ ويذرسـبون فجـأةً عـلى قدميـه، بشَـعرِه ولِحيَتِـه، مُنتَصِبَـيْن تمامًـا، وقـال:

"ألتمس -كتعديلٍ- تعيينَ الرفيق سايم في المنصب".

"توقَّفـوا عـن كل هـذا، أقـول لكـم!" صـاح جريجـوري، بوجـهٍ ويدَيْـن مسـعورَتَيْن. "أوقفـوه، إنـه شيء...".

لكنَّ صوت رئيس الجلسة شقَّ حديثه إلى نصفين بلهجةٍ باردة.

"هـل يؤيِّـد أيُّ شـخص هـذا التعديـل"، قـال. ثـم شـوهِدَ رَجـلٌ طويـل، مُرهَـقٌ، بعينـين تعلوهـما الكآبَـةُ ولحيـة صغـيرة أمريكيَّـة، في المقعـد الخلفـي ينهـض ببـطء. كان جريجـوري غارقًـا في الصيـاح لبعـض الوقـت حينهـا؛ والآن حـدث تغيُّر في لهجتـه، أصبـح حديثُـه مُثيرًا للاشـمئزاز أكـثرَ مـن كَونِـه صراخًـا. "سـأنهي كُلَّ هـذا"، قـال، بصـوتٍ ثقيـلٍ كالحجـارة.

"لا يمكن انتخابُ هذا الرَّجُل. إنه...".

"نعـم"، قـال سـايم، سـاكِنًا تمامًـا، "مـاذا يكـون؟". تحرَّكَـت شـفتا جريجـوري مرَّتَـيْن لكـن بـلا صـوت؛ ثـم بـدأت الدمـاء في الزحـف ثانيـةً عائـدةً إلى وجهـه الميِّـت. "إنـه رَجُـلٌ بـلا أيِّ خـبرَةٍ في عملنـا"؛ قـال وجلـس فجـأةً.

قبـل أن يفعـل هـذا، كان الرجـل النحيل، الطويـل ذو اللحيـة الأمريكية، قـد نهـض ثانيـةً، مُكـرِّرًا بنغمـة رتيبـة أمريكيـة عالية:

"ألتمس تأييدَ انتخاب الرفيق سايم".

"التعديل سيكون، كالعادة، أوَّلَ ما يتمُّ تقديمه"، قال السيد باتونز، رئيس الجلسة، باستعجالٍ آليٍّ.

"المسألة هي أن الرفيق سايم...".

كان جريجوري قد نهض واقِفًا ثانيةً، لاهِثًا ومُنفَعِلًا.

"يا رفاق"، صاح قائلًا، "لستُ مجنونًا".

"أوه، أوه!" قال السيد ويذرسبون

"لستُ مجنونًا"، كرَّر جريجوري، بإخلاصٍ مُخيفٍ أدهَشَ القاعة لوَهلَةٍ، "لكنني أمنحكم نصيحةً لكم أن تُسمُّوها مجنونةً إذا شِئتُم. لكن لا، لن أُسمِّيها نصيحةً؛ لأنَّني لا أستطيع تقديم سببٍ لها. سأسمِّيها أمرًا. ليكن أمرًا مجنونًا، وتصرَّفوا على أساسه. اضربوني، لكن اسمعوني! اقتلوني، لكن أطيعوني! لا تنتخبوا هذا الرجل". كانت الحقيقة مريعةً جِدًّا، حتَّى في الأصفاد، لحدِّ أنه لوهلة، تمايَلَ انتصار سايم المرهَف والمجنون كعود قَصَبٍ. لكن لم يكن بالإمكان استشفافُ ذلك من عينَيْ سايم الزَّرقاوَيْن الباردتين. بدأ فحسب قائلًا:

"يأمر الرفيق جريجوري...".

ثم انكسر السِّحر، وصاح واحِدٌ من الفوضويِّين مُناديًا جريجوري:

"مَّن أنتَ؟ أنتَ لست الأحد"؛ ثم أضاف فوضويٌّ آخر بصوتٍ أكثر حِدَّة، "ولستَ الخميسَ".

"يا رفاق"، صاح جريجوري، بصوتٍ يشبه صوت شهيدٍ تجاوز الإحساس بالألم في نشوة ألمه، "لا أهتمُّ البَتَّةَ بما إذا كُنتم تُبغضونني كمستبدٍّ أو كعَبدٍ. إذا لم تأخذوا بأمري، فاقبلوا إذلالي. أركع أمامكم. ألقي بنفسي على أقدامكم. أتوسَّل إليكم. لا تنتخبوا هذا الرجل".

"رفيق جريجوري"، قال رئيس الجلسة بعد بُرهَةٍ مُؤلِمَةٍ"، هذا ليس وقورًا تمامًا في الحقيقة".

للمرّة الأولى في كل ما حدث كان هناك صَمتٌ حقيقيٌّ لبضع ثوانٍ. ثم تداعى جريجوري ثانيةً في مقعده، رُكامَ رَجُلٍ شاحب، وكرَّر رئيس الجلسة، كساعة ميكانيكيَّةٍ تبدأ في الدَّقّ ثانيةً بغتةً:

"المسألة هي انتخابُ الرفيق سايم لمنصب الخميس في المجلس العام".

تعالى الصَّخَبُ كالبحر، ارتفعت الأيدي كالغابة، وبعد ذلك بثلاث دقائق تمَّ انتخاب السيد جابرييل سايم، من خدمة البوليس السِّرِّيِّ، لمنصب الخميس في المجلس العام لفوضويِّي أوروبا.

بدا جميع الجالسين وكأنهم يشعرون بالقارب البخاري المستلقي على النهر، وبعصا السَّيفِ والمسدَّس، القابِعَيْن على الطاولة. في اللحظة التي اكتمل فيها الانتخابُ وأصبح غيرَ قابِلٍ للإلغاء، وتلقَّى سايم الورقةَ التي تُثبِتُ انتخابَه، نهض الجميعُ واقفين، وتحرَّكَت المجموعات الهائجة واختلطت في القاعة. وجد سايم نفسه، بطريقة أو بأخرى، وجهًا لوجه أمام جريجوري، الذي كان ما زال ينظر له بتحديقَةٍ تملؤها الكراهية المذهولة. كانا صامِتَيْن لبضع دقائق.

"أنتَ شيطان!" قال جريجوري أخيرًا.

"وأنتَ چنتلمان"، قال سايم بوقارٍ.

"أنتَ مَن نَصَبَ لي الفَخَّ"، بدأ جريجوري، مُرتَعِشًا من رأسه إلى قدَمَيْه، "للسُّقوط في...".

"تَعقَّلْ"، قال سايم باختصار. "في أيِّ نوع من برلمان الشياطين أوقَعتَني أنتَ، إذا تكلَّمنا عن الفخاخ؟ جَعَلتَني أقسم قبل أن أدفَعَكَ إلى الفَخِّ. ربما نحن الاثنين فعلنا ما نعتقد أنه صواب. لكن ما يعتقده كلٌّ منَّا يختلف تمامًا عن بعضه البعض، لحدِّ أنْ لا شيء بيننا

حتى نتجادَلَ بشأنه. لا يوجد شيء مُمكِنٌ بيننا سوى الشَّرَف والموت"، ثم سحب رداءه الهائل على كتفه والتقط القِنِّينَةَ من الطاولة.

"القارب ينتظر"، قال السيد باتونز، حاثًّا إيَّاه على الإسراع. "تَفضَّل بالمرور من هنا".

بإيماءة كشَفَت عن مهنته كمستخدَمٍ في متجر تجزئة، قاد سايم عبر مَمَرٍّ قصير، مُبَطَّنٍ بالحديد، يتبعهما جريجوري الغارِقُ في ألمه ما زال. في نهاية الممرِّ كان هناك باب، فتحه باتونز بحدَّة، كاشِفًا عن صورة زرقاء وفضِّيَّة مُفاجِئَة للنهر الغارق في ضوء القمر، وهو ما بدا كمشهدٍ في مسرحية. بالقرب من الباب المفتوح كان يستقرُّ قارِبٌ بُخاريٌّ مُظلِمٌ صغير جدًّا، كتِنِّينٍ رضيعٍ بِعَيْنٍ حمراءَ واحدة.

بعدما خطا جابرييل سايم على اللَّوح، استدار على الفور إلى جريجوري فاغِرِ الفِيه.

"لقد أوفيتَ بوَعدِكَ"، قال برقَّة، ووجهه في الظلام. "أنتَ رَجُلٌ شريفٌ، أشكُرُكَ. حافَظتَ على السِّرِّ حتى أصغر تفصيلَةٍ. هناك شيءٌ واحد بعَينِه وَعَدتَني به في بداية المسألة، ثم مَنَحتَني إيَّاه بالتأكيد في نهايتها".

"ماذا تقصد؟" صاح جريجوري المشوَّش. "بماذا وَعَدتُكَ؟".

"وَعَدتَني بأمسيةٍ مُسلِّيةٍ جدًّا"، قال سايم، ثم ألقى تحيَّةً عسكريَّةً بعصا السيف مع تَهادي القارب البُخاريِّ بعيدًا.

الفصل الرابع

حِكايَةُ مُحقِّقٍ سِرِّيٍّ

لم يَكُن جابرييل سايم مجرَّدَ مُحقِّقٍ سِرِّيٍّ تظاهَر أنه شاعِرٌ؛ كان في الحقيقة شاعِرًا تَحوَّل إلى مُحقِّقٍ سِرِّيٍّ. كذلك لم تكن كراهيته للفوضويَّة مُدَّعِيَة وغيرَ صادقة. كان واحدًا من هؤلاء الرجال الذين اندفعوا في بداية حياتهم في اتِّجاهٍ مُحافِظٍ للغاية لا يناسب الحماقة المذهلة لأغلب الثوريِّين. لم يُحقِّق ذلك عبر أي تقليدٍ لترويض النفس. كان طابعه المحترم عفويًّا ومُفاجئًا، ثورة ضدَّ الثورة. جاء من عائِلَةٍ من المهاويس، يتَّسِمُ العجائز فيها جميعهم بأفكار جديدةٍ تمامًا. واحد من أعمامه كان دائمًا ما يمشي بلا قُبَّعة، وآخر حاوَلَ ذات مرة بلا نجاح أن يسير بقُبَّعَةٍ ولا شيء آخر. كان أبوه يُشجِّع الفنَّ وتحقيق الذات، وأُمُّه نصيرة للبساطة والنظافة الجَسديَّة. وبالتالي فإن طفولته -في سنواته الهَشَّة- كانت جاهِلَةً بالكامل بأي مشروب بين نقيضَيْ

الأفسنتين[1] والكاكاو البريء، وكلاهما كان يحظى لديه بكراهيَةٍ صِحِّيَّة. كُلَّما وَعَظَته أُمُّه بتزمُّتٍ أقوى من البيوريتانيَّة كُلَّما اتَّجه أبوه إلى منحنى أقوى من الوَثَنِيَّة؛ ومع مرور الوقت انتهت الأولى إلى فرض المذهب النباتي، وانتهى الأخيرُ إلى الدفاع عن أكل لحوم البشر.

مُحاطًا منذ طفولته بكل نوعٍ مُتخيَّل من التَّمرُّد والثورة، كان على جابرييل أن يثور لتحقيق شيءٍ ما؛ لذلك تمرَّد لتَحقيقِ الشَّيء الوحيد المتبقِّي: سلامة عقله. لكن حينها لم يَعُد في داخله من دماء هؤلاء المتعصِّبين إلَّا ما يكفي بالكاد لمنح احتجاجه من أجل الحسِّ السليم الحدَّ الأدنى من الشراسة المطلوبة. تُوِّجَت كراهيته للفوضى الحديثة كذلك بحادِثَة. كان يسير ذات مرَّةٍ في شارعٍ جانبيٍّ عندما وقع هجومٌ بالديناميت. أصابه العمى والصَّمَمُ لِلَحظَةٍ، ثم رأى -بعد انجلاء الدُّخان- النَّوافِذَ المحطَّمة والوجوهَ النازفة. بعدها مضى في طريقه كالمعتاد- هادئًا، مُجامِلًا، ورقيقًا بعضَ الشيء، لكن في عقله أضْحَت بُقعَةٌ بعينها غيرَ سَليمَةٍ عَقليًّا. لم يكن ينظر إلى الفوضويِّين، كما ينظر مُعظَمُنا، على أنهم حفنةٌ من الرجال غير الأسوياء، يجمعون بين الجهل والعقلانية. بل كان ينظر إليهم كخَطَرٍ هائِل غير جدير بالشَّفَقة، كغزوٍ صينيٍّ.

دومًا كان يصبُّ في الصحف وسِلالِ مُخلَّفاتهم شَلَّالًا من القصص والأشعار والمقالات العنيفة، مُحَذِّرًا الرجالَ من فيضان الإنكار البربريِّ هذا. لكن لم يَبدُ أنه كان يقترب من عَدوِّه بأيِّ شكل، بل والأدهى، أنه لم يكن يقترب من أيِّ شخصٍ حيٍّ. أثناء كان من عادته أثناء سَيْرِه على جسر التيمز أن يعضَّ بمرارَةٍ على سيجارٍ رخيص ويتأمَّل في مسألة ازدهار الفَوضويَّة، لم يكن في جَعبَةِ أيِّ فَوضويٍّ قُنبلةٌ تُضاهي شِدَّةَ وَحشَتِه وعُزلَتِه. في واقع الأمر، دائمًا ما كان يشعر أن الحكومة تَقِفُ

(1) من أقوى المشروبات الكحولية- (المترجم)

وحيدةً ويائسة، بِظَهرِها على الحائط. كان شديدَ التَّوَهُّم لحدٍّ يمنعه أن يفكِّر في المسألة بشكلٍ آخر.

كان يسير على الجسر ذات مرَّةٍ تحت الغروب الأحمر القاتم. النهر الأحمر يعكس الشمسَ الحمراء، وكلاهما يَعكِسان غَضَبَه. السماء داكنة جدًّا والضوء على النهر مُتَوهِّج جدًّا بالقياس إليها، لِحَدٍّ أن الماء بدا تقريبًا كَلَهَبٍ أكثرَ شراسَةً من الغروب الذي يعكسه. بدا حرفيًّا كتيَّارٍ من النار يلتفُّ تحت الكهوف الشاسِعَة لبلاد ما تحت النَّهر.

في تلك الأيام كان رَثَّ الملابس. يرتدي قُبَّعةً سوداء على طراز قديمٍ تُشبِه قِدْرَ المدخَنَةِ، تلفُّه عباءةٌ على طرازٍ أقدمَ، سوداءَ ومُشعَّثة؛ منحتاه مَنظَرَ الأشرار الأوائل في روايات ديكنز وبولوير ليتون. لِحيَتُه وشَعرُه الأصفر أيضًا كانا أكثرَ تَوحُّشًا وحيوانيَّةً ممَّا أصبحا عليه بعد ذلك بزمنٍ طويل؛ مُهذَّبان ومُستَدقَّان على مروج سافرون بارك. من بين أسنانه المزمومة يَبرُزُ سيجارٌ أسود، رفيعٌ وطويل، اشتراه في سوهو مقابِلَ بِنسَيْن، وبهذا كُلِّه بدا كعَيِّنَةٍ مَقبولَةٍ جدًّا من الفوضويِّين الذين كان قد أقسم بشَنٍّ حربٍ مُقدَّسة عليهم. ربما لهذا تحدَّث إليه رجلُ شُرطَةٍ على الجسر، وقال له، "مساؤكَ طَيِّب".

بدا سايم، في خِضَمِّ أزمة مخاوفه المرضيَّة من أجل الإنسانية، وقد لَدَغَه تَبَلُّدُ الحِسِّ التلقائي الرسمي الذي خلقه ظهور اللون الأزرق في الشَّفَق.

"هل هو مساءٌ طيِّبٌ حقًّا؟" قال بحِدَّة. "أنتم معشر الشُّرطَة تدعون نهايةَ العالم بالمساء الطيب. انظر إلى الشمس الحمراء الدامية وإلى ذلك النهر الدامي! أُخبِرُكَ أنه إذا كان دمًا بشريًّا حرفيًّا، مسفوحًا ومتألِّقًا، فإنكم ستقفون هنا، رغم ذلك، مُتَبلِّدي الحِسِّ كما أنتم أبدًا، تبحثون عن صُعلوكٍ بائسٍ ما يُمكِنُكم دَفعُه أمامكم. أنتم الشُّرطيِّون

قُساةٌ على الفُقَراء، لكن بإمكاني أن أسامح قَسوَتَكم إذا لم تكونوا بهذا الهدوء والبرود".

"إذا كُنَّا بهذا الهدوء"، أجابه رجلُ الشرطة"، "فهو هدوء المقاومة المنظَّمة".

"أها؟" قال سايم، مُحَملِقًا.

"الجُنديُّ يجب أن يكون هادئًا في مَعمَعَةِ المعركة"، تابع الشُّرطيُّ. "رباطة جأش الجيوش هو غضب الأمم".

"يا إلهي، هي المدارس غير الطَّائِفيَّة!" قال سايم. "هل هذا هو التعليم غير الطائفي؟".

"لا"، قال الشُّرطيُّ بحُزنٍ، "لم أَنَل أبدًا أيًّا من هذه المزايا. ظَهَرَت المدارس غير الطائِفيَّة بعد زماني. أخشى أن ما نِلتُه من تعليمٍ كان قاسيًا جدًّا وعلى طِرازٍ قديم".

"أين تَلقَّيتَه؟" سأله سايم، مُتعجِّبًا.

"أوه، في هارُّو"، قال الشرطيُّ.

انفجر التَّعاطُف الطَّبَقيُّ من سايم قبل أن يتمكَّن من السيطرة عليه؛ وهو تعاطُفٌ -رغم زيفه- يُمثِّل أصدقَ شيء لدى كثير من الرجال.

"لكن، يا إلهي"، قال سايم، "لم يكن ينبغي لك أن تكون شرطيًّا!".

تنهَّد الشُّرطيُّ وهزَّ رأسه.

"أعرف"، قال مُتَجهِّمًا، "أعرف أنني غير جدير بهذا".

"لكن لماذا التحقت بالشرطة؟" سأله سايم بفضولٍ وَقِح.

"غالبًا لنفس السبب الذي من أجله أسَأتُم الظَّنَّ في الشرطة"، أجاب الآخر "اكتَشفتُ وجود إعلانٍ خاصٍّ للالتحاق بالخدمة لهؤلاء

الـذي تتعلَّـق مخاوفهـم مـن أجـل الإنسـانية، بالأحـرى، بانحرافـات الفكـر العِلمـيِّ وليـس بانفجـارات الإرادة البشريَّـة الطبيعيـة والمغتَفَـرَة، والمتطرِّفة رغـم ذلـك. أنـا عـلى ثِقَـةٍ أننـي أَوضَحـتُ المسـألة".

"إذا كُنـتَ تعنـي أنَّـكَ أوضَحـتَ رأيَـكَ"، قـال سـايم، "فأظـنُّ أنْ فَعَلـتَ. لكـن أنَّـكَ أوضَحـتَ المسـألة، فهـو آخِـرُ شيءٍ قـد تكـون فَعَلتَـه. كيـف يتـأتَّى لرَجُـلٍ مثلـك أن يتحـدَّث عـن الفلسـفة وهـو يرتـدي خـوذةً زَرقـاءَ عـلى جـسر نهـر التيمـز؟".

"لم تسـمع بالتأكيـد عـن آخـر تَطَـوُّرٍ في نظامنـا الشُّرطـي"، أجابـه الآخـر. "لا أسـتغرب هـذا. فنحـن نبقـي عـلى الأمـر سِرًّا عـن الطبقـة المتعلِّمـة؛ لأن تلـك الطبقـة تَضُـمُّ معظـم أعدائنـا. لكنـك تبـدو في نفـس الإطـار العقـلي بالضبـط. أعتقـد أنـه ينبغـي عليـك الانضـمام لنـا".

"أنضمُّ إليكم في ماذا؟" سأله سايم.

"سـأُخبِرُكَ"، أجابـه الشرطـيُّ ببُـطءٍ. "هـذا هـو الوضـع: رئيـسٌ واحـد مـن أقسـامنا، واحِـدٌ مـن أشـهر رجـال التَّحـرِّي في أوروبـا، طالمـا كان مـن أنصـار الـرأي القائـل بـأن مؤامَـرَةً فِكريَّـةً مَحضَـةً سـتُهدِّد قريبًـا جوهـر وجـود الحضـارة. وهـو عـلى يقـين بـأن دوائـر الفـن والعلـم مُنخَرِطَـة بصَمـتٍ في حملـة عنيفـة ضـدَّ فكـرة العائلـة والدولـة؛ لذلـك قـام بتشـكيل فَيْلَـقٍ خـاص مـن الشرطيـين، شرطيـين هـم فلاسـفة في نفـس الوقـت. وتنحـصر مسـؤوليَّتُهم في مُراقَبَـةِ بدايـات هـذه المؤامـرة، ليـس فقـط بالمعنـى الإجرامـي، ولكـن أيضًـا بالمعنـى الجَـدَليِّ. أنـا نفـسي ديمقراطـيٌّ، عـلى وَعـيٍ كامـل بقيمـة الإنسـان العـادي في مسـائل الفضيلـة والشـجاعة العاديَّـة. بالتـالي ليـس مـن المسـتَحَبِّ أبـدًا اسـتخدام الشرطـي العـادي في تحقيقـاتٍ هـي أيضًـا اصطيـادٌ للهَراطِقَـة".

كانت عينا سايم تَبرُقان بفُضولٍ مُتعاطِف.

"ماذا تفعل، إذن" سأله.

"عمل الشرطي الفيلسوف"، أجابه الرجل ذو الزِّيِّ الأزرق، "هو في آنٍ أكثر شجاعةً وأكثر براعةً من عمل التَّحرِّي العادي. فرَجُل التَّحرِّي العادي يذهب إلى الحانات سيِّئَة السُّمعة حتى يقبض على اللصوص، بينما نذهب نحن إلى حفلات الشاي والفن للبحث عن المتشائِمين. رجل التَّحرِّي العادي يكتشف من دفتر حساباتٍ أو يوميَّاتٍ أن جريمةً قد ارتُكِبَت. بينما نكتشف من كتابٍ لشعر السونيتات أن جريمةً ستُرتَكَبُ. يتوجَّب علينا تتَبُّع مَنشَأ وأصل هذه الأفكار المريعة التي تقود الرجال لِتَصِلَ بهم في النهاية إلى التَّعصُّب الفكري والجرائم الفكرية. وصلنا في آخر لحظة تمامًا لمنع جريمة اغتيال في هارتلبول، وكل هذا بالكامل يرجع لحقيقة أن السيد ويلكس (شرطي شاب ذكي) قد نجح في فهم قصيدة تريوليت من ثمانية أبيات بالكامل".

"هل تعني"، سأله سايم، "أنه توجد صِلَةٌ حقًّا بين الجريمة والفكر الحديث كما تقول؟".

"لستَ ديمقراطيًّا بما يكفي"، أجابه الشرطي، "لكن أَصَبتَ عندما قلتَ لِتَوِّكَ إنَّ تَعامُلَنا العاديَّ مع ذلك المجرِم الفقير كان في غاية الوَحشيَّة. أقول لك إنه أحيانًا ما يصيبني السَّقَم من مِهنَتي عندما أرى أن الأمر لم يَعُد سوى حَربٍ لا تنتهي على الجَهَلَةِ والبائسين. لكن حركتنا الجديدة هذه هي أمرٌ مُختَلِف تمامًا. نُنكِر الادِّعاءَ الإنجليزي المتَغطرِسَ أن غير المتعلِّمين مُجرِمون خَطِرون بالفطرة. نتذكَّر الأباطرة الرومان. نتذكَّر أُمَراءَ عَصرِ النَّهضَة العِظام الذين اعتادوا القتلَ بالسُّمِّ. نقول إن المجرم الخطير هو المجرم المتعلِّم. نقول إن المجرم الخطير في الأغلب هو الفيلسوف الحديث الخارج عن القانون بالكامل. بالمقارَنَة به، فإن اللصوص ومُتعدِّدو الزوجات هم رجالٌ أخلاقيُّون في جوهرهم؛ قلبي يميل لهم. فهم يَقبَلون الفِكرَةَ الجَوهريَّة للإنسان؛ لكنهم يبحثون عنها بشكلٍ خاطئ فحَسْبُ. يحترم اللصوص مبدأ الملكيَّة. هم فقط يتَمَنَّون أن تكون الممتلكات لهم حتى يحترموا المِلْكيَّة بشكل أفضل.

لكـن الفلاسـفة يـزدرون الملكيَّـة في حَـدِّ ذاتهـا؛ يتوقـون إلى تدمـير فكـرة الحيـازة الشـخصية في جوهرهـا. يحـترم مُتعـدِّدو الزَّوجـاتِ مبـدأ الـزواج، وإلَّا فلـم يكـن لهـم أن يذهبـوا بعيـدًا في الشـكلية الاحتفاليـة وحتَّـى الطقوسـية في زيجاتهـم المتعـدِّدة. لكـن الفلاسـفة يحتقـرون الزَّواجَ كـزَواجٍ. والقَتَلَـة، يحترمـون الحيـاة البشريـة؛ لكنهـم يتوقـون فحسـب إلى اقتنـاص اكتـمال أكـبر للحيـاة البشريـة في ذواتهـم عـبر التضحيـة بمَـن يَبـدون لهـم ذوو حيـاةٍ أقـلَّ قيمـة. لكـن الفلاسـفة يكرهـون الحيـاة نفسـها، حياتهـم نفسـها بقـدر حيـوات الآخريـن".

هزَّ سايم يديه مُوافِقًا.

"كـم أن هـذا صحيـح"، صـاح قائـلًا. "طالمـا شـعرتُ بـه منـذ طفولتـي، لكـن أبـدًا لم أجـد التَّضـادَّ الشَّـفهيَّ المناسِـب. المجـرم العـادي هـو إنسـان سـيِّئ، لكنـه عـلى الأقـل، في حقيقـة الأمـر، إنسـان صالـح مُعلَّـق عـلى شروطٍ مُعيَّنَـة. يقـول إنـه إذا أُزيلَـت عقبـة بعينهـا -لِنَقُـل عَـمٌّ ثـريٌّ- فإنـه مُسـتعِدٌّ لقبـول الكـون وتمجيـد الله. إنـه مُصلِـح، لكـن ليـس فوضويًّـا. يتـوق إلى تطهـير البنيـان الأكـبر، لكـن ليـس إلى تدميـره. لكـن الفيلسـوف اللعـين لا يسـعى إلى تبديـل الأشـياء، بـل إلى إبادتهـا. نعـم، لقـد احتفـظ العالَـمُ الجديـد بـكل تلـك النواحـي مـن العمـل الشُّرَطـيِّ القمعيَّـة والمخزيـة حقًّـا، تعذيـب الفقـراء، التَّلصُّـص عـلى البائسـين سـيِّئي الحـظ. وتخلَّى عـن عملـه الأكـثر جـلالًا، عقـاب الخَوَنَـة ذوي القُـدرَة في الدولـة والمهَرطِقـين ذوي القـدرة في الكنيسـة. يقـول أصحـاب الآراء العصريـة إن علينـا ألَّا نُعاقِـبَ المهَرطِقـين. شـكِّي الوحيـد هـو مـا إذا كُنَّـا نَمِلـكُ الحـقَّ في مُعاقَبَـة أيِّ شـخصٍ آخـر".

"لكـن هـذا عَبـثٌ!"، صـاح الشرطـي، وضـمَّ بـين يديـه باسـتثارةٍ غـير معتـادة عـلى الأشـخاص مـن هيئتـه وزِيِّـه، "لكـن هـذا غـير مقبـول! لا أعـرف مـاذا تفعـل، لكنَّـكَ تُبـدِّدُ حياتَـكَ. عليـكَ أن تنضـمَّ -وسـتفعل

ذلك حتمًا- إلى جيشنا المكرَّس ضدَّ الفوضويَّة. جيوشها على حدودنا. صاعِقَتُها على وشك أن تقع على رؤوسنا. لحظة واحدة أخرى، وقد تفقد مجدَ العمل معنا، وربما مجد الموت مع آخر أبطال العالَم".

"إنها فرصة لا تُفَوَّتُ، بالتأكيد"، وافقه سايم"، "لكنني لا زِلتُ لا أفهم تمامًا. أعرف كما يعرف الجميع أن العالم الحديث يمتلئ برجال صغار فوضويِّين وحركات صغيرة مجنونة. لكنهم، رغم همجيَّتِهم، يتمتَّعون في العموم بمَزِيَّةٍ وحيدة؛ هي الاختلاف بين بعضهم البعض. كيف يُمكِنُكَ أن تتحدَّث عن قيادتهم لجَيشٍ واحد أو قَذفِهم لصاعقة. أي نوع من الفوضوية هذا؟".

"لا تَخلِطْ بينها"، أجابه الكونتسابل، "وبين انفجارات الديناميت الفُجائِيَّة تلك التي تقع في روسيا أو في أيرلندا، وهي انفجارات رجالٍ مقموعين في الظاهر. لكن ما أتحدَّث عنه هو حركة فلسفيَّة واسعة، تتشكَّل من حلقة خارجيَّة وأخرى داخلية. لك أن تدعو الحلقة الخارجيَّة باسم العلمانية والداخلية باسم الكهنوت. لكنني أفضِّل أن أدعو الحلقة الخارجية باسم القطاع البريء، والداخلية بالقطاع المذنِب على نحو مُريعٍ. الحلقة الخارجية -الكتلة الرئيسة من داعمي الحركة- تتكوَّن من مُجرَّد فَوضويِّين؛ أيْ رجال يعتقدون أن القواعد والمُثُل قد دمَّرت السعادة الإنسانية. يعتقدون بأن النتائج الشريرة للجريمة الإنسانية هي نتيجة النظام الذي أطلق عليها اسم جريمة. لا يعتقدون أن الجريمة مُنشِئَةً للعقاب، بل يؤمنون أن العقاب هو ما أوجد الجريمة. يؤمنون بأنه إذا نجح رَجُلٌ في إغواء سَبعِ نسوةٍ فله أن يمضي بلا لَومٍ ولا عقاب كزهور الربيع. ويؤمنون بأنه إذا قام رجلٌ بِنَشلِ أحدِهم، فله أن ينتابه شعورٌ في غاية الرَّوعَة. هؤلاء مَن أدعوهم بالقطاع البريء".

"أوه!" قال سايم.

"بالطَّبع، لذلك، فإن هؤلاء الناس يتحدَّثون عن أشياء من قبيل "مجيء زمن سعيد"؛ "فردوس المستقبل"؛ "تحرُّر النوع الإنساني من عبودية الرذيلة وعبودية الفضيلة". وهكذا أيضًا يتحدَّث رجال الدائرة الداخلية- الكهنوت المقدَّس. يتحدَّثون للجموع المصَفِّقة عن السعادة في المستقبل، وتحرُّر النوع الإنساني في النهاية. لكن في أفواههم" -وهنا أخفض الشرطي صوته- "في أفواههم تتَّخِذُ هذه العبارات السعيدة معنًى مُريعًا. ليسوا فريسةً لأي أوهام؛ بل عقلانيِّين جدًّا لدرجة أن يظُنُّوا أن الإنسان على هذه الأرض بإمكانه التحرُّر تمامًا من الصراع والخطيئة الأصلية، وبهذا يقصدون الموت. عندما يقولون إن النوع الإنساني سيصبح حرًّا في نهاية المطاف، فهم يقصدون أن النوع الإنساني سينتحر. عندما يتحدَّثون عن الفردوس بلا صوابٍ أو خطأ، فهم يقصدون القبر".

"ليس أمامهم سوى هدَفَيْن، تدمير الإنسانية أولًا ثم أنفسهم. وهذا هو سبب إلقائهم للقنابل بدلًا من إطلاق النَّار من المسدَّسات. الطوابير والرُّتَب البريئة خاب أملها لأن القنبلة لم تَقتُل الملك؛ لكنَّ الكهنوتَ العالي سعيدٌ لأنها قَتَلَت شخصًا ما".

"كيف يمكنني الانضمامُ لكم؟"، سأله سايم، متحمِّسًا بعض الشيء.

"أعرف -كحقيقةٍ- أنه يوجد مكانٌ شاغِرٌ الآن"، قال الشرطي، "فقد تشرَّفتُ أن أحوز بشكلٍ ما ثِقَةَ الرئيس الذي حدَّثتُكَ عنه. ينبغي عليك حقًّا أن تأتي وتراه. أو بالأحرى، ليس أن تراه بالضَّبط، فلا أحد يراه؛ لكن بإمكانك التَّحدُّث إليه إذا شِئتَ".

"عبر الهاتف؟" تساءل سايم باهتمام.

"لا"، قال الشرطي بهدوء، "لكنه يحب الجلوس في غرفةٍ حالِكَةِ الظَّلام. يقول إن ذلك يجعل أفكاره أكثر إشراقًا. يمكنك المجيء والتحدُّث إليه فيها".

مُنبَهِرًا ومُستثارًا جدًّا بشكلٍ ما، استسلم سايم لقيادته إلى بابٍ جانبيٍّ في صَفِّ المباني الطويل لسكوتلاند يارد. وقبل أن يدرك ما يحدث، كان قد تَناقَلَته أيادي حوالي أربعة من الوسطاء، وأصبح فجأةً داخل غرفة، جَفلَته بسوادها المفاجئ كلهيبٍ من الضوء. لم يكن ظلامًا عاديًّا، يمكن فيه تَتَبُّعُ الأشكال على نحوٍ ضعيف؛ بل ظلام أعمى كالحجارة.

"هل أنت المجنَّد الجديد؟" سأله صوتٌ عميق.

وبطريقةٍ عجيبة ما، رغم أنه لم يوجد ظِلٌّ للشَّكل في هذا الظلام المطلَق، إلَّا أن سايم تمكَّن من معرفة شيئَيْن: أوَّلًا، أن الصوت قد صدر عن رجلٍ ذي حجمٍ هائل؛ وثانيًا، أن الرجل كان يُوليه ظَهرَه.

"هل أنت المجنَّد الجديد؟" سأله الرئيس غير المرئي، الذي بدا أنه عرف كل شيء عن الأمر. "حسنًا، أصبَحتَ مُستَخدَمًا".

أبدى سايم، وقد أخذته المفاجئة، مُعارَضَةً خافِتَةً ضِدَّ هذه العبارة الحاسِمة النهائية.

"لكنِّي لا أتمتَّع بأي خبرة"، بدأ قائلًا.

"لا أحد يتمتَّع بأي خبرة"، قال الآخر، "في معركة هرمجدون".

"لكنَّني لا أصلح حقًّا...".

"لديكَ الاستعداد، وهذا يكفي"، قال الرجل المجهول.

"حسنًا، حقًّا"، قال سايم، "لا أعرف ما هي المهنة التي تكتفي بالاستعداد فحسب كاختبارٍ نهائيٍّ".

"أنا أعرف"، قال الآخر، "الشهداء. أدينك بالموت. طاب يومك".

بذلك، عندما خرج جابرييل سايم ثانيةً إلى نور المساء القرمزي، في قُبَّعته السوداء البالية، وعباءته المتمرِّدة الرَّثَّة، خرجَ وقد أصبح عضوًا

في "فيلق رجال التحرّي الجُدُد" بهدف إحباط المؤامرة الكبرى. عملًا بنصيحة صديقه الشرطي (الذي كان يميل إلى التأنُّق بدافعٍ من مهنته)؛ قام سايم بتشذيب شَعرِه ولِحيَتِه، اشترى قُبَّعَةً جميلة، وارتدى حُلَّةً صيفية رائعة باللون الرمادي المزرَّق الفاتح، بزهرة صفراء شاحبة في العروة، باختصار، أصبح ذلك الشَّخصَ المتأنِّق، غير المحتمل بعض الشيء، الذي قابَلَه جريجوري لأول مرة في حديقة سافرون بارك الصغيرة. وقبل أن يُغادِرَ مَقرَّ الشرطة في نهاية الأمر، زوَّده صديقه ببطاقة زرقاء صغيرة، كُتِب عليها، "الحملة الصليبية الأخيرة"، ورقم وشعار سُلطَتِه الرسمية. وضع سايم البطاقة بعنايَةٍ في جيب معطفه العلوي، وأشعل سيجارة، وانطلق قُدُمًا لتَعقُّب محاربة الأعداء في كل قاعات الاستقبال والحفلات في لندن. وقد رأينا لتوِّنا إلى أين انتهت به مغامراته. في حوالي الساعة الواحدة والنصف في إحدى ليالي فبراير وجد نفسه يَمخُرُ عباب التيمز الساكن في قارب صغير، مُسلَّحًا بعصًا سيفيَّةٍ ومُسدَّسٍ؛ بصِفَتِه الخميسَ المنتَخَبَ أصولًا لمجلس الفوضويِّين الأعلى.

عندما خطا سايم خارجًا ليستقلَّ القارب الصغير راودَه شعورٌ عجيب بأنه يخطو إلى شيء ما جديد تمامًا؛ ليس فحسب إلى مشهد أرض جديدة، بل إلى مشهد كوكب جديد. كان هذا الشُّعور نتيجةً مُباشَرَةً للقرار المجنون، الصارم رغم ذلك، الذي اتَّخذَ تلك الأُمسيَةَ، رغم أنه يرجع أيضًا إلى التَّغيُّر الكامل الذي حدث في الطقس والسماء منذ أن دخل إلى الحانة الصغيرة منذ ساعَتَيْن. كان الرِّيشُ الحَميميُّ الذي يملأ سُحُبَ الغروب قد انزاح بالكامل، وبرزَ القَمَرُ العاري في سماءٍ عاريَةٍ. كان القمر في غاية القوَّة والاكتمال، وبدا (عبرَ مُقارَنَةٍ ستنعقد كثيرًا بعد هذا) كشمسٍ ضعيفة. كان يمنح، ليس سُطوعًا قَمريًّا مُبهِرًا، لكن ضَوءَ نهارٍ مَيِّتٍ بالأحرى.

عبر المشهد بأكمله انتشَرَت لطخَةٌ هائِلَةٌ من الألوان، مُبهِرَة وغير طبيعية، وكأنها ضوءُ الشَّفَق المشؤوم الذي تحدَّث ميلتون عنه مسفوحًا على يَدِ الشمس في كسوفها؛ بذلك سقط سايم بسهولةٍ فريسةً لفكرته الأولى، أنه كان في الحقيقة على كوكب آخر ما أكثر فراغًا، يدور حول نجم ما أكثر حُزنًا. لكن كلَّما زاد شعورٌ بهذا الخراب المتلألئ في الأرض الغارقة في ضوء القمر، كلَّما تَوهَّجَت حماقته النَّبيلَةُ في الليل كنارٍ عظيمة. حتى الأشياء العادية التي كان يحملها -الطعام والبراندي والمسدس المحشو- اكتسبت تمامًا تلك الشِّعريَّةَ الملموسة والمادِّيَّة. العصا السيفية وقنينة البراندي، رغم أنهما في حَدِّ ذاتهما مجرَّد أدوات للمتآمرين المروِّعين، أصبحتا تعبيراتٍ عن رومانسيته الأكثر عافيةً. أصبحت العصا السيفية وكأنها تقريبًا سيفُ فروسيَّةٍ، والبراندي كنبيذ في كأس وداع الفرسان. ولأن حتَّى الخيالات الحديثة غير البشرية تعتمد على شخصيَّةٍ بشريَّة ما أكثر بساطةً وقِدمًا، فقد تكون المغامرات مجنونة، لكن المغامر يتوجَّب أن يكون عاقلًا. التِّنِّين بدون القدِّيس چورچ لن يكون سوى مُجرَّد شكلٍ بَشِعٍ. بالتالي فإن هذا المشهد غير البشري كان مُتخَيَّلًا فحسب بسبب حضور رَجُلٍ بَشَريٍّ حقًّا. في نظر سايم وعقله التهويلي، فإن المنازل والشرفات الكئيبة المبهرة لنهر التيمز بَدَت خاوِيَةً كجبال القمر. لكن حتى القمر كان شاعريًّا بسبب وجود إنسان على القمر.

على القارب الصغير كان يعمل رجلان، وبمشقَّةٍ انطلق القارب ببطءٍ نِسبيٍّ. القمر الصافي الذي أضاء تشيسويك قد هبط الآن مع عبورهم لباتيرسا، وعدما وصلوا إلى المبنى الهائل لويستمنستر كان النهار قد بدأ في الانبلاج. انبثق كانشقاقِ أَعمِدَة رصاصٍ هائلة، كاشِفةً عن أعمدة من الفضَّة، وهذه كانت ساطِعَةً كنارٍ بيضاءَ، وعندما استدار القاربُ، مُغَيِّرًا مسارَه قُدُمًا، تحوَّلَت تلك الأعمدة إلى رصيفِ إنزالٍ هائل وراء مَعبَرِ تشيرنج.

عندما تطلَّع سايم لأعلى إليها، بَدَت أحجار الجسر العظيمة قاتِمَةً وهائِلَةَ الحجم. كانت ضَخمَةً وسوداء على خلفيَّة الفجر الأبيض المهول. خَلَقَت في سايم شعورًا بأنه كان يستقرُّ عند الدَّرَجات العظيمة لقَصرٍ مصريٍّ ما؛ وحقًّا، لاءَمَ هذا الشيءُ مِزاجَه، فقد كان مُجهَّزًا، في مُخيِّلته، لبدء الهجوم على العروش الرَّاسِخَة للملوك الوَثنيِّين المرعبين. قَفزَ خارجًا من القارب على درجةٍ مُوحِلَةٍ، وانتصب، في هيئته القاتمة الهزيلة، بين البَنَّائين العِظام. واندفع الرَّجُلان في القارب بعيدًا ثانيةً حتى انخرط القارب في تَيَّار النَّهر. لم يَنطِقا بكلمةٍ واحِدَة.

الفصل الخامس

مِهرَجانُ الخَوْفِ

في البداية، بدا السُّلَّم الحَجريُّ الكبير لسايم مهجورًا كالأهرامات؛ لكن قبل أن يصل إلى القمَّة أدرك أن هناك رجلًا ينحني على حاجز الجسر ويتطلَّع إلى النهر. هيئته كانت تقليديَّةً جدًّا، يعتمر قَبَّعَةً من الحرير، ويرتدي معطفًا من الصوف من الطراز الأكثر رسميةً؛ يحمل زهرةً حمراء في عروَتِه. مع اقتراب سايم منه خطوةً بخطوة، لم يجفل ولا حتَّى بمقدار شَعرَة، وكان بإمكان سايم الاقتراب منه بما يكفي ليلاحظ، حتى في ضوء الصباح القاتم الشاحب، أن وجهه كان طويلًا، شاحبًا ومتأمِّلًا، وينتهي بنتفةٍ مُثلَّثة صغيرة من لِحيَةٍ قاتِمَة عند نهاية ذَقنِه بالضَّبط، وكل ما عداها كان حليقًا بعناية. بَدَت شظيةُ الشَّعرِ هذه وكأنها نتيجةُ سَهوٍ غالبًا؛ فبَقيَّة وجهه كان من النوع الحليق بعناية- واضح المعالم، زاهدًا ونبيلًا في مُجمَلِه. اقترب سايم أكثر وأكثر، مُلاحِظًا كلَّ هذا، وما زال الشكل البشري ساكنًا تمامًا.

في البداية، بغريزةٍ ما، فكَّر سايم أن هذا هو الرجل المفترض أن يُقابِلَه. لكنه استنتج، عندما لم يُبدِ الرَّجلُ أيَّ علامَةٍ على ذلك، أنه لم يكن الرَّجُلَ المقصود. والآن عاد إليه اليقين ثانيةً بأن الرجل يتَّصِلُ بشكلٍ ما بمغامرته المجنونة. ذلك أن الرجل ظلَّ ساكنًا بأكثر ممَّا يفترض مع اقتراب شخصٍ غريبٍ منه إلى هذا الحَدِّ. كان جامدًا كتمثال من الشمع، ومثيرًا للأعصاب بنفس القدر بشكلٍ ما. استمرَّ سايم في النظر مرَّةً بعد أخرى إلى الوجه الشاحب، المهيب والرقيق، وما زال الوَجهُ ينظر بخَواءٍ عبر النهر. ثم أخرج من جيبه مُذكِّرة باتونز التي تُثبِتُ انتخابه، ووضعها أمام ذلك الوجه الحزين والجميل. وحينها ابتسم الرَّجلُ ابتسامةً صادمة؛ لأنها كانت على جانِبٍ واحد فقط من وجهه، صاعِدَةً في الخدِّ الأيمن، وهابِطَةً في الأيسر.

لم يكن هذا -من الناحية العقلانية- ليصيب أيَّ شخص بالفَزَع. كثيرون يتمتَّعون بهذه الخدعة العصبيَّة من الابتسامات الملتوية، بل وتبدو جذَّابَةً في كثيرين. لكن بالنظر إلى جميع ظروف سايم، الفجر القاتم والمهمَّة المميتة والوحدة على الأحجار الناضِحَة الهائلة- كان هناك شيءٌ ما مُثيرًا للأعصاب في تلك الابتسامة.

كان هناك النهر الصامت والرجل الصَّامِت، رجلٌ ذو وجهٍ كلاسيكيٍّ. ثم جاءت اللمسة الكابوسيَّة الأخيرة لحدِّ أنَّ شيئًا ما خاطئًا أصاب ابتسامته.

كان تَشنُّج الابتسامة لحظيًّا، واستغرق وجه الرجل على الفور في سوداويَّةٍ احتَوَته حتى أخمصه. تحدَّث بلا أيِّ تفسيرٍ أو استفهام، كرَجُلٍ يتحدَّث إلى زميل قديم.

"إذا سِرنا في اتجاه ميدان ليستر"، قال له، "سنصل بالضَّبط في موعد الإفطار. عادَةً ما يُصِرُّ الأحدُ على إفطارٍ مُبكِّر. هل نِلتَ أيَّ قِسطٍ من النوم؟".

مكتبة
t.me/t_pdf

"لا"، قال له سايم.

"وكذلك أنا"، أجاب الرَّجُلُ بنغمة عاديَّة. "سأحاول أن أَخلدَ للنَّوم بعد الإفطار".

كان يتحدَّث بلطافَةٍ عفوية، لكن بصوتٍ ميِّتٍ بالكامل يتناقض مع روح التَّعصُّب البادية على وجهه. بدا الأمر كما لو أن كل الكلمات الودودة كانت بالنسبة له مجرَّدَ ملاءَماتٍ عديمة الحياة، وأن حياته الوحيدة هي الكراهية. بعد توقُّفه لبُرهَةٍ بدأ الرجل في التحدُّث ثانيةً.

"بالطَّبع، أخبرَكَ سكرتير الفرع بكل شيء يمكن الكَشفُ عنه. لكنَّ الأمرَ الوحيد الذي لا يمكن الكَشفُ عنه هي الفكرة الأخيرة التي صدَرَت عن الرئيس، فأفكاره تنمو كغابَةٍ استوائيَّةٍ؛ لذلك إن كُنتَ لا تعلم، فمن الأفضل أن أُخبِرَكَ أنه ينفِّذ حاليًا فكرةَ إخفاء أنفسنا عبر عدم إخفاء أنفسنا إلى أقصى حَدٍّ استثنائيٍّ مُمكِن. في البداية، بالطبع، كُنَّا نلتقي في زنزانة تحت الأرض، تمامًا كما هو الحال مع الفرع الذي تنتسب إليه. ثم جَعَلَنا الأَحدُ نتَّخِذ غرفةً خاصَّةً في مطعمٍ عاديٍّ. قال إنه إذا لم تبدُ وكأنك تختفي فلن يتصيَّدَكَ أحدٌ. حسنًا، إنه الإنسان الوحيد من نوعه على الأرض، أعرف؛ لكن أحيانًا ما أفكِّر أن دماغه الضَّخم في طريقه للجنون قليلًا مع تَقدُّمه في العمر؛ لأننا أضحينا نتباهى كالطاووس الآن أمام العامَّة. نتناول إفطارَنا في الشرفات- على شُرفَة، من فضلك، تُطِلُّ على ميدان ليستر".

"وماذا يقول الناس؟"، سأله سايم.

"ما يقولونه بسيطٌ جدًّا"، أجابه مُرشِدُه. "يقولون إننا حفنةٌ من الچنتلمانات المرِحين الذين يتظاهرون أنهم فوضويُّون".

"تبدو فِكرَةً حاذِقَةً جدًّا"، قال سايم.

"حاذِقَة! فَلْيَنْسِفِ الرَّبُّ وَقاحَتَك! حاذِقَة!"، صاح الآخر بصوتٍ مفاجئ ومُجَلجِل، لحدٍّ أنه كان مُجفِلًا ومُتنافِرًا تمامًا كابتسامته الملتوية. "حتى عندما ترى الأحدَ لِجُزءٍ من الثانية ستمتنع على الفور عن مناداته بالحاذِق".

عند هذه الكلمات خَرَجَا من شارع ضيِّق، ورَأَيَا ضوء الشمس المبكِّر يملأ ميدان ليستر. لن يعرف أبدًا لماذا كان هذا الميدان في حدِّ ذاته يبدو وكأنه من كوكبٍ آخر، وأوروبيًّا (غير إنجليزي) بشكلٍ ما. لن يعرف أبدًا ما إذا كان مظهره الأجنبي هو ما كان يجذب الأجانِبَ أَمْ أن الأجانب هم مَن منحوه ذلك المظهرَ. لكن في هذا الصباح بالذات بدا التأثير مُبهِرًا ورائِقًا على نحوٍ فريد. بين الميدان المفتوح وأوراق الشَّجَر المضاءَةِ بنور الشمس والتمثال والتفاصيل عربيَّة الطَّابَعِ لِقَصرِ الحمراء، بدا الميدانُ وكأنه نسخة من ميدانٍ عامٍّ فرنسيٍّ أو أسباني ما. وهذا التأثير زادَ من شعور سايم العجيب، الذي تشكَّل لديه بأشكالٍ كثيرة عبر المغامرة بأكملها، بالتِّيه في عالَمٍ جديد. كحقيقة، اعتاد على شراء السيجار الرديء من ميدان ليستر منذ كان صبيًّا. لكن مع استدارته عبر تلك الزاوية، ورؤيته للأشجار والقباب المغربيَّة، كان بإمكانه أن يقسم أنه يستديرُ إلى ميدان مجهولٍ لشخصيَّةٍ تاريخيَّة ما في بلدة أجنبية ما.

في إحدى زوايا الميدان كان يبرز جانِبٌ لفُندُقٍ مُترَفٍ، لكن هادئ، يختبئ مُعظَمُه في شارع خلفي. على الجدار كانت نافِذَة كبيرة ذات طابع فرنسي، ربما نافذة لمقهى كبير؛ وخارج هذه النافذة كانت تتدلَّى، حرفيًّا بالكاد على الميدان، شُرفَة مُدعَّمَة بكتائِفَ هائِلَةٍ، كبيرة بما يكفي لاحتواء منضدة طعامٍ طويلة. في الحقيقة، كانت بالفعل تحتوي على منضدة عَشاءٍ طويلة، أو بالأَدَقِّ: مِنضدَة إفطار، وحول منضدة الإفطار، متوهِّجين في ضوء الشمس وباديي العيان للشارع، كانت مجموعة من الرجال الثرثارين بصَخَبٍ، يرتدون جميعًا ملابس

مُهينةً للموضة، بمعاطِفَ بيضاء وعرواتٍ باهِظَةِ الثَّمَن. كان من الممكن تقريبًا سَماعُ نِكاتِهم تصدح عبر الميدان. حينها أطلق السكرتير الوقورُ ابتسامَتَه غير الطبيعية، فأدرك سايم أن حفلة الإفطار الصاخبة هذه كانت الاجتماعَ السِّرِّيَّ لمفَجِّري الديناميت الأوروبيِّين.

مع استمراره في التحديق فيهم، رأى سايم شيئًا ما لم يكن قد رآه من قبل. لم يره حرفيًّا لأنه كان أكبر من أن يُرى. في الطرف الأقرب من الشرفة، حاجبًا جزءًا كبيرًا من المنظور، كان ظهرُ جبلٍ عظيم لرَجُلٍ. وعندما رآه سايم، كان أوَّل ما جاء بباله أن وزن الرجل لا بُدَّ وأن يؤدِّي إلى انهيار الشُّرفة المصنوعة من الحجارة. وضخامته لا تكمن فقط في حقيقة أنه كان طويلَ القامة على نحوٍ غير طبيعيٍّ، وبدينًا بشكلٍ لا يُصدَّق. هذا الرجل رُسِمَت نِسَبُه ومقاديره الأصلية على نحوٍ هائل، كتمثالٍ نُحِتَ عن عَمدٍ على شكل عملاق مَهيب. رأسه، المتوَّج بشَعرٍ أبيض، عند رؤيته من الخلف بدا أكبرَ ممَّا ينبغي أن يكون. والأذنان، البارزتان من الرأس، بَدَتَا أكبرَ من الآذان البشرية. كان أكبرَ من المقاييس الطبيعية على نحو مُريع؛ وما يعنيه حجمه هذا كان أمرًا مُربِكًا ومُذهِلًا، لِحَدِّ أنه عندما رآه سايم بَدَت كل الأشكال البشرية الأخرى وقد تضاءَلَت وتَقزَّمَت بغتةً. كانوا ما زالوا جالسين هناك كما كانوا من قبل بأزهارهم ومعاطفهم من الصوف، لكن الآن بَدَا الرَّجُلُ الكبير كما لو أنه يُسلِّي خمسةَ أطفالٍ عبر تقديم الشاي إليهم.

مع اقتراب سايم والمرشد من الباب الجانبي للفندق، خرج إليهم الخادم مُبتَسِمًا بكلِّ سِنٍّ في رأسه.

"السَّادة جالسون في الأعلى يا سيدي"، قال الخادم. "يتحادثون ويضحكون على ما يتحدَّثون به. يقولون إنهم يلقون بالقنابل على المِلك".

ثـم أسرع الخـادم بمنديـل مائِـدَةٍ عـلى ذراعـه، سـعيدًا للغايـة بالعَبَـثِ العجيـب للسـادة في الأعـلى.

ارتقى الرجال الدَّرَج في صَمتٍ.

لم يكـن سـايم قـد فكَّـر أبـدًا في سـؤال مـا إذا كان ذلـك الرجـل الهائـل، الـذي يمـلأ الشُّرفَـةَ تقريبًـا بجسـمه ويوشـك عـلى تحطيمهـا، هـو الرئيـس الـذي يقـف أمامـه الآخـرون في تبجيـل. لكنـه يعـرف أن الأمـر كذلـك، بيَقـينٍ لا يمكـن تفسـيره، لكنـه يقـينٌ عفـويٌّ. كان سـايم، في الحقيقـة، واحدًا مـن هـؤلاء الرجـال المنفتحـين عـلى كل التأثـيرات السـيكولوچية التـي لا اسمَ لهـا بشـكلٍ قـد يَضرُّ قليـلًا بِصحَّتِـه العقليـة، ومُتجَـرِّدًا بالكامـل مـن الخـوف مـن الأخطـار الجَسـديَّة، بـل وحسَّاسًـا بدرجـةٍ كبـيرة تجـاه رائحـة الـشرور الروحانيـة. مرَّتَـين بالفعـل في تلـك الليلـة أمـران صغـيران لا معنـى لهـما تَسـلَّلا إليـه بطريقـةٍ شـهوانيَّةٍ تقريبًـا، ومنحـاه شـعور الانجـذاب أكـثر وأكـثر للمَقـرِّ الرئيـسي للجحيـم. وأصبـح هـذا الشـعور كاسِـحًا الآن مـع اقترابـه مـن الرئيـس العظيـم.

الشـكل الـذي اتَّخـذه هـذا الشـعور كان تَوَهُّـمًا طفوليًّـا وبغيضًـا مـع ذلـك. أثنـاء سـيره عـبر القاعـة الداخليـة مُتَّجِهًـا للشُّرفـة، ازداد الوجـه الكبـير للأَحَـدِ اتِّسـاعًا، وغَـدَا سـايم فريسـةً للخـوف بأنـه عندمـا يكـون قريبًـا جـدًّا مـن الوجـه فإنـه سـيكون كبـيرًا إلى درجـة غـير مُمكِنـة، وأنـه بالتـالي سيصرخ بصـوتٍ عـالٍ. تذكَّـر أنـه في طفولتـه لم يكـن يطيـق النظـر إلى قِنـاع المحـارب مِمْنـون في المتحـف البريطـاني؛ لأنـه كان وجهًـا، وكبـيرًا جـدًّا.

بجهـدٍ، وبشـجاعة أكـبر مـن جهـد القَفـز عـبر مُنحَـدَرٍ، خَطَـا إلى مقعـدٍ شـاغِرٍ عـلى منضـدة الإفطـار وجلـس. حيَّـاه الرِّجـالُ بمُـزاحٍ رائـقِ المـزاج كـما لـو أنهـم كانـوا عـلى معرفـة دائمـة بـه. منـح نفسـه الهـدوء قليـلًا عـبر التطلُّـع إلى معاطفهـم التقليديـة وإنـاء القهـوة المتلألـئ منقطـع النظـير؛

ثم نظر ثانيةً إلى الأحد. كان وجهه كبيرًا جدًّا، لكنه لم يخرج من النطاق البشري بَعدُ.

في حضور الرئيس بدا الجَمعُ بأكمله مألوفًا وعاديًّا؛ لا شيء بشأنهم يجذب العَينَ من الوهلة الأولى باستثناء أنه بسبب نَزوَةِ الرَّئيس ارتدوا جميعًا ملابِسَ ذات طابعٍ مُحترَمٍ احتفاليٍّ؛ ممَّا منح الوَليمةَ مَظهرَ إفطارٍ في حفلة زفاف. لكنَّ رَجُلًا منهم كان يبرز عند نظرةٍ سطحيَّة. كان على الأقل مُفجِّرَ حدائِقَ أو عامَّة الناس. يرتدي ياقةً بيضاءَ عاليةٍ وربطة عُنُقٍ من الساتان، أي الزي الرسمي للمناسبة؛ لكن من ياقته ينبثق رأسٌ أهوجُ ولا يُمكِنُ إخطاؤه بأي شكل؛ أَجَمَة مُذهِلَة من شَعْرٍ ولِحيَةٍ بُنِّيَّتان تحجبان العينين ككَلَبٍ من فصيلة التريير. لكنَّ العينين كانتا قادِرَتَيْن على النظر من خلال هذا التَّشابُك، وبَدَتَا كعينَيْن حزينَتَيْن لعبدِ أرضٍ روسيٍّ. لم يكن تأثير هذا الشكل البشري مُريعًا كتأثير الرئيس، لكنه يتمتَّع بكل سحر يمكن أن يتأتَّى من الغرابة المطلَقَة. إذا انبثق من تلك الياقة والرَّبطة المتصلِّبة فجأةً رأسُ قِطٍّ أو كلبٍ، فلن يكون ذلك أكثر تَنافُرًا وحماقةً.

يبدو أن اسمه كان جوجول؛ كان بولنديًّا، وفي دائرة الأيام هذه كان يُدعى الثلاثاء. روحه وحديثه كانا مأساويَّيْن على نحوٍ لا يُمكِن علاجه؛ لكنه لم يَستَطِع إجبار نفسه على لعب الدور المترف واللعوب الذي يتطلَّبه منه الرئيس الأحد. وبالفعل، عندما دخل سايم كان الرئيس، بتلك اللامبالاة الجريئة تجاه شكوك العَوامِّ، التي تمثِّل جوهر سياسته، يمازح جوجول بشأن عدم قدرته على تقمُّص الجماليَّات التقليديَّة.

"صديقنا الثلاثاء"، قال الرئيس بصوتٍ عميقٍ، هادئٍ وعالٍ في نفس الوقت، "صديقنا الثلاثاء لا يبدو أنه يستوعب الفكرة. يرتدي ملابس چنتلمان، لكن يبدو أنه يتمتَّع بروح كبيرة جدًّا على أن يتصرَّف كچنتلمان. يُصِرُّ على أساليب مُتآمِري رصيف الميناء. الآن إذا انطلق

چنتلمان عبر لندن مرتديًا قُبَّعَةً عاليَةً ومعطفًا من الصوف، فلن يعلم أحدٌ أنه فوضويٌّ. لكن إذا ارتدى چنتلمان قُبَّعَةً عالية ومعطفًا من الصوف، ثم مضى يسير على يَدَيه ورُكبَتَيْه، حسنًا، حينها قد يجذب الانتباهَ. هذا ما يفعله الأخ جوجول. يمضي سائرًا على يديه ورُكبَتَيْه بتلك الدبلوماسيَّة التي لا تَنضبُ، حتَّى أصبح من الصعب عليه جدًّا أن يسير مُنتَصِبًا".

"لستُ جيِّدًا في الاختفاء"، قال جوجول بعبوسٍ، بلَكنَةٍ أجنبيَّةٍ ثقيلة؛ "لا أخجل من السبب ".

"بل أنتَ كذلك، يا بُنيَّ، وجدير بك أن تَخجَلَ من السبب"، قال الرئيس بلُطفٍ. "تختبئ كأي شخص آخر؛ لكنَّكَ عاجِزٌ عن القيام بذلك، كما ترى، أنتَ أحمق! تُحاوِلُ أن تجمع بين منهَجَيْن مُتناقِضَيْن. عندما يكتشف صاحِبُ البيت وجودَ رَجُلٍ تحت سريره، فربما يتوقَّف قليلًا لملاحظة الظروف. لكن إذا وجد رجلًا تحت سريره ببُقعَةٍ عالية، تتَّفِقُ معي عزيزي الثلاثاء، بأنه بالتأكيد لن ينسى ذلك. الآن عندما يجدونَكَ تحت سرير الأدميرال بيڤين...".

"لستُ بارعًا في الخداع"، قال الثلاثاء بتجهُّم وخَجَل.

"صحيح، يا بنيَّ، صحيح"، قال الرئيس بحماسة تأمُّليَّة، "لستَ بارعًا في أي شيء".

أثناء تَدَفُّق تيَّار المحادثة هذه، كان سايم ينظر بثَباتٍ أكبر إلى الرِّجال من حوله. وأثناء ذلك، شعر تدريجيًّا بعودة كامِل إحساسه بذلك الشيء العجيب روحانيًّا.

كان يعتقد في البدء أنهم جميعًا كانوا ذَوي منزلَةٍ وملابِسَ عاديَّةٍ، مع الاستثناء الواضح لجوجول كثيفِ الشَّعر. لكن مع تَطلُّعه إلى الآخرين، بدأ في رؤية ما كان قد رآه في الرجل على النهر بالضبط في كُلٍّ منهم، تفصيلة شيطانيَّة في مكانٍ ما. تلك الضحكة غير المتوازنة،

التي تُشوِّه فجأةً الوجهَ الرقيق لمرشِدِه الأصلي، كانت مُنتَشِرَةً بينهم جميعًا. كل رجُلٍ كان يُخفي شيئًا ما، يمكن إدراكه ربما عند النظرة العاشرة أو الثانية عشرة، شيء غير طبيعي، بَشَريٌّ بالكاد. المجاز الوحيد الذي استطاع التفكير فيه كان كالتالي: أنهم جميعًا بَدَوا كرجالٍ ذَوي منزِلَةٍ اجتماعيَّة رفيعةٍ وحضور طاغٍ، مع ذلك الانحراف الإضافي الذي يَظهَرُ في مرآةٍ زائِفَة ومُقوَّسة.

الأمثلة الفَرديَّة فحسب لها أن تعبِّر عن هذه الغرابة نصف المختفية. كان تُرجمانُ سايم الأصلي يحمل لَقَبَ الاثنَيْن؛ كان سكرتيرًا للمجلس، وابتسامته الملتوية كانت مَوضِعَ رُعبٍ أكثر من أيِّ شيءٍ آخر، باستثناء ضِحكَةِ الرَّئيس السعيدة، المريعة. لكن الآن وقد توفَّر لسايم مزيدٌ من الضوء والمساحة للملاحظته، اكتشف وجود لمسات أخرى. كان وجهه الرقيق مَهزولًا، لحدِّ أن سايم اعتقد أنه لا بُدَّ فانٍ بسبب مرض ما؛ مع ذلك فإن القلق الذي يملأ عينيه الداكنتين كان نفيًا لهذا. لم يكن مرضًا جسديًّا ما يعتريه. كانت عيناه تُشِعَّان بعذابٍ فِكريٍّ، كما لو أن الفِكرَ الخالِص كان ألمًا.

كان نموذجًا لكل شخص من القبيلة؛ ذلك أن كل رجل فيهم كان مُبتَلًى على نحوٍ مختلف ودقيق. بجواره كان يجلس الثلاثاء، جوجول مُشعَّث الرأس، الأكثر جنونًا بالتأكيد. وبعده كان يجلس الأربعاء، الماركيز سانت إيوستاش، شكل بَشريٌّ مُميَّز للغاية. بعد النظرات الأولى القليلة لم يكتشف شيئًا غير اعتياديٍّ حياله، باستثناء أنه كان الرَّجُلَ الوحيدَ على المنضدة الذي يرتدي ملابس على الموضة كما لو أنها من طبيعته. كانت له لِحيَة فرنسيَّة سوداء بأطراف مُشذَّبة حادَّة، ومعطَفٌ إنجليزيٌّ ذا حوافَّ أكثرَ حِدَّةً. لكن سايم، الحسَّاس تجاه أشياء كهذه، راوده شعور بأن الرجل يخلق شعورًا عامًّا بالثَّراء، شعورًا مُختَنِقًا بالثراء، يُذَكِّر المرءُ على نحوٍ غير عقلانيٍّ بالروائح الناعسة للمصابيح المتداعِيَة في القصائد الأكثر قتامةً لبايرون وإدجار

آلان بو. مع هذا يظهر إيحاء بأنه يرتدي ملابس، ليست ذات ألوان فاتحة، لكنها ذات مواد أكثرَ نعومةً؛ يبدو الأسود الذي يرتديه وكأنه أكثرُ ثَراءً ودفئًا من ظلال الأَسوَدِ من حوله، كما لو أنها مُركَّبة من لونٍ عميق. معطفه الأسود يبدو أسودَ فقط لأنه قُرمزيٌّ داكِنٌ جدًّا. لِحيَتُه السوداء كما لو أنها سوداءُ فقط لأنها ذاتُ لونٍ أزرق داكِنٍ جدًّا. وفي حلكة وكثافة لِحيَتِه، بدا فَمُه الأحمر الدَّاكِنُ شهوانيًّا ومُمتَعِضًا. أيًّا مَن كان، فحتمًا لم يكن فرنسيًّا؛ ربما كان يهوديًّا؛ ربما كان شيئًا أكثر عُمقًا من القلب المظلِم للشرق. فقط في اللوحات والبلاط الفارسي ذات الألوان المشرِقَة التي تُصوِّر الطُّغاةَ في صيدهم، ربما ترى بالضَّبطِ هاتَيْن العينَيْن اللوزيَّتَيْن، هذه اللحية الزرقاء- السوداء، هاتين الشَّفَتَيْن القُرمزيَّتَيْن، القاسِيَتَيْن.

وبعده يجلس سايم، ثم رجل عجوز جدًّا، بروفسور دي وورمز، الذي ما زال يشغل مقعدَ الجُمعة، رغم أنه كان من المتوقَّع في كلِّ يوم أن يشعر بموته. باستثناء حِكمَتِه، كان في المرحلة الأخيرة من تَفسُّخ الشيخوخة. وجهُه رماديٌّ كلِحيَتِه الرمادية الطويلة، جبينٌ مُرتَفِعٌ مُستَقِرٌّ في نهايته على تجعيدة من اليأس المتسامح. في أيٍّ من الحاضرين، ولا حتى في جوجول، لم يكن تألُّق زِيِّ الزفاف الصباحي يُعبِّر عن ذلك التَّبايُن الأكثر إيلامًا. فالزَّهرَةُ الحمراء في عُروَتِه البارزة أمام وجهه كانت مُشوَّهَةَ اللَّون حرفيًّا كالرصاص؛ كان التأثير البَشِعُ بأكمله كما لو أن حفنَةً من المتأنِّقين السُّكارى قد وضعوا ملابِسَهم على جُثَّة. ومع نهوضه وجلوسه، وهو ما كان يتمُّ بجَهدٍ وخَطَرٍ كبيرَيْن، يُظهِر شيئًا ما أكثرَ بشاعَةً، أكثرَ من مُجَرَّد الضَّعف، شيئًا ما يتَّصِلُ بالتأكيد برُعبِ المشهَدِ بأكمله. شيئًا لا يُعبِّر عن تداعي العَجَزِ فحسب، لكن التعفُّنِ أيضًا. تَوهُّمٌ بغيضٌ آخر يطوف بعقل سايم المرتعش. لم يستطع مَنعَ نفسه من التفكير أن الرجل قد يسقط ميِّتًا متى حرَّك ذراعًا أو ساقًا.

على طرف المائدة كان يجلس رَجُلٌ يُدعى السَّبت، الأكثر بساطةً وإرباكًا من بين الجميع. كان رجلًا قصيرًا، عريضًا بوجهٍ داكن عريض حليق، مُمارِسٌ طبِّيٌّ، يُعرَف باسم "بولْ". يجمع بين المعرفة وشكلٍ من أشكال الفظاظة المهذَّبة وهو أمرٌ غير نادر بين الأطبَّاء الشباب. يمضي بملابسه الراقية بثِقَةٍ أكثر من كونها ارتياحًا، ويبتسم أغلب الوقت ابتسامةً ثابِتَةً لا تتغيَّر. لم يكن هناك أي شيء عجيب بشأنه، باستثناء أنه يرتدي نظَّارات داكنة، لا يَنفُذُ منها الضوء تقريبًا. ربما كانت مُجرَّدَ تصاعُدٍ لتوهُّمٍ عُصابيٍّ وقع من قبل، لكنَّ هذَيْن القُرصَيْن الأسودين كانا مُريعَيْن بالنسبة لسايم؛ يُذكِّرانه بالحكايات البَشِعَة التي يتذكَّر منها شَذراتٍ، منها قصة عن عملاتٍ مَعدنيَّة توضع في أعيُن الموتى. دائمًا ما كانت عَينُ سايم تنجذب للنَّظَّارات السوداء وتقطيبة العميان. إذا ارتداها البروفسور المحتضر، أو حتى السكرتير الشاحب؛ فحينها ستكون أكثرَ مُلاءَمَةً. لكن عندما يرتديها رجلٌ أصغرُ سنًّا وأكثر غِلظَةً فإنها لن تبدو سوى لُغزٍ كبير. حينها تنتزع بعيدًا مفتاحَ الوجه. ولا يعود باستطاعَةِ المرء تَحديدُ ماذا تعنيه ابتسامَتُه أو وَقارُه. ربما بسبب هذا، وبسبب أنه كان يتمتَّع بفحولَةٍ مُبتَذَلَة مفقودة في معظم الآخرين، فقد بدا لسايم أنه الأكثر شرًّا من بين كل هؤلاء الأشرار. بل إن سايم قد فكَّر بأنه قد حجب عينيه لأنهما مُرعبتان جدًّا على أن يراهما أحدٌ.

الفصل السادس

الانكِشافُ

هكذا كان الرِّجال الذين أقسموا على تدمير العالم. مرَةً تلو الأخرى يناضل سايم من أجل استجماع شَتاتِ تفكيرِه في حضورهم. يقول لنفسه أحيانًا إن هذه الأفكار كانت أفكارًا ذاتيَّةً. إنه يتطلَّع فحسب إلى رجالٍ عاديِّين، أحدهم عجوزٌ، وآخر عُصابيٌّ، وآخر يعاني من قِصَرِ النَّظَر. لكنَّ حِسَّ الرمزية غير الطبيعية كان دائمًا ما يرتدُّ إليه مرَّةً تلوَ أخرى. كل شَكلٌ بَشريٌّ يبدو، بشكل ما، وأنه على تخوم الأشياء، تمامًا كما كانت نظريَّتهم تَقِفُ على تخوم الفكر. يعرف أن كلَّ رَجُلٍ من هؤلاء الرجال يقف على الطرف الأقصى -إذا صحَّ التعبير- لطريق وَحشيٍّ ما من الإدراك. كان بإمكانه فقط أن يتخيَّل، كما لو أنه في حكاية من العالم القديم، أنه إذا انطلق رجلٌ نحو الغرب إلى نهاية العالم فإنه سيجد شيئًا -شجرة مثلًا- لكنها أكثر من مجرَّد شجرة، شجرة تستحوذ عليها الأرواح؛ وإذا انطلق شرقًا إلى نهاية العالم فسيجد

شيئًا ليس هو نفسه تمامًا- بُرجًا، ربما، ذا شكل شرِّيرٍ جدًّا؛ لذلك، بَدَت هذه الأشكال البشرية وكأنها تنتصب، هائِجَةً ولا يمكن تَفسيرُها، أمام أفق نهائي، رؤى من حافَّة العالم. نهايات الأرض كانت تقترب.

كان الحديث يمضي بثبات مع اشتراكه في المشهد؛ والتَّناقُض بين النَّغمَة السَّهلة المختفية للحديث ومعناه الظاهري المريع لم يكن أقلَّ التناقُضات في مائدة الإفطار المربِكَة للذِّهن تلك. كانوا مُنغَمسين في مناقشةٍ بشأن مُخطَّطٍ وشيكٍ وفِعليٍّ. الخادم في الأسفل كان صادِقًا جدًّا عندما قال إنهم يتحدَّثون عن القنابل والملوك. بعد ذلك بثلاثة أيام فقط كان مُقرَّرًا أن يتقابَلَ القيصرُ مع رئيس الجمهورية الفرنسيَّة في باريس، وعلى عَشائِهم المكوَّن من البيض ولحم الخنزير المقدَّد في شرفتهما المشمِسَة كان هؤلاء السادة المبتهجون قد خطَّطوا لكيفيَّة موتهما. حتى الأداة تمَّ اختيارها، وتقرَّر على ما يبدو أن الماركيز ذو اللحية السوداء هو مَن سيحمل القُنبلة.

بالطبع، فإن اقتراب هذه الجريمة الإيجابية والموضوعية كان ليمنح سايم الهدوءَ، ويشفيه من كلِّ ارتعاشاته الغامِضَة ببساطةٍ. لم يكن له أن يفكِّر سوى في الحاجة إلى إنقاذ جَسَدَيْن بشريَّيْن على الأقل من التَّمزُّق إلى شظايا بفعل الحديد والغاز القاصف. لكن الحقيقة كانت أنه بدأ حينها في الشعور بنوعٍ ثالِثٍ من الخوف، أكثرَ نفاذًا وعمليَّةً من اشمئزازه الأخلاقي ومسؤوليَّته الاجتماعية. ببساطَةٍ شديدة، لم يكن خوفه من أجل الرئيس الفرنسي أو القيصر؛ بل كان يخشى على نفسه. فأغلب المتحدِّثين لم يهتمُّوا بوجوده كثيرًا، مُتجادِلين الآن ومقتربين بوجوههم بين بعضهم البعض، وبوَقارٍ رَسميٍّ تقريبًا، باستثناء عندما ابتسم السكرتير لوَهلَةٍ ابتسامَتَه المائلة لينطلق البَرقُ المسَنَّنُ مائِلًا أيضًا عبر السماء. داومَ الرئيس على التطلُّع إليه، بثَباتٍ وباهتمامٍ كبيرٍ ومُحيِّرٍ. الرجل هائل الحجم كان هادئًا، لكنَّ عينَيْه الزَّرقاوَيْن بارزتان من رأسه، ومُثبَّتَتان الآن دائمًا على سايم.

شعر سايم برغبة في النهوض فجأةً والقفز من على الشرفة. عندما كانت عينا الرئيس مُثبَّتَتَيْن عليه شَعَرَ كما لو أنه مَصنوعٌ من الزُّجاج. كانت تراوده بالفعل غلالةٌ من الشَّكِّ أن الأحد -بطريقةٍ ما- صامِتَةٌ واستثنائية، قد اكتشف أنه جاسوسٌ. تَطلَّع عبر حافَّةِ الشُّرفَة، ورأى شُرطيًّا، يقف بلا معنى تحتها بالضبط، مُحَدِّقًا في القضبان المتوهِّجة والأشجار الغارقة في ضوء الشمس.

حينها استولى عليه الإغواءُ العظيم الذي كان مُقدَّرًا أن يُعذِّبَه لأيام طويلة. في حضور هؤلاء الرجال الأقوياء والمثيرين للاشمئزاز، أُمَراء الفوضوية، كان قد نَسِيَ تقريبًا الشكل البشري الهَشَّ والعجيب للشاعر جريجوري، المعجَب الأول بجماليَّة الفوضويَّة. بل إنه فكَّر فيه الآن على نحوٍ قديم، كما لو أنهما قد اشتركا سويًّا في ملاعب الطفولة. لكنه تذكَّر أنه ما زال مرتبطًا بجريجوري بوَعدٍ كبير. كان قد وعده بعدم القيام بالأمر الذي شعر بنفسه الآن يوشك على فِعلِه. وعده بعدم القفز من على تلك الشرفة أو التحدُّث إلى ذلك الشرطي. انتزع يده الباردة من الحاجز الحَجَريِّ البارد. تأرجَحَت رُوحُه في دوَّامَةٍ من الحيرة الأخلاقية. لم يكن عليه سوى أن ينتزع خيطَ عَهدٍ مُندَفِعٍ قَطَعَه لمجتمَعٍ دنيء، حتى تصبح حياته بأكملها مُنفتِحَة ومُشمِسَةً كالميدان من تحته. كان عليه -من ناحية أخرى- أن يُحافِظَ على شرفه القديم، وأن يُقدِّم نفسه، شيئًا فشيئًا، إلى سُلطَةِ هذا العَدوِّ اللدود للبشرية، الذي كان فِكرُه في حَدِّ ذاته غُرفَةَ تعذيب. متى تطلَّع إلى الميدان كان يرى الشرطيَّ المطمَئِنَّ، دعامة الحِسِّ العام والنظام العام. ومتى تطلَّع إلى الوراء -إلى مائدة الإفطار- كان يرى الرئيس ما زال يتمعَّن فيه بهدوءٍ بعينَيْن كبيرَتَيْن، لا تُطاقان.

في وسط دوَّامة أفكاره هذه فإن فكرتين بعينهما لم تَرِدَا على عَقلِه قطُّ. الأولى: أنه لم يخطر على باله قطُّ أن يَشُكَّ بأن الرئيس ومجلسه سيُحطِّمانه إذا استمرَّ في انعزاله عنهم. قد يكون المكان

عامًّا، والمشروع مستحيلًا. لكن الأحد لم يكن الرَّجُلَ الذي يتصرَّف بتلك السهولة بدون أن يَنصُبَ -بشكلٍ ما، أو في مكانٍ ما- مَصيَدَتَه الحديدية. سواءً بسُمٍّ لا اسمَ له، أو حادِثَةٍ مُفاجِئَة في الشارع، عبر التَّنويم المغناطيسيِّ، أو بحريقٍ من الجحيم. بالتأكيد سيصعقه الأحد. إذا تحدَّى الرَّجُلَ فاحتمالٌ أن يكون ميِّتًا، مطعونًا هنا في مقعده أو بعد ذلك بوقت طويل بمرض بريء. إذا نادى على الشرطة بسرعة، وقبض على الجميع، وأفشى كلَّ شيء، وهَيَّجَ ضِدَّهم قُوَّة إنجلترا بأكملها، فمن المحتمل أن يهرب؛ ليس غير ذلك بالتأكيد. كانوا حفنَةً من سادة الشُّرُفات يُطِلُّون على ميدانٍ مُشرِقٍ ومُزدَحِم؛ لكن لم يكن له أن يشعر بأمانٍ أكبر إذا كانوا حفنةً من قراصِنَةٍ مُسلَّحِين في قاربٍ يُطِلُّون على بحر خاوٍ.

فكرة ثانية لم تَرِدْ على خاطره أبدًا. لم يفكِّر أبدًا أن ينتصر على عدوِّه رُوحانيًّا. كثيرٌ من ذوي الآراء العصرية، المتَمرِّسين -بضَعفٍ- على عبادة الفِكرِ والقُوَّة، كان لهم أن يرتعشوا في اتِّحادهم تحت سطوة هذه الشخصية العظيمة. كان لهم أن يَدعُوا الأحدَ بالرَّجُل السوبرمان. إذا كان من الممكن تَخيُّلُ وجود مخلوقٍ كهذا، فقد بدا هو -حقًّا- كشيءٍ ما يُشبِهُه، بتجريديَّته التي تَهزُّ الأرض، كما لو أنه تَمثالٌ حَجريٌّ يمشي على قدَمَيْن. كان له أن يُدعى بشيءٍ ما أعلى من الإنسان، بخُطَطِه الكبيرة، شديدة الوضوح لحدِّ أنه لا يمكن كَشفُها، بوجهه الكبير، المكشوف جدًّا لحَدِّ أنه لا يُمكِنُ فَهمُه. لكن هذا كان نوعًا من الوَضاعَةِ الحديثة التي لا يمكن لسايم الغَرَقُ فيها حتى في أقصى حالات كآبَتِه المرَضيَّة شِدَّةً. كأيِّ رَجُلٍ آخر، كان جبانًا لحدِّ الخوفِ من القوى العظيمة؛ لكنه لم يكن جبانًا لحدِّ الإعجاب بها.

كان الرِّجال يأكلون بينما يتحدَّثون، وحتَّى في هذا كانوا نَمَطيِّين. كان دكتور بولْ والماركيز يتناولان طعامهما على نحوٍ تقليديٍّ وتلقائيٍّ من أفضل الأشياء على المائدة: طائر الذَّيَّال البارد، وفطيرة ستراسبورج.

لكنَّ السكرتير كان نباتيًّا، ويتحدَّث بحماسٍ عن الاغتيال المرتَقَبِ وهو يتناول نِصفَ ثَمَرَة طماطم نيِّئة، وثلاثة أرباع كوبٍ من الماء الفاتر. بينما يتناول البروفسور العجوزُ خليطًا من الطعام يليق بطفولَةٍ ثانِيَةٍ مريضة. وحتى في هذا فإن الأحدَ الرئيس ما زال يُحافِظُ على هيمنته العجيبة على الجَمعِ بأكمله. فقد كان يأكل كعشرين رجلًا؛ يأكل على نَحوٍ لا يُصدَّق، بشهيَّةٍ مُتجدِّدَة مُخيفة، كما لو أنه مصنعُ سجق. مع ذلك، كان مستمرًّا، وهو يبتلع دزينة من الكعكات المسطَّحَة غير المحَلَّاة، أو يحتسي رُبعَ جالون من القهوة، في التحديق من جانب رأسه العظيمة في سايم.

"كثيرًا ما تساءَلتُ"، قال الماركيز، مُتناوِلًا قَضمَةً هائِلَةً من شريحةٍ من الخبز والمربَّى، "ما إذا كان من الأفضل لي أن أُتِمَّ الأمر بسكِّين. أغلب الأمور الجيدة تُنجَز بسكِّين. بل وسيكون ذلك شعورًا جديدًا أن تَغمِسَ سكِّينًا في رئيسٍ فرنسيٍّ ثم تلويها داخله".

"أنت مُخطِئ"، قال السكرتير، ضامًّا حاجِبَيْه الأسودين معًا. "السكين هي مجرَّد تعبير عن الصراع الشخصي القديم مع مُستَبِدٍّ شخصيٍّ. الديناميت ليس هو أداتَنا المُثْلَى، لكنه رَمزُنا الأمثل؛ فهو مُلائِمٌ جدًّا كرمزٍ لنا كما البخور رمزٌ لصلوات المسيحيين، يتمدَّد وينتشر، ويُدمِّر فقط لأنه يتَّسِع، وهكذا الأمر مع الفكرة؛ فهي تُدمِّر لأنها تَتَّسِع. عقل الرجل قنبلة"، صاح قائلًا، مُرخِيًا فجأةً من انفعاله الغريب وضاربًا رأسه بعنف. "أشعر بعقلي وكأنه قنبلة، ليلًا ونهارًا. لا بُدَّ أن يتمدَّد وينتشر! لا بُدَّ! عقل الرجل لا بُدَّ أن يَتَّسِعَ، حتَّى لو حطَّم الكون بذلك".

"لا أريد للكون أن يتحطَّم بعد"، تَشدَّق الماركيز. "أرغب في كثير من الأشياء المتوحِّشة قبل أن أموت. فكَّرتُ في أحدها بالأمس على الفِراش".

"لا، إذا كانت النهاية الوحيدة للشيء هي اللاشيء"، قال دكتور بولْ بابتسامته التي تشبه (أبو الهول)، "فالأمر بالكاد يستحقُّ القيام به".

كان البروفسور العجوز يُحَدِّق في السقف بعينَيْن كابِيَتَيْن.

انتشر صَمتٌ غريبٌ لوَهلَةٍ، ثم قال السِّكرتير:

"نحيد، رغم ذلك، عن جَوهَر الموضوع. السؤال الوحيد هو كيف سيضرب الأربعاء ضَربَتَه. أعتقد أنه يجب أن نتَّفِقَ جميعًا على الفكرة الأصليَّة بشأن القُنبلة. وبالنسبة للتَّرتيبات الفعليَّة، أقترح أن يذهب صباحَ الغد أوَّلًا وقبل كل شيء إلى...".

انقطع الحديثُ تحت ظِلٍّ هائِلٍ. فقد نهض الأحدُ الرَّئيس على قدمَيْه، حاجبًا على ما يبدو السماء من فوقهم.

"قبل أن نناقش ذلك"، قال بصوته الهادئ مُنخَفِضِ النَّبرَة، "لننتقل إلى غرفة خاصة. لديَّ شيءٌ استثنائيٌّ جدًّا لقوله".

نهض سايم قبل أيٍّ من الآخرين. جاءت لحظة الاختيار أخيرًا، كان المسدَّس على رأسه. على الرصيف كان بإمكانه سماعُ الشُّرطي يتحرَّك بتكاسُلٍ ويضرب الأرض بقدميه، فالصباح كان باردًا رغم سطوعه.

صدح فجأةً أرغنٌ يدويٌّ في الشارع، وانطلق في عزف نغماتٍ مَرِحَة. نهض سايم مُتوتِّرًا، كما لو أن نفير المعركة قد صدح. وجد نفسه مُمتَلِئًا بشجاعة غير عاديَّة جاءَته من لا مكان. بَدَت تلك الموسيقى المجَلجِلَة مُمتَلِئَةً بالحيويَّة والخشونة، والشجاعة غير العقلانية للفقراء، الذي كانوا جميعًا، في كل تلك الشوارع القَذِرة، مُتشبِّثين بأخلاق وإحسانات المسيحيَّة. حيلته السَّاذجة بكونه شرطيًّا قد تلاشَت من عقله؛ لم ينظر لنفسه كممثِّلٍ لفَيلَقِ السَّادة المتحوِّلين إلى رؤساء شرطة مُتوَهِّمين، أو للعجائز غُرباءِ الأطوار الذين يعيشون في الغُرَف المظلِمَة. لكنه شعر بنفسه سفيرًا لكل الناس العاديِّين والوَدودين في الشارع،

الذيـن يسـيرون كلَّ يـوم إلى المعركـة عـلى وَقْـع أنغـام الأرغـن. وهـذه الكبريـاء السَّـامِقة لكونـه بشريًّـا قـد رفعتـه بشـكل غـير قابـل للتَّفسـير إلى سـماءٍ لا نهائيَّـةٍ فـوق الرِّجـال المتوحِّشـين مـن حولـه. لوهلـة، عـلى الأقـل، تَطلَّـع إلى كل غرائبهـم المتفشِّـية وهـو مُسـتقرٌّ عـلى العـرش الغـارِق في النجـوم لمـا هـو عـادِيٌّ. شـعرَ تجاهَهـم بـكلِّ التفـوُّق البسـيط غـير الواعـي الـذي يشـعر بـه رجـلٌ شـجاع تجـاهَ بَهيمَـةٍ قويَّـةٍ، أو رَجـلٌ حكيـمٌ تجـاهَ ضـلالاتٍ كاسِـحَة. كان يعـرف أنـه لا يتمتَّـع بالقـوة الفكريـة ولا الجُسـمانيَّة للأحـد الرئيـس؛ لكنـه في تلـك اللحظـة لم ينزعـج لذلـك بأكـثر مـن انزعاجـه مـن حقيقـة أنـه لا يتمتَّـع بعضـلاتِ نَمِـرٍ، أو قـرنٍ عـلى أنفـه كوحيـد القـرن. كل هـذا اختفـى في يقـينٍ مُطلَـقٍ بـأن الرئيـس كان عـلى خطـأ، وأن الأرغـن اليـدويَّ كان عـلى صـواب. هنـا اصطخَبَـت في عقلـه تلـك الحقيقـةُ البديهيَّـةُ المريعـة الدَّامِغَـة مـن نشـيد رولانـد:

"الوَثنيُّون على خطأٍ، والمسيحيُّون على حَقٍّ"[1].

وهـي كلـمات، بالفرنسـية الأنفيـة القديمـة، لهـا قَعقَعَـةُ وأنـينُ الحديـد العظيـم. مـع هـذا التحـرُّر لروحـه مـن عـبء الضَّعـف جـاء أيضًـا قـرارٌ في غايـة الوضـوح باعتنـاق المـوت. إذا كان شـعب الأرغـن اليـدوي قـد تمكَّـن مـن الوفـاء بعهـوده في العـالم القديـم، فكذلـك بإمكانـه هـو. هـذا الفخـر تحديـدًا بالوفـاء بكلمتـه كان مصـدره الوفـاء بكلمتـه للمجرمـين. كان انتصـاره الأخـير عـلى هـؤلاء المجانـين أن يهبـط معهـم إلى غرفتهـم المظلِمَـة، ثـم يمـوت في سـبيل شيء مـا لا يمكـن لهـم فَهمُـه حتَّـى. بـدا الأرغـن اليـدوي وكأنـه يمنـح المسـيرةَ طاقَـةَ وضجيـجَ أوركسـترا بأكملهـا؛ وكان بإمكانـه سـماعُ طبـول الفخـر بالمـوت؛ عميقـةً ومُندَفِعَـةً، تحـت كل أبـواق الفخـر بالحيـاة.

---

(1) بالفرنسـية في الأصل، ونشـيد رولانـد (La Chanson de Roland) هـو أقـدم عمـل مُهـمٌّ مُتبَـقٍّ مـن الأدب الفرنـسي، يعـود لمـا بـين 1140 و 1170 ميلاديـة- (المترجـم)

كان المتآمرون يتقدَّمون بالفعل عبر الباب العريض ثم إلى الغرف في الداخل. كان سايم آخِرَهم، هادئًا في ظاهِرِه، لكنَّ كُلَّ عقله وجسده ينبض بإيقاعٍ رومانسيٍّ. قادهم الرئيس إلى جانبٍ غير منتظم من الدَّرَج، كذلك الذي يستخدمه الخدم، إلى غرفة مُعتِمَة، باردة، خاوية، ذات مناضد ومقاعد طويلة، كغرفة اجتماعات. عندما أصبحوا جميعًا داخلها، أغلق الباب ثم أقفله بالترباس.

كان أوَّلُ المتحدثين هو جوجول، الذي لا يقبل المساومة، وبدا أنه ينفجر بحُزنٍ لا يمكن التعبير عنه.

"زسو! زسو!" صاح، بانتشاءٍ غامض، وتابع بنفس لَكنَتِه البولندية وقد غَدَت مُستَغلَقَةً بالكاد، "تقولون إنَّكم لستم مُتكاسلين. تقولون إنكم تعرفونهم. إنهم لا شيء. لكن عندما تتحدَّثون عن شيءٍ هامٍّ تهرعون إلى غرفة مُظلِمَة!".

بدا الرئيس وأنه تلقَّى التَّهكُّمَ المتفَكِّكَ للأجنبيِّ بروحِ فُكاهةٍ عالية.

"لا تفهم الأمر كما ينبغي، يا جوجول"، قال له بطريقة أبويَّةٍ. "عندما يسمعون لمرَّةٍ واحِدَةٍ حديثَنا بالتفاهات على تلك الشُّرفَة، فلن يُلقوا بالًا إلى أين نذهب بعد ذلك. إذا كُنَّا قد جِئنا هنا أوَّلًا، حينها سنكشف السِّرَّ للطاقم بأكمله. لا يبدو أنك تعرف أي شيء عن النوع البشري".

"أموت من أجلهم"، صاح البولنديُّ باستثارَةٍ ضبابية، "بل وأذبح مَن يقمعهم. لا أهتمُّ بألعاب الاختفاء هذه. بمقدوري أن أسحق المستبدَّ في ميدانٍ مفتوح".

"بالطبع، بالطبع"، قال الرئيس، هازًّا رأسه بحُنُوٍّ وهو يجلس على رأس مائدة طويلة. "تموت من أجل النوع الإنساني أولًا، ثم تقوم وتصعق قامِعيه. كل هذا حَسَنٌ. والآن دعني أطلُب منك أن تسيطر

على انفعالاتك الجميلة وتجلس مع السادة الآخرين على هذه المنضدة. فللمرّة الأولى هذا الصباح شيءٌ ما ذَكيٌّ سيُقال".

جلس سايم أوَّلًا، بسرعة البديهة المرتَبِكَة التي أبداها منذ الاستدعاء الأول. وجلس جوجول أخيرًا، متبرِّمًا من بين لحيته البُنِّيَّة بسبب التسوية المذِلَّة. وبدا أن لا أحد باستثناء سايم قد أدرك العاصفة التي على وشك أن تَهبَّ. بالنسبة له، راوَدَه فحسبُ شُعورُ رَجُلٍ يرتقي مشنَقَةً، عازِمًا على إلقاء خِطابٍ بليغٍ بأيِّ ثَمَن.

"يا رفاق"، قال الرئيس، ناهضًا فجأة، "لقد انغمسنا في هذه المسرحية الهزليَّة جدًّا. دَعَوتُكم للنزول إلى هنا لإخباركم بشيء في غاية البساطة والفظاعة بحيث يُمكِن للسُّقاة في الأعلى (وقد اعتادوا طَيشَنا) أن يسمعوا أخيرًا بعض الجِدِّيَّة في أصواتنا. يا رفاق، كُنَّا نناقش الخُطَطَ ونُسمِّي الأماكنَ. أقترح، قبل قَوْلِ أيِّ شيء، ألَّا نُصَوِّتَ على هذه الخُطَطِ والأماكن في هذا الاجتماع، بل نتركها بالكامل تحت سيطرة عضوٍ واحدٍ جديرٍ بالثقة. أقترح الرَّفيقَ السَّبتَ، دكتور بولْ".

حدَّقوا جميعًا فيه؛ ثم جَفلَوا جميعًا في مقاعدهم؛ فالكلمات التي تَلَت ذلك، رغم أنها لم تكن عالِيَةً، خَلَقَت تأكيدًا حيًّا ومثيرًا. ضرب الأَحَدُ المائِدَةَ بيَدَيْه.

"لا كلمة واحدة أخرى تُقال عن الخُطَطِ والأماكن في هذا الاجتماع. ولا حتى تفصيلة واحدة تافِهَة حول ما ننتوي فِعلَه يجب أن تُذكَر في هذا الجمع".

كان الأَحَدُ قد قضى حياته في إثارة ذهول أتباعه؛ لكنَّ الأمر بدا وكأنه لم يُثِرْ دهشتهم من قبل حقًّا إلَّا الآن. تَمَلمَلوا جميعًا باهتياجٍ في مقاعدهم، باستثناء سايم، الذي جلسَ مُتصلِّبًا في مقعده، يده في جيبه، قابِضًا على مُسدَّسًا مَحشُوًّا. عندما يحين الهجوم عليه سيبيع حياتَه بثَمنٍ غالٍ. سيكتشف على الأقل ما إذا كان الرئيس إنسانًا فانيًا.

تابع الأَحَدُ حديثه بهدوء:

"ربما تدركون أنه لا يوجد سوى دافِعٍ واحد فحسب لمنع الحديث الحُرِّ في احتفال الحرية هذا. الغرباء الذين يتنَصَّتون علينا لا أهميَّةَ لهم. يفترضون أننا نُلقي النِّكات. لكن ما يهمُّ حقًّا، لِحَدِّ الموت، هو أنه بيننا لا بُدَّ أن هناك شخصًا ما ليس مِنَّا، يعرف هدفنا الخطير، لكنه لا يشاركنا إيَّاه، شخص...".

صرخ السكرتير فجأةً كامرَأةٍ:

"لا يُمكِن!"، قال صائِحًا ومُتقافِزًا. "لا يمكن أن يكون بيننا...".

صفق الرئيس يده الكبيرة المسطحة على المائدة كزعنفة سمكة ضخمة ما.

"نعم"، قال ببطء، "يوجد جاسوسٌ في هذه الغرفة. على هذه المائدة يَجلِسُ خائِنٌ. لن أضيع أي كلمة أخرى. اسمه...".

نهض سايم بعضَ الشَّيء عن مقعده، إصبعه مُثَبَّتةٌ على الزِّناد.

"اسمه جوجول"، قال الرئيس. "إنه المحتال كَثُّ الشَّعر الجالس هناك، الذي يتظاهر بأنه بولنديٌّ".

نهض جوجول واثِبًا على قدميه، بمسدَّسٍ في كُلِّ يَدٍ. بنفس السرعة الخاطفة أمسك ثلاثةُ رجال بعُنُقه. حتَّى البروفسور العجوزُ بَذَلَ مجهودًا للنهوض. لكن سايم لم يَرَ الكثير ممَّا حدث؛ فقد أعماه ظلامٌ رحيمٌ؛ كان قد غرق في مقعده مُرتَعِشًا، في نوبَةِ شَلَلٍ من الارتياح الشَّهوانيِّ.

الفصل السابع

السُّلوكُ العَجيبُ للبُروفِسور دي وورمز

"اجلِسْ!" قال الأَحَدُ بصوتٍ استخدمه مرَّةً أو مَرَّتَيْن في حياته، صوتٌ جعل الرجال يضعون سيوفهم أرضًا.

ابتعد الثلاثة الذين نهضوا مُفسِحين الطريق لجوجول، وذلك الشخص المريب نفسه قد جلس ثانيةً.

"حسنًا، يا صديقي"، قال الرئيس بخشونة، مخاطِبًا إيَّاه كما يُخاطِب المرءُ شخصًا غريبًا بالكامل، "هل تَمتَنُّ بوضع يَدِكَ في جيب معطَفِكَ العُلويِّ وإخراج ما لديكَ فيه؟".

كان البولنديُّ المزعوم شاحِبًا قليلًا تحت شعره المتشابك الداكن، لكنه وضع إصبعين في الجيب ببرود ظاهر وسحب بطاقةً زَرقاءَ. عندما رآه سايم يضعها على المائدة، استيقظ ثانيةً وانتبه للعالَم من حوله.

فرغم أن البطاقة كانت مُلقاةً على الطرف الآخر من المائدة، ولم يَكن بإمكانه قراءة حرفٍ واحدٍ ممَّا نُقِشَ عليها، إلَّا أنها كانت تحمل تشابُهًا مُفزِعًا مع البطاقة الزرقاء في جيبه هو، البطاقة التي أُعطِيَت له عندما انضمَّ إلى شرطة مكافحة الفوضويِّين.

"سِلافيٌّ مُثيرٌ للشَّفَقة"، قال الرئيس، "طفلُ بولندا البائس، هل أنت مُستَعِدٌّ في حضرة تلك البطاقة أن تُنكِرَ حقيقة أنك في هذه الصُّحبَة -هل نقول- زائد عن الحاجة؟".

"حقًّا، أوه!" قال جوجول المتباطئ. جعل هذا الجميع يتوثَّب لسماع صوتٍ واضح، تجاريٍّ ومُبتَذَلٍ بشكل ما يخرج من غابة الشَّعر الأجنبي هذه. كان الأمرُ لا عقلانيًّا، كما لو أن صينيًّا قد أضحى فجأةً يتحدَّث بلكنة اسكتلنديَّة.

"أعتقد أنك تفهم موقِفَكَ بالكامل"، قال الأحدُ.

"بالتأكيد"، أجاب البولندي. "أرى أن الأمر مُنصِفٌ. لكن ما أريد قوله، أنني لا أعتقد أن أيَّ بولنديٍّ بإمكانه أن ينجح في تقليد لكنتي كما قَلَّدتُ أنا لكنته".

"أعترف بذلك"، قال الأحد. "أعتقد أن لكنَتَكَ غيرُ قابِلَةٍ للمُحاكاة، رغم أنني سأتدرَّب عليها في المرحاض. هل تُمانِعُ في تَركِ لِحيَتِكَ مع بطاقتِك؟".

"لا، إطلاقًا"، أجاب جوجول؛ وبإصبَعٍ واحِدَة انتزع كامِلَ غطاء رأس الأشعث، كاشفًا عن شَعرٍ أحمرَ خفيف، ووجهٍ قبيحٍ شاحب. "كان خانِقًا"، أضاف.

"سأنصِفُكَ بالقول"، قال الأحد، بشكلٍ لا يخلو من إعجابٍ مُتوحِّش ما، "إنَّكَ كنتَ تبدو هادئًا للغاية تحته. الآن أنصِتْ لي. أنت تُعجِبُني. النتيجة أن الأمر سيثير ضيقي لحوالي دقيقتين ونصف فحسب إذا

سمعتُ أنك لقيتَ حتفَكَ في العذابات. حسنًا، إذا أخبَرتَ الشُّرطةَ أو أيَّ روحٍ بشرية مهما كانت بأمرِنا، سأعاني تلك الدقيقتين ونصف من الانزعاج. في مَشقَّتِكَ وعذابك لن أتأمَّل طويلًا. يوم طيب. انتَبِهْ للدَّرَج".

نهض المحقِّقُ السِّرِّيُّ ذو الشعر الأحمر الذي تنكَّر في شخصيَّة جوجول بلا أي كلمة، وخطا خارجًا من الغرفة يحيطه جَوٌّ من اللامبالاة المطلَقَة. مع ذلك، كان سايم المذهول قادرًا على إدراك أن هذه الأريحيَّة كانت مُصطَنَعَةً؛ ففي الخارج كان صوتُ تَعثُّرٍ خافِتٍ، أثبت أن المحقِّقَ السري الراحل لم ينتبه لخطواته على الدَّرج.

"الوقت يَمرُّ سريعًا"، قال الرئيس بطريقته الأكثر كآبة، بعد اقتناص نظرة على ساعته، التي بَدَت، كأي شيء له علاقة به، أكبرَ من حجمها الطبيعي. "عليَّ أن أرحل من فوري؛ ينتظرني مقعدُ الرئيس في اجتماع الإنسانويِّين".

استدار السكرتير إليه بحاجِبَيْن مشغولَيْن.

"أليس من الأفضل"، قال بِحِدَّةٍ خافتة، "أن نستمرَّ في مناقشة تفاصيل مشروعنا، الآن وقد رحل الجاسوس؟".

"لا، لا أعتقد"، قال الرئيس مُتثائِبًا كزلزالٍ غير مرئي. "لتَبقَ الأمور كما هي. ليُنْهِ السَّبتُ المسألةَ. ينبغي أن أرحل. الإفطار هنا في الأحد القادم".

لكن المشاهد الصاخبة الأخيرة كانت قد ضَرَبَت بعُنفٍ أعصابَ السكرتير الواهية. كان واحدًا من هؤلاء الرجال المتمتِّعين بالضمير حتى في مسائل الجريمة.

"لا بُدَّ أن أحتجَّ، سيدي الرئيس، إنَّ المسألة غير عادية"، قال له. "من القواعد الأساسية في جمعيَّتنا أن نُناقِشَ جميع الخُطَطِ في وجود

المجلس بأكمله. بالطبع، أُقَدِّر بالكامل بَصيرَتَكَ وتَرَوِّيَكَ عندما قُمتَ في حضور الخائن...".

"أيُّها السكرتير"، قال الرئيس بحَزمٍ، "إذا أخَذتُ رأسَكَ إلى المنزل وغَلَيْتُها كنبات لِفْتٍ قد يكون ذلك مُفيدًا. لستُ مُتيقِّنًا، لكن رُبَّما".

تَراجَعَ السكرتير في مقعده وكأنه حصانٌ غاضِبٌ.

"حقًّا لا أفهم ..."، بدأ بنبرةِ مَن يَشعُر بإهانَةٍ كبيرة.

"هذه هي المسألة!"، قال الرئيس، هازًّا رأسًا مَهيبَةً عِدَّةَ مَرَّاتٍ. "هذا ما تعجز عنه تمامًا. عاجز عن الفهم. يا للعجب، أيُّها الحمار الراقص"، زَمجَرَ، ناهِضًا، "لم تكن ترغب في أن يتنصَّت عليكَ جاسوسٌ، أليس كذلك؟ كيف تعلم أنه لا يتنصت عليك الآن؟".

وبهذه الكلمات شقَّ طريقه خارجًا من القاعة، مرتعشًا بازدراءٍ لا يوصف.

فغر أربعة من الرجال الذين تخلَّفوا أفواهَهم بدون أي بريق في أعينهم يدلُّ على فهم كلماته. سايم وحده كان يفهم، وهذا الفهم أودى به إلى التَّجمُّد حتى النُّخاع. إذا كانت الكلمات الأخيرة للرئيس تعني أي شيء، فهي تعني أنَّه، في نهاية المطاف، لم يُثِر فيهم أيَّ شكوك. وتعني أنه رغم أن الأحدَ لم يستطع اتِّهامه كما فعل مع جوجول، إلَّا أنه لا يثق فيه -ما زال- كما يَثِقُ في الآخرين.

نهض الأربعة الآخرون متبرِّمين بعض الشيء، وانطلقوا إلى مكانٍ آخر لتناول الغداء، فقد تجاوز الوَقتُ بعد الظهيرة بكثير. كان البروفسور آخِرَ الذاهبين، ببطءٍ وألم شديدين. جلس سايم بمفرده بعد أن رحل البقيَّة، مُتأمِّلًا وَضعَه الغريب من كُلِّ الزوايا. كان قد أفلتَ من صاعِقَةِ بَرقٍ، لكنه ما زال تحت السَّحابة الرُّكاميَّة. في النهاية نَهَضَ وشقَّ طريقه خارجًا من الفندق إلى ميدان ليستر. النهار البارد المشرق

أضحى أكثرَ برودةً؛ وعندما وصل إلى الشارع تفاجَأ بحفنةٍ من نُدَفِ الثَّلج.أبقى على العصا السَّيفيَّة وبقيَّة حقائب جريجوري، إلَّا أنه كان قد نزع العباءة السوداء وتركها في مكانٍ ما، ربَّما على القارب الصغير، ربما على الشرفة، آملًا، لذلك، ألَّا يتساقط الثلج بشدَّة، خَطَا خارجًا من الشارع لوَهلَةٍ ووَقَفَ تحت مدخل محلِّ حلاقَةٍ صغيرٍ ومشحَّم، كانت نافذته الأمامية خاوِيَةً، باستثناء تمثالٍ سَقيمٍ من الشمع لسيِّدَةٍ في ثياب السهرة.

بدأ الجليد -رغم ذلك- في التراكُم والتساقط بسرعة؛ وسايم، بعد أن وجد أن نظرةً واحدة إلى تمثال الشمع كانت كافيةً تمامًا لإصابته بالاكتئاب، حَملَقَ بدلًا من ذلك إلى الشارع الخاوي والأبيض. كان مُندَهِشًا للغاية أن يرى رَجُلًا، يقف ساكنًا تمامًا خارج محلِّ الحلاقة مُحَملِقًا في النافذة. قُبَّعتُه العالية كانت غارِقَةً في الجليد كبقعة سانتا كلوز، والركام الأبيض يرتفع حول كاحِلَيْه وحذائه الطويل؛ بدا وكأنَّ شيئًا لا يمكن أن ينتزعه من تأمُّل تمثال الشَّمع عديم اللون في ثوب السهرة القَذِر. ومسألة أن يقف أيُّ كائِنٍ بَشريٍّ في طقس كهذا يتطلَّع إلى محلِّ حلاقَةٍ كهذا كانت مسألةً عجيبة للغاية بالنسبة لسايم؛ لكن اندهاشه الفارغ هذا تحَوَّلَ فجأةً إلى صدمة شخصية؛ فقد أدرك أن الرجل الواقف قُبالَته كان البروفسور العجوز القعيد دي وورمز. لم يكن ذلك بالتأكيد مكانًا مُناسِبًا لرَجُلٍ في سِنِّه وعِلَلِه.

كان سايم على استعدادٍ لتصديق أيِّ شيء حول انحرافات هذه الأخويَّة عديمة الإنسانية؛ لكنه لم يكن ليصدِّق أن البروفسور قد وقع في حُبِّ تمثال الشمع الأنثوي ذلك بالتحديد. كان باستطاعته فقط أن يفترض أن مرض الرجل (أيًّا كان) كان يشتمل على نوباتٍ لحظيَّةٍ من الجمود أو الانجذاب المَرَضِيِّ. على العكس من ذلك، هنَّأ نفسَه بالأحرى أن نَوْبَةَ البروفسور ومِشيَتَه العرجاء المدروسة ستسمح له بالهروبِ منه بسهولةٍ وتَركِه وراءه. فقد كان سايم يتوق أوَّلًا وأخيرًا

لتنقية الجوِّ السامِّ الذي يحيط به، حتى وإن كان ذلك لساعةٍ واحدة. وحينها يمكنه استجماعُ أفكاره، صياغة سياسته، وأخيرًا تحديدُ ما إذ كان عليه أن يَفِيَ بوعده لجريجوري أم لا.

سارَ متمهِّلًا عبر الجليدِ الرَّاقص، استدار عبر شارِعَيْن أو ثلاثة، ومضى عبر اثنين أو ثلاثة أخرى، ثم دلف إلى مطعمٍ صغير في شارع سوهو الشهير لتناول الغداء. تناوَلَ مُتأمِّلًا وجبةً من أربع أطباق صغيرة وعجيبة، احتسى نصف قنِّينة من النبيذ الأحمر، وانتهى بقهوةٍ سوداء وسيجارٍ أسود، مُفكِّرًا ما زال. كان قد اتَّخذ مقعده في القاعة العلوية من المطعم، التي كانت تَغُصُّ بقَعقَعَةِ السَّكاكين وثرثرة الأجانب. تذكَّر أنه طالما تخيَّل في الأيام الخوالي أن كلَّ هؤلاء الغُرباء الأبرياء والسُّذَّج كانوا فوضويِّين. ارتعش، مُتذكِّرًا الأمر الحقيقي. لكن حتى ارتعاشته كانت لها ذلك الشعور اللذيذ بعار الهروب. النبيذ، الطعام الرديء، المكان المألوف، وجوه الرجال العاديِّين الثرثارين، كل هذا جعله يشعر كما لو أن مجلس الأيام السَّبعة لم يكن إلَّا كابوسًا؛ ورغم أنه يعرف أنه كان حقيقةً موضوعيَّةً جدًّا، إلا أنها حقيقة بعيدة الآن على الأقل. كانت المنازل الطويلة والشوارع المزدحمة بمثابة حاجزٍ بينه وبين آخر مرَّةٍ رأى فيها سَبعَةَ العار؛ كان حُرًّا في لندن الحُرَّة، يحتسي النبيذ بين الأحرار. بارتياحٍ أكبر بشكلٍ ما، تناوَلَ قُبَّعَته وعصاه وخَطَا عبر الدَّرَج مُتَمهِّلًا إلى المقهى في الأسفل.

عندما دلف إلى تلك القاعة السُّفليَّة وقف مذهولًا وقد تجذَّرَت قدماه في مكانهما. في مائدةٍ صغيرة، قريبًا من النافذة السوداء والشارع الأبيض الغارق في الجليد، كان يجلس البروفسور الفوضويُّ العجوز أمام كوبٍ من الحليب، بوجهه الشاحب المرتفع، وجَفْنَيْه المتدلِّيَيْن. لوهلَةٍ وقف سايم مُتصلِّبًا كالعصا التي يستند عليها. ثم بتعَجُّلٍ أعمى، اندفع مارًّا بالبروفسور، دافِعًا الباب بقوَّةٍ، وغالِقًا إيَّاه بعُنفٍ وراءه، ثم وقف في الخارج في الجليد.

"هل تُلاحِقُني تلك الجُثَّة العجوز؟" سأل نفسه، عاضًّا على شاربه الأصفر. "تلكَّأتُ كثيرًا في ذلك المطعم القاعة، بحيث أنه حتى قدمان ثقيلتان كهاتين يمكنهما اللحاق بي. العزاء الوحيد هو أنني بقليلٍ من المشي الرشيق يمكنني وضع ذلك الرجل بعيدًا حتى حدود تيمبوكتو. أم أنني واهِمٌ؟ هل كان يتبعني حقًّا؟ بالتأكيد ليس الأَحَدُ بتلك الحماقة حتى يرسل رجلًا كسيحًا كهذا".

انطلق في سَيرِه بخطواتٍ خفيفة، يلوي عصاه ويديرها، في اتجاه حديقة كوفينت. عند مروره بالسوق الكبيرة ازداد هطول الجليد، وغدا مُعمِيًا ومُربِكًا مع انتهاء النهار. أزعَجَته نُدَفُ الثَّلج وكأنها جماعَةٌ من النحل الفضِّيِّ. باختراقها لعينيه ولحيته، زادت عبَثِيَّتُها التي لا تنقطع من اهتياجِ أعصابه المهتاجة بالفعل؛ وعندما وصل إلى مرحلة الخطوات المتمايِلَة في بداية شارع فليت، فقد صَبَرَه، وبعد أن وجد مقهى شاي، استدار إليه بحثًا عن مأوى. طلب كوبًا آخر من القهوة السوداء كمُبَرِّر. فور أن فعل ذلك، كان البروفسور دي وورمز قد عَرَجَ متثاقلًا إلى داخل المقهى، جلس بصعوبة وطلب كوبًا من الحليب.

سقطت عصا سايم السَّيفيَّة من يديه مُحدِثَةً قَعقَعَةً كبيرة، وهو ما كشف عن المعدن المخبَّأ في داخلها. رغم ذلك، لم ينظر البروفسور حوله. لكن سايم، الذي كان يتمتَّع بثبات النفس عادةً، كان فاغِرَ الفاه حرفيًّا كما يحدِّق الريفيُّون فاغري الأفواه إلى خُدَع استحضار الأرواح. لم يَرَ أيَّ عربةِ أُجرَةٍ تَتبَعه؛ لم يسمع أيَّ عجلات تتوقَّف خارج المقهى؛ وبكل مظاهره الفانية جاء الرجل على قدميه. لكن الرجل العجوز لم يكن بإمكانه سوى السير كحلزون، بينما سار سايم بسرعة الرياح. جَفَلَ واقفًا وانتزع عصاه، فاقدًا عقله تقريبًا بسبب التناقُض في هذا الحساب الرياضي البحت، ثم اندفع خارجًا من الأبواب الدَّوَّارة، تاركًا قهوته قبل أن يتذوَّقها. كان باص عموميٌّ في طريقه إلى

ضِفَّة النهر ينطلق مُقَعقِعًا بسرعة غير عادية. كان أمام سايم مسافة مائة ياردة عليه أن يقطعها بعنف للوصول إلى الباص؛ لكنه نجح في الوثب، مُتمايِلًا ومُستَنِدًا على حاجز الباص الخلفي، ثم توقَّفَ لِلُّهاث لِبُرهَةٍ، ثم صعد لأعلى. بعد أن جلس لنصف دقيقة تقريبًا، سمع وراءه لهاثًا ثقيلًا لشخصٍ مُصابٍ بالرَّبو.

عندما استدار بحدَّة، رأى، ترتفع تدريجيًّا على درجات الباص، قُبَّعَةٌ عالية مُتَّسِخة يتقاطر منها الجليد، وتحت ظِلِّ حافَّتِها الوجهُ قصير النظر، والذِّراعان المرتعشتان للبروفسور دي وورمز. جلس على مقعدٍ بعناية مُميِّزة له، والتفَّ حتى ذَقنِه بدثارٍ واقٍ من المطر.

كل حركة في هيئة الرجل العجوز المترنِّحة ويديه المبهَمَتَيْن، كل إيماءة مُتشكِّكة وتَوقُّف بسبب الفزع، بَدَت وكأنها تُؤكِّد تمامًا عجزَه وبُؤسَه، أنه كان في آخر حماقات الجسد. يتحرَّك بالإنشات، ويستغرق في لُهاثاتٍ حَذِرَةٍ قصيرة جدًّا. ومع ذلك، ما لم تَكُن الكينونات الفلسفية التي تُعرَف باسم الزمان والمكان قد فَقَدَت كُلَّ أثر من الوجود العمليِّ، فإنه، بِشَكلٍ لا يرقى إليه الشَّكُّ، قد نجح في اللحاق بالباص.

انتفض سايم واقفًا في العربة المتأرجحة، ومُحَملِقًا بجنونٍ في السماء الشتوية، التي تزداد تَجَهُّمًا في كل لحظة، هرع نازلًا من عَتبات الدَّرَج، بعد أن قمع دافعًا غريزيًّا للقفز من عليه دفعةً واحدة.

مرتبكًا وعاجزًا بالتَّالي عن النظر وراءه أو حتى عن التفكير، اندفع إلى واحدة من الساحات الصغيرة على جانب شارع فليت كما تندفع الأرانبُ إلى جحورها. واتَته فِكرَةٌ غامِضَة، إذا كان ذلك المهرِّج الزُّنبُركيُّ العجوز الغامض يتَعقَّبه بالفعل، فإنه في متاهَة الشوارع الصغيرة تلك بإمكانه خِداعُه والتَّخلُّص منه. غاص داخلًا وخارجًا من تلك الحواري الملتوية، التي كانت على شكل شقوقٍ أكثر من كونها مَمرَّاتٍ للمشي؛ وبعد أن نجح في إكمال حوالي عشرين من الزوايا المتبدِّلَة راسِمًا

مُضَلَّعًا هندسيًّا غير معقول، توقَّف لبرهة للإنصات لأي تعقُّب. لم يسمع شيئًا؛ في كل الأحوال لم يكن بإمكانه سماعُ الشيء؛ فالشَّوارِعُ الضيِّقة كانت مُثقَلَةً بالثَّلج المُصمَت. في مكانٍ ما خلف ساحَةِ ريد ليون، رغم ذلك، لاحظ مكانًا قام بعض المواطنين الصالحين بتنظيفه من الجليد لمساحة عشرين ياردة تقريبًا، مُخلِّفين وراءهم أحجارًا نَدِيَّةً مُتَلألِئَةً على الرصيف. فكَّر في هذا قليلًا عند مروره به، فقط لينغمس في ذراعٍ أخرى من المتاهة. لكن عندما وقف بعد مائة ياردة أخرى للإنصات، توقَّف قلبه أيضًا؛ فقد سمع من تلك المساحة من الأحجار الخَشِنَة قَعقَعَةَ العُكَّاز والقدم الكادِحَة لذلك القعيد القادم من الجحيم.

كانت السَّماءُ من فوقه مُحمَّلَةً بسُحُب الجليد، تاركةً لندن في ظلامٍ وتَجهُّمٍ سابِقٍ لأوانه في تلك الساعة من المساء. على جانبي سايم كانت حوائِطُ الزُّقاق مُصمَتَةً بلا علاماتٍ مُميِّزَة؛ وبلا أيِّ نوافذ صغيرة أو أي نشاط بشري. شَعَرَ بدافِعٍ جديد للهروب من خليَّة نحل المنازل هذه، والخروج ثانيةً إلى الشوارع المفتوحة المضاءة. مع ذلك استمرَّ في تجوُّله وتَمايُله لوقتٍ طويل قبل أن يصل إلى الشارع الرئيسي. وبعد أن وصل إلى أبعد ممَّا كان قد تَخيَّله. وصل خارجًا إلى ما يبدو أنه سيرك لودچيت الشَّاسِع والخاوي، ورأى قِمَّة كاتدرائية سان بول في السماء.

في البداية جَفَلَ لاكتشافه خواءَ تلك الطُّرُق العظيمة، كما لو أن طاعونًا قد اكتسح المدينة. ثم قال لنفسه إنَّه من المعقول وجودُ درجة مُعيَّنَة من الخواء؛ أوَّلًا لأن العاصفة الجليدية كانت عاتِيَةً جدًّا، وثانيًا لأنه كان يوم الأحد. وعند كلمة الأحد تلك عضَّ شفتيه؛ فقد اكتسبت توريةً شنيعة. تحت الضباب الأبيض للجليد الصاعد في السماء تحوَّل جَوُّ المدينة بأكمله إلى نوعٍ غريب من الظلام الأخضر، كما لو كان ظِلالًا بشريَّةً تحت البحر. والغروب المكتوم والكئيب وراء القُبَّة المظلِمَة لكاتدرائية سان بول كان ذا ألوان وأدخنة شريرة-

ألوان الأخضر السقيم، الأحمر الميت، أو البرونزي المتحلِّل، مُشرِقَة مع ذلك بما يكفي لتأكيد البياض الجامد للجليد. لكن أمام تلك الألوان المفزعة ارتفعت الكُتلَة السوداء للكاتدرائية؛ وعلى قِمَّتها كان رذاذٌ ولُطَخُ الجليد، وكأنها مُتعلِّقة ما زالت بقِمَّةٍ من قِمَم جبال الألب. كان قد تساقَطَ عشوائيًّا، لكنه تساقَطَ بطريقة شَكَّلَت ما يشبه ستارةً مفتوحة على القُبَّة من ذروتها، مُبرِزَةً الفضِّيَّ الخالِصَ للصليب والدائرة العظيمة. عندما رأى سايم ذلك انتصب في وقفته فجأة، وأرسل بعصاه السيفية تحيَّةً تلقائيَّةً.

كان يعرف أن هيئة البشرية الشريرة، المتمثِّلة في ظِلِّه، كانت تزحف سريعًا أو بطيئًا ربما من خلفه، لكنه لم يُبالِ.

رأى في تألُّق ذلك المكان السامق من الأرض مع إظلام السماء رمزًا للإيمان والشجاعة الإنسانية. ربما نجَحَت الشياطينُ في احتلال السماء، لكنها لم تَصِلْ بَعدُ إلى الصليب. راوَدَه دافِعٌ جديد لانتزاع سِرِّ ذلك القعيد الراقص، القافز الذي يتعقَّبه؛ وفي مدخل الساحة عند انفتاحها على السيرك استدار، والعصا في يده، لمواجهة مُلاحِقِه.

ظهر البروفسور دي وورمز مُتباطِئًا من زاوية الزقاق المتعرِّج من ورائه، شكله البشريُّ غير العادي مُحدَّدُ الحَوافِّ أمام مصباح غازٍ وحيد، مُستَدعِيًا على نحوٍ لا يُقاوَمُ ذلك البَشريَّ التَّخيُّليَّ في أغاني الأطفال، "الرجل الملتوي الذي سار عبر شارع مُلتَوٍ لميلٍ كامل". بدا حقًّا كما لو أنه اكتسب التواءه بفعل تعذيب الشوارع التي كان يَطرُقها بخطواته. اقترب أكثر وأكثر، مصباح العمود يتألَّق على نظارته المرفوعة ووجهه المريض المرفوع. انتظره سايم كما انتظر القِدِّيس چورچ التِّنِّين، كرَجُلٍ ينتظر تفسيرًا نهائيًّا أو ينتظر الموت. ثم جاء البروفسور العجوز على الفور ومرَّ به كشَخصٍ غريبٍ بالكامل، بِلا حتَّى طرفَةٍ من جَفنَيْه الكئيبين.

شيءٌ ما في هذه البراءة الصامتة وغير المتوقَّعَة خلَّف في سايم ثورةَ غَضبٍ هائلة. وجه الرجل عديم اللون وطريقته بَدَوَا وكأنها يؤكِّدان أن مسألة التَّعقُّب بأكملها كانت مَحضَ صُدفَةٍ. ارتعش سايم بطاقةٍ كانت شيئًا ما بين المرارة وانفجار السُّخرية الصبيانيَّة. أبدى إيماءةً شَرِسَةً كما لو كان لإسقاط قُبَّعَةِ الرجل العجوز من رأسه، وصاح قائِلًا شيئًا ما، يشبه" "أَمْسِكْ بي إن استَطَعتَ"، ثم انطلق مُسرِعًا عبر السيرك المفتوح، الأبيض. أصبح الاختفاء مُستحيلًا الآن؛ وبالتَّطلُّع للوراء من فوق كتفه، كان بإمكانه رؤية الشكل البشري الأسود للچنتلمان العجوز قادمًا في إثرِه بخطواتٍ طويلة، مُتمايِلَةٍ، كرَجُلٍ في طريقه للفوز في سباق الميل. لكن الرأس على ذلك الجسد المستثار كان ما زال شاحِبًا، وقورًا وأستاذيًّا، كرأس مُحاضِرٍ جامعيٍّ على جسد مُهرِّج.

استمرَّت هذه المطارَدَةُ المهتاجة عبر سيرك لودچيت، صعودًا إلى تَلِّ لودچيت، مُلتفَّةً حول كاتدرائية القدِّيس بول، بمحاذاة تشيبساید، بينما سايم يتذكَّر كُلَّ الكوابيس التي عرفها في حياته. ثم ابتعد سايم واتَّجه إلى النهر، وانتهى به الحال وقد سقط تقريبًا على الأرصفة. رأى النوافذ الصفراء لحانَةٍ واطِئَة، ومُضاءَةٍ، واندفع إلى داخلها، ثم طلب كأسًا من البيرة. كانت حانَةً عَطِنَةً، يتناثر فيها البحَّارة الأجانب، مكانًا يُمكِن فيه للأفيون أن يُدَخَّنَ، أو السكاكين أن تُسحَب.

بعدها بلحظاتٍ دَلَفَ البروفسور دي وورمز إلى المكان، جلس بحَذَرٍ، وطلب كوبًا من الحليب.

الفصل الثامن

البروفسور يَتَكلَّمُ

عندما وجد جابرييل سايم نفسه مُستقرًّا بحَسمٍ على مقعدٍ في مواجهة البروفسور، المستقرِّ والحاسم أيضًا، بحاجِبَيْه المرفوعَيْن وجفنيه المتراخيَيْن، عادت مَخاوفُه بالكامل. هذا الرجل الغامض من المجلس الشَّرِس، في نهاية المطاف، كان يتعقَّبه بالتأكيد. إذا كان الرجل يحمل شخصيَّةَ القعيد وشخصيةً أخرى كمتعقِّب، فإن هذا التناقُض يجعله أكثرَ إثارةً للاهتمام، لكن بالكاد أكثر إثارة للهدوء. سيكون الأمر مجرَّد عزاءٍ ضئيل جدًّا أنه يعجز عن الوقوف على حقيقة البروفسور، إذا استطاع البروفسور -بصُدفَةٍ نادرةٍ ما- اكتشافَ حقيقته. أفرغ إناءًا قصديريًّا كامِلًا من جعَّة المزر قبل أن يلمس البروفسور حليبَه.

احتماليَّةٌ واحدة -رغم ذلك- أبقَت على الأمل لديه، والعَجز رغم ذلك. قد تكون هذه المغامرة تعني شيئًا ما أكبر من مجرَّد الشكوك

البسيطة تجاهه. ربما كانت شكلًا أو علامةً مُعتادَةً أخرى. ربما كان الراكض الأحمق شكلًا من أشكال الإشارات الوَدودة التي كان عليه أن يُدرِكَها. ربما كان الأمر طقسًا من الطُّقوس. ربما كان الخميس الجديد مطاردًا دائمًا بمحاذاة تشيبسايد، تمامًا كما أن السيد العمدة الجديد يمضي بحاشِيَةٍ تُرافِقه دائمًا. كان سايم يفكِّر في طريقةٍ مُلائِمَة لطرح السؤال، عندما قطع عليه البروفسور العجوزُ الجالس قبالَتَه أفكارَه بمنتهى البساطة. قبل أن يتمكَّن سايم من طرح السؤال الدبلوماسي الأول، سأله الفوضويُّ العجوز فجأةً، بلا أي مقدِّمات:

"هل أنت شُرطيٌّ؟".

أيًّا كان ما تَوَقَّعه سايم، فلم يتوقَّع أبدًا أيَّ شيء وحشي وصادم كهذا. بل إن حضور ذهنه القوي لم يتمكَّن من الرَّدِّ سوى بمُداعَبَةٍ حمقاءَ بعض الشيء.

"شرطي؟"، قال له، ضاحِكًا بغموض. "ماذا بحقِّ السماء دفَعَكَ للاعتقاد بأنني شرطي؟".

"كانت المسألة بسيطة جدًّا"، أجابه البروفسور بصبر. "فكَّرتُ أنَّك تشبه شُرطيًّا. أعتقد ذلك الآن".

"هل تناوَلتُ قُبَّعَة شُرطيٍّ بالخطأ من المطعم؟"، سأله سايم، مُبتَسِمًا بتهوُّر. "هل التصق بي رقمٌ ما صُدفةً في مكانٍ ما؟ هل حذائي الطويل له تلك النظرة المتوثِّبة؟ لماذا ينبغي أن أكون شرطيًّا؟ هل يمكن أن أكون رجلَ بريدٍ؟".

هزَّ البروفسور العجوز رأسه بوقارٍ لا يمنحُ أيَّ أمَلٍ، لكن سايم تابع حديثه بسخرية محمومَةٍ.

"ربَّما لم أفهم جيِّدًا دقائق فلسَفَتَكَ الألمانية. ربما كان الشرطي مصطلحًا نسبيًّا. بالمعنى الثوري، يا سيدي، يتحوَّل القِردُ تدريجيًّا

ويتلاشى إلى رَجُلِ الشرطة، لحدٍّ أنه لا يعود من الممكن اكتشافُ الفَرقِ. رجل الشرطة لا يمكن أن يكون إلَّا قردًا. ربما يكون مجرد فتاة صغيرة في حديقة كالافم كومون. لا أمانع في أن أكون ذلك الشرطيَّ الذي قد يكون أيَّ شيء. لا أُمانِع في أن أكون أيَّ شيء في الفِكر الألماني".

"هل أنتَ في خدمة الشرطة؟" قال الرجل العجوز، مُتجاهِلًا كلَّ مَزحات سايم المرتَجَلة والبائسة. "هل أنت مُحقِّقٌ سِرِّيٌّ؟".

تحوَّل قلب سايم إلى حجر، لكنَّ وَجهَه لم يتغيَّر بتاتًا.

"ما توحي به هو أمرٌ سخيف"، بدأ قائلًا. "ماذا بحق السماء...".

خبط العجوزُ يدَه المشلولة بانفعالٍ على المائدة المتداعية، مُهشِّمًا إيَّاها تقريبًا.

"هل سمعتني أطرح سؤالًا بسيطًا، أيُّها الجاسوس الثرثار؟" صاح بصوتٍ عالٍ، مجنون. "هل أنت مُحقِّقٌ سِرِّيٌّ يتبع الشُّرطَةَ أم لا؟".

"لا!"، أجابه سايم، كَرجُلٍ على وشك السقوط من فتحة المشنقة.

"لتقُسِمْ على ذلك"، قال العجوز، مقتربًا منه، وجهه الميِّتُ كما لو أنه غدا حيًّا على نحوٍ مُقزِّز. "لتقسم على ذلك! لتقسم على ذلك! إذا أقسَمتَ باطلًا، فهل تقبل أن تَحلَّ عليكَ اللعنة؟ هل تقبل أن يرقص الشيطان في جنازَتِكَ؟ هل تقبل أن ترى الكابوس يَجثُمُ على قَبرِكَ؟ أفعلًا لا يوجد خطأ في المسألة؟ أنَّكَ فوضويٌّ مُفجِّر ديناميت! أيًّا كان، ألستَ بأيِّ شكلٍ مُحقِّقٌ سرِّيٌّ؟ ألستَ في الشرطة البريطانية؟".

أسنَدَ مرفَقَه قائِمَ الزاوية على طول المائدة، ووضع يده الكبيرة المرتخية كجناح على أذنه.

"لستُ في الشرطة البريطانية"، قال سايم بهدوءٍ مجنون.

تراجَعَ البروفسور دي وورمز في مقعده بحسٍّ عجيب من الانهيار المسالِم.

"يُؤسِفُني سماعُ ذلك"، قال له، "لأنني كذلك".

انتفض سايم واقِفًا، دافِعًا المقعد إلى وراءه بصَخبٍ شديد.

"لأنك ماذا؟"، قال مُسرِعًا. "أنتَ ماذا؟".

"أنا شُرطيٌّ"، قال البروفسور بابتسامته العريضة الأولى، وبعينين متوهِّجَتَيْن عبر نظّارته. "لكن بما أنَّكَ ترى أن الشرطي مُصطَلَحٌ نِسبيٌّ، إذن فلا شيء يربطني بكَ. أنا في قوة الشرطة البريطانية؛ لكن بما أنك تقول إنَّكَ لستَ في قوة الشرطة البريطانية، فلا يسعني القول إلا أنني قابَلتُكَ في نادي مُفجِّري الديناميت. أعتقد أنه يتوجَّبُ عليَّ القبض عليكَ". وبهذه الكلمات وضع على المائدة أمام سايم نسخة طبق الأصل من البطاقة الزرقاء التي يحملها سايم في جيب مِعطَفِه، رمز سُلطَتِه الممنوحة من الشرطة.

للِحظَةٍ راوَدَ سايم شعورٌ بأن الأكوان انقلَبَت رأسًا على عقب، وبأن الأشجار غَدَت تنمو إلى الأسفل، وأن كل النجوم أصبحت تحت قدَمَيْه. وحينها بطيئًا جاءه اليَقينُ المعاكس. طوال الأربع والعشرين ساعةً السابقة كانت الأكوان قد انقلبت رأسًا على عَقِبٍ بالفعل، لكن الآن اعتدل الكونُ المقلوب. هذا الشيطان الذي كان سايم يتحاشاه طوالَ النهار لم يكن سوى أخٍ أكبرَ سِنًّا من نفس البيت، كان على الجانب الآخر من المائدة يستلقي ويَسخَرُ منه. لم يسأله الآن عن أيِّ تفاصيل؛ كان يعرف فحسب الحقيقة السعيدة والهزليَّة بأن ظِلَّه -الذي كان يتعقَّبُه حامِلًا معه مَخاطِرَ لا تنتهي- لم يكن سوى ظلٍّ لصديقٍ يحاول اللحاق به. أدرك على الفور أنه كان أحمقَ، ورَجُلًا حُرًّا. لأنه مع أي تَعافٍ من السوادوية لا بُدَّ أن يحدث إذلالٌ قَويٌّ مُعيَّن. وحينها تظهر لحظة بعينها تصبح فيها ثلاثة أشياء مُمكِنَة فحسب: أوَّلًا، تأبيد الكبرياء الشيطاني، وثانيًا الدموع، وثالثًا الضحك. وجد غرورُ سايم صعوبةً للوصول إلى المسار الأول لبضعة ثوانٍ؛ ثم

اختار فجأةً الثالث. تناوَلَ بطاقته الزرقاء من جيب معطفه وألقاها على المائدة؛ ثم طوَّح برأسه للوراء حتى أصبح طرفُ لحيته الصفراء في اتجاه السقف تقريبًا، ثم أطلق ضحكةً بربريَّةً مُدوِّية.

حتَّى في ذلك العرين الضيق، الممتلئ أبدًا بالسكاكين، والصحون، والمعلَّبات، والأصوات الصاخبة، والصراعات والفرارات المذعورة المفاجئة، فإن شيئًا ما "هُومريًّا" وبُطوليًّا في ابتهاج سايم دفع بكثير من السُّكارى إلى التطلُّع ناحيته.

"على ماذا تضحك يا رئيس؟" سأل واحدًا من العُمَّال المندهشين من ناحية الأرصفة.

"على نفسي"، أجابه سايم، وانغمس ثانيةً في عذابات نشوَتِه.

"تمالَكْ نفسك"، قال البروفسور، "وإلَّا سيتحوَّل الأمر إلى هستيريا. احْتَسِ مزيدًا من البيرة. سأنضمُّ إليكَ".

"لم تَحتَسِ حليبك"، قال سايم.

"حليبي!"، قال الآخر، بنغمة من الازدراء المدمِّر والمبهَم، "حليبي! هل تظنُّ أنني قد أنظر إلى هذه المادة البهيميَّة عندما أكون مُتواريًا عن أنظار الفوضويِّين اللعينين؟ كلُّنا مسيحيُّون هنا، رغم أننا..."، أضاف، مُختَلِسًا النظرات إلى الجمع المترنِّح، "لسنا مسيحيِّين مُتشدِّدين. أُنهي حليبي؟ يا للجحيم، سأُنهيه، سأنهيه على الفور!"، ثم أطاح بالكأس من على المادة، مُهشِّمًا الزجاج وناثِرًا رذاذ السائل الفضِّيِّ.

كان سايم يحدِّق فيه بفضولٍ سعيد.

"أفهم الآن"، صاح قائلًا؛ "بالطبع، لستَ رجلًا عجوزًا على الإطلاق".

"لا يمكنني نَزعُ وجهي هنا"، أجابه البروفسور دي وورمز. "إنه بالأحرى تنكُّر مُتقَنٌ بالمساحيق. وبالنسبة لمسألة أنني رجلٌ عجوز، فلا يُمكِن قولُ ذلك. كنتُ في الثامنة والثلاثين في عيد ميلادي الأخير".

"نعم، لكن ما أعنيه"، قال سايم بنفادِ صَبرٍ، "أنَّكَ لا تعاني من أي مشاكل".

"نعم"، أجاب الآخر بهدوء. "لكنَّني عُرضَةً للبرد".

كانت ضحكات سايم على كلِّ هذا ذاتَ ارتياحٍ مُمتَلِئ بالضَّعف المتوحِّش. ضحكَ على فكرة أن البروفسور القعيد هو مُمَثِّلٌ شابٌّ يرتدي أزياءَ كما لو من أجل أضواء المسرح. لكنه شعر أنه كان ليضحك بنفس الصَّخَب على سقوط قنِّينة فُلفُلٍ.

احتسى البروفسور الزَّائِف بعضَ الجعَّة ومسح على لحيته الزائفة.

"هل كنتَ تعرف"، سأله، "أن جوجول كان واحدًا منَّا؟".

"أنا؟ لا، لم أعرف ذلك"، أجابه سايم مُتفاجِئًا بعض الشيء."لكن ألم تعلم أنتَ؟".

"لم أعلم بأكثر ممَّا يعلم الميِّت"، أجاب الرجل الذي يدعو نفسه دي وورمز. "أعتقد أن الرئيس كان يتحدَّث عني، وكنت أرتعش في حذائي".

"واعتقدتُ أنا أنه يتحدَّث عنِّي"، قال سايم، بضحكته المتهوِّرة بعض الشيء. "كانت يدي على زناد مُسدَّسي طوال الوقت".

"وكذلك أنا"، قال البروفسور مُتجهِّمًا؛ "وكذلك جوجول بالتأكيد".

ضرب سايم المائدة باندهاش.

"يا للعجب، كان هناك ثلاثة مِنَّا!"، صاح قائلًا. ثلاثة من سبعة رَقمٌ كبير. فقط لو علمنا أننا كُنَّا ثلاثة!".

أظلَمَ وَجهُ البروفسور دي وورمز، ولم ينظر لأعلى.

"كنَّا ثلاثة"، قال. "إذا كُنَّا ثلاثمائة فلم يكن باستطاعتنا فعل شيء أيضًا".

"لسنا إذا كُنَّا ثلاثمائة ضدَّ أربعة؟" سأله سايم، ساخِرًا بصوتٍ عالٍ بعض الشيء.

"لا"، قال البروفسور برصانة، "ولا حتَّى إذا كُنَّا ثلاثمائة ضدَّ الأَحَد".

وبمجرَّد ذِكر الاسم أُصيب سايم بالبرودة والتجهُّم؛ ماتت ضحكته في قلبه قبل أن تتمكَّن من الموت على شفتيه. انبثق وجه الرئيس الذي لا يمكن نسيانه في عقله مروِّعًا كصورة واضحة الألوان، وأدرك الفرق بين الأحد وكل أتباعه: أن وجوههم -مهما كانت شَرِسَةً أو شرِّيرة- سرعان ما تصبح مُشوَّشة بالذكرى كوجوهِ البشر الآخرين، بينما يبدو وجه الأحد وكأنه يزداد واقعيَّةً في غيابه، تمامًا كما تنبض البورتريهات المرسومة بالحياة.

طوال لحظات استغرق كلاهما في الصمت، ثم انطلقت كلمات سايم كاندفاعة رغوة الشمبانيا المفاجِئَة.

"يا بروفسور"، صاح قائلًا، "هذا غير مقبول. هل أنت خائِفٌ من هذا الرجل؟".

رفع البروفسور حاجبيه الكَثَّيْن، وحدَّق في سايم بعينين كبيرتين، زرقاوين، مفتوحتين على اتساعهما كتجسيد للبراءَة السَّماويَّة.

"نعم، أنا خائف"، قال بلُطفٍ. "وكذلك أنتَ".

لوَهلَةٍ كان سايم عاجزًا عن الكلام. ثم نهض واستقام، كرجل تعرَّض لإهانةٍ، وقذف بالمقعد بعيدًا.

"نعم"، قال بصوتٍ لا يوصَف، "أنت على حَقٍّ. أنا خائف منه. لذلك أُقسِمُ بالرَّبِّ أنني سأبحث عن هذا الرجل الذي أخشاه حتى

أجِـدَه، ثـم أضربـه عـلى فمـه. إذا كان عرشـه في السـماء وعـلى الأرض كرسـيُّه، فأُقسِـمُ أننـي سـأُنزِلُه مـن عليـه".

"كيف؟" سأله البروفسور مُحدِّقًا فيه. "لماذا؟".

"لأننـي خائِـفٌ منـه"، قـال سـايم؛ "ولا يجـدر بـأي رَجُـلٍ أن يـترك وراءه في الكـون أي شيء يخشـاه".

طـرفَ دي وورمـز بعينيـه بشـكلٍ مـن أشـكال التَّعجُّـب الأعمـى. بـذل جهـده للتحـدُّث، لكـن سـايم تابـع بصـوتٍ خفيـضٍ، لكـن بتيَّـارٍ خَفـيٍّ مـن الاسـتثارة غـير البشريـة:

"مَـن هـذا الـذي يتنـازل ويَصعَقُ تلـك الأشـياء التافهة التي لا يخشـاها؟ مَـن هـذا الـذي يُـذلُّ نفسـه حتـى يكـون شـجاعًا فحسـب، كأيِّ مُلاكِـمٍ عـاديٍّ مـن أجـل المـال؟ مَـنْ هـذا الـذي ينحنـي حتـى يكـون مِقدامًـا وشُـجاعًا- كشَـجَرةٍ؟ قاتِـل الـشيء الـذي تخشـاه. تتذكَّـر الحكايـة القديمـة عـن القـسِّ الإنجليـزي الـذي تـلا الطقـوس الأخـيرة عـلى قاطـع طريـق مـن صِقِليَّـة، وكيـف أن اللِّـصَّ العظيـم قـال وهـو عـلى فِـراش المـوت، "لا يمكننـي مَنحُـكَ مـالًا؛ لكـن بإمـكاني مَنْحُـكَ نصيحـةَ حيـاةٍ بأكملهـا: "إبهامـك عـلى النصـل، واضرب لأعـلى". وهكـذا أقـول، اضرِبْ لأعـلى، إذا أَرَدتَ أن تـضرب النجـوم".

تطلَّع الآخر إلى السقف، في واحِدَةٍ من وضعيَّات جلوسه الخادعة.

"الأحد نجمٌ ثابِتٌ إذن"، قال له.

"ستراه قريبًا نجمًا ساقِطًا"، قال له سايم، وارتدى قُبَّعَتَه.

دفَعَت حرَكَتُه هذه البروفسورَ للنُّهوض على نحوٍ غامِضٍ.

"هـل لديـكَ أيُّ فِكـرَةٍ"، سـأله، بنـوعٍ مـن الذهـول الخَـيِّر، "إلى أيـن أنـتَ ذاهِـبٌ بالضَّبـط؟".

"نعم"، أجابه سايم باختصار. "سأذهب للحيلولة دون إلقاءِ تلك القنبلة في باريس".

"هل لديكَ أيُّ تَصوُّرٍ بشأن ذلك؟"، سأله الآخَر.

"لا"، قال سايم بحَسمٍ مُماثِل.

"تتذكَّر، بالطبع"، استأنف المدعو دي وورمز حديثَه، جاذِبًا لحيته ومُتَطلِّعًا إلى خارج النافذة، "أنه عندما انفضَّ الاجتماعُ على عجالة أصبحت ترتيبات المذبحة بأكملها في يَدِ الماركيز ودكتور بولْ. الماركيز ربما أصبح الآن في طريقه لعبور القناة. لكن أين سيذهب وماذا سيفعل، هذا مَحلُّ شَكٍّ كبير حتَّى وإن كان الرئيسُ يَعلَمُه؛ بالتأكيد لا نعلم نحن. الوحيد الذي يعرف حقًّا هو دكتور بولْ".

"اللعنة!" صاح سايم. "ولا نعلم أين هو".

"نعم"، قال الآخر بطريقَتِه الغامضة، المغيَّبة. "لكنني أعرف أين هو".

"وهل ستُخبِرُني؟"، سأله سايم بعينين توَّاقَتَيْن.

"سآخُذُكَ إلى هناك"، قال البروفسور، وأنزل قُبَّعَتَه من المشجب.

كان سايم يقف مُتطلِّعًا إليه في نوعٍ من الاستثارة المتخشِّبة.

"ماذا تعني؟"، سأله بحِدَّة. "هل ستُشرِكُني في المسألة؟ هل تتحمَّل المخاطرة؟".

"عزيزي الشاب"، قال البروفسور مُبتَهِجًا، "يُسعِدُني أن ألاحظ أنك تعتقد أنني جبانٌ. وعلى ذلك سأرُدُّ بكلمةٍ واحِدَة فقط، وستكون بالكامل بنفس طريقة بلاغَتِكَ الفلسفية. تعتقد أنه من الممكن إنزال الرئيس من عليائه. أعرف أن هذا مستحيل، لكنني سأحاول"، وفاتِحًا باب الحانة، الذي أدخل نفحةَ هواءٍ لاذِعَة، انطلَقَا معًا للخارج إلى الشَّوارع المظلِمَة بجوار رصيف الميناء.

كان معظم الجليد قد ذاب أو اختلط بالطِّين، لكن يمكن رؤية كُتَلٍ مُتخثِّرة منه مُتناثِرَة على هيئةٍ رماديَّةٍ وليس بيضاء في وسط الظلام. كانت الشوارع الصغيرة زَلِقَةً، تتناثَرُ فيها البِرَك التي تعكس المصابيح المتوهِّجة عشوائيًّا على غير انتظام، كشذراتٍ من عالَمٍ آخر ساقِط. كاد سايم يسقط فاقِدًا للوعي مع خروجه إلى هذا الخليط المتشوِّش المتوهِّج من الأنوار والظِّلال؛ لكن رفيقه خَطَا بنشاطٍ واثق إلى نهاية الشارع، حيث بدا النهر تحت ضوء مصابيح الشارع كشريطٍ من اللهب.

"إلى أين أنتَ ذاهِبٌ؟"، تساءل سايم.

"الآن"، أجابه البروفسور، "سأذهب إلى شارعٍ قريب من هنا لأرى ما إذا كان دكتور بولْ قد خَلَدَ إلى النوم. إنه يعتني بصحَّته ويؤوي إلى الفراش مبكِّرًا".

"دكتور بولْ!"، اندهش سايم. "هل يعيش قريبًا من هنا؟".

"لا"، أجاب صديقه. "في الحقيقة إنه يعيش على مَبعَدَةٍ بعض الشيء، على الجانب الآخر من النهر، لكن يمكننا من هنا معرفة ما إذا كان قد خَلَدَ إلى النوم أم لا".

منعطفًا حول زاوية الشارع أثناء تحدُّثه، ومُواجِهًا النهر الكابي ذا لُطَخِ اللهب، أشار بعصاه إلى الضفة الأخرى. من ناحية مُقاطَعة سارِّي في هذه النقطة، يمضي إلى داخل نهر التيمز، وكأنه يتدلَّى من فوقه، عنقودٌ من تلك الأبنية الطويلة، المرصَّعة بالنوافذ المضيئة، والمنتصبة كمداخِن المصانع إلى ارتفاعٍ مجنون. وضعها العجيب هذا جعل كُتلةً مُعيَّنة من المباني تبدو تمامًا وكأنها برج بابل بألف عَين. لم يكن سايم قد رأى أبدًا ناطِحاتِ السَّحاب في أمريكا، وبالتالي كان بإمكانه فقط التفكير فيها في الأحلام.

حتى مع تحديقه، فإن الضَّوءَ الأعلى في هذا البُرج المضاء بلا عَدَدٍ انقطع فجأةً، كما لو أن عملاق الآرجوس الأسود هذا قد غمز له بعَينٍ من الألف عَيْن.

تَمايَلَ البروفسور دي وورمز على عَقِبَيْه، وضرب بعصاه على حذائه الطويل.

"لقد تأخَّرنا كثيرًا"، قال، "الدكتور المهتَمُّ بصحَّتِه قد خلد إلى النوم".

"ماذا تقصد؟"، سأله سايم. "هل يعيش هناك على الضِّفَّة الأخرى إذن؟".

"نعم"، قال له دي وورمز، "وراء تلك النافذة بالتحديد التي لا يمكنك رؤيتها. لنَمضِ ونتناول عشاءنا. يجب أن نزوره صباح الغد".

بلا أيِّ مفاوضات أخرى، قاد البروفسور المسيرةَ عبر طُرُقٍ فرعيَّة كثيرة حتى وصلا إلى أنوار وصَخَبِ طريق رصيف شركة الهند الشرقية. تابع البروفسور، الذي يبدو وأنَّه يعرف الطريق جيِّدًا في هذه الناحية، سيره إلى مكان ارتدَّ فيه صفُّ المتاجر المضاءة إلى شكلٍ من أشكال الهدوء والغَبَشِ المفاجئ، كان فيه نُزُل أبيض قديم، وقد تمَّ ترميمه بالكامل، ينتصب على بُعد عشرين قدمًا تقريبًا من الطريق.

"يمكنك العثور على نُزُلٍ إنجليزية جيِّدة بالصُّدفَة في كل مكان، تمامًا كالحفريَّات"، أوضح البروفسور. "وجدتُ ذات مرَّةٍ مكانًا معقولًا في الطرف الغربي".

"أعتقد"، قال سايم، مبتسمًا، "أن هذا هو المكان المعقول الذي يُقابِلُه في الطرف الشرقي؟".

"هو كذلك"، قال البروفسور بوقارٍ، ومضى داخلًا.

في ذلك المكان تناوَلَا عشاءَهما واستغرقا في نومٍ هنيء. الفاصوليا ولحم الخنزير المقدَّد المطهو جيدًا على يد هؤلاء الناس الغامضين،

الظهور المدهش للبورجندي من أقبيَتِهم، كل ذلك تَوَّج حِسَّ سايم برُفقَةٍ وعزاء جديدَيْن. طوال هذه المحنة كان رُعبُه المتأصِّل يتمثَّل في العُزلَة، وبأيٍّ كلمات لا يمكن وصف الهُوَّة التي تفصل بين العُزلَة وبين أن يكون لديكَ حليف. ربما نُسلِّم للرياضيِّين بأن أربعة هي حاصل اثنين زائد اثنين. لكن في العزلة الشديدة فإن الصحبة لا تعني مجرد شخصين "اثنين" بل واحِدٌ مُكرَّرٌ ألفَيْ مرَّة. لذلك، رغم مساوئ الزَّواج الأحاديِّ العديدة، فإن العالم سيعود دائمًا إليه.

كان سايم قادِرًا للمرَّة الأولى على صَبِّ وسَرْدِ حكايته الفظيعة، من اللحظة التي أخذه فيها جريجوري إلى الحانة الصغيرة بجانب النَّهر. سردها بتكاسُلٍ وإسهاب، في مونولوج مُترَف، كرَجُلٍ يتحدَّث مع أصدقاء حميمين جدًّا. من جانبه أيضًا، فإن الرجل الذي كان قد انتحل شخصيَّةَ البروفسور دي وورمز، لم يكن أقلَّ تواصُلًا. كانت قِصَّته بنفس سَذاجة قصَّة سايم تقريبًا.

"كان هذا تَنكُّرًا جيِّدًا منكَ"، قال سايم، مُفرغًا كأسًا من نبيذ الماكون؛ "أفضل كثيرًا من تَنكُّر جوجول. حتى في البداية ظَنَنتُ أنه كتُّ الشَّعر على نحوٍ زائِدٍ قليلًا".

"اختلافٌ في النظرية الفَنِّيَّة"، أجابه البروفسور مُتأمِّلًا. "كان جوجول مِثاليًّا. اختلق مثالًا مجرَّدًا وأفلاطونيًّا من الفوضويِّين. لكنني واقعيٌّ. أنا رسَّام بورتريهات. لكن، في واقع الأمر، قَوْلي إنني رسَّامُ بورتريهات ليس تعبيرًا كافيًا. أنا بورتريه".

"لا أفهَمُكَ"، قال سايم.

"أنا بورتريه"، كرَّرَ البروفسور. "أنا بورتريه للبروفسور دي وورمز الشهير الذي يعيش -كما أعتقد- في نابولي".

"هل تعني أنك تشبهه جدًّا؟"، قال سايم. "لكن ألا يعلم هو أنك تتنكَّر في هيئته باستخفافٍ؟".

"إنه يعلم بذلك جيِّدًا"، أجاب صديقه مبتهجًا.

"إذن لماذا لا يستنكر ما تفعله؟".

"لقد استنكَرتُ أنا ما يفعله"، أجاب البروفسور.

"وضِّحْ أكثر"، قال سايم.

"بكل سرور، إذا لم تمانع أن تسمع قصَّتي"، أجابه الفيلسوف الأجنبي المرموق. "مهنتي مُمثِّل، واسمي ويلكس. عندما كنتُ أقف على خشبة المسرح كنتُ أختلط بكل أنواع البوهيميِّين والأوغاد. أُلامِسُ أحيانًا حافَّةَ تلك الطبقة، وأحيانًا حُثالة القوم، وكذلك اللاجئين السياسيين. في عرين ما للحالمين المنفيِّين تعرَّفتُ على الفيلسوف العَدَميِّ الألماني العظيم، البروفسور دي وورمز. لم أعرف عنه كثيرًا بخلاف مظهره، الذي كان مُقزِّزًا للغاية، والذي درسته بعناية. فَهِمتُ أنه نجح في إثبات أن المبدأ المدمِّر في الكون كان الرَّبَّ؛ وبالتالي أكَّد على الحاجة إلى طاقةٍ هائِجَةٍ ومستمرَّة، مُحوِّلَةً جميع الأشياء إلى شظايا. الطاقة، كان يقول، هي كل شيء. كان أعرجَ، قصيرَ النَّظر، ومشلولًا جزئيًّا. عندما قابَلتُه كان في مزاجٍ عابثٍ، وأثار مَقتي لدرجة أنني قرَّرتُ مُحاكاتَه. لو كنتُ رسَّامًا لرسمتُ له كاريكاتيرًا. لكنني مُمثِّلٌ فحسب، ليس باستطاعتي سوى أداء شخصيَّةٍ كاريكاتيرية. تنكَّرتُ فيما يبدو أنها مُبالَغَة وحشية للذات القديمة القَذِرَة للبروفسور العجوز. عندما دَلَفتُ إلى القاعة المكتظَّة بأنصاره توقَّعتُ أن أتلقَّى عاصِفَةً من الضحك، أو (إذا تمادَوا في الأمر كثيرًا) عاصفة من الامتعاض على الإهانة. لا يمكنني وصفُ المفاجأة التي شعرت بها عندما استقبلوا دخولي بصَمتٍ مَهيب، أعقَبَته (عندما فتحتُ شفتي لأول مرة) هَمهماتٌ بالإعجاب. لعنة الفنان الكامل قد سقَطَت عليَّ. كنتُ بارعًا جدًّا، وصادقًا جدًّا. اعتقدوا أنني كنتُ حقًّا البروفسور العَدَميَّ العظيم. كنتُ شابًّا سليم العقل حينها، وأعترف أن المسألة كانت صادِمَةً. قبل أن أتعافى بالكامل، رغم ذلك،

هـرع اثنـان أو ثلاثـة مـن هـؤلاء المعجبـين إليَّ يُشـعُّ منهـم الامتعـاض، وأخـبروني أن إهانـةً عـلى الملأ قـد أُطلِقَـت ضـدِّي في القاعـة المجـاورة. سـألتهم عـن طبيعتهـا. يبـدو أن زميـلًا وقحًـا قـد تنكَّـر عـلى شـاكلتي بمُحـاكاةٍ سـاخِرَة مُثيرَةٍ للضحـك. كنـت قـد احتسـيتُ شـمبانيا بأكـثر مـن الـلازم، وفي ومضـة حماقـةٍ قَـرَّرتُ الانطـلاق ومعرفـة الموقـف. لكـن أمـام حملقـات الفرقـة المسرحيـة وحاجِبـيَّ المرفوعَـيْن وعينـيَّ المتجمِّدَتَـيْن كان أن دَلَـفَ البروفسـور الحقيقـي إلى الغرفـة.

"لا داعـي للقَـول إن صِدامًـا قـد حـدث. كلُّ المتشـائمين مـن حـولي نظـروا بترقُّـبٍ مـن بروفسـور إلى الآخـر لمعرفـة مَـن هـو الأكـثر ضَعفًـا حقًـا. لكنَّنـي ربحـتُ! رجـل عجـوز بصِحَّـةٍ ضعيفـة، كمنافسـي، لا يمكـن أن يكـون ضعيفًـا عـلى نحـوٍ مُؤثِّـر كـما هـو الحـال في مُمثِّـل في قِمَّـة حياتـه. بالطَّبـع، كان يعـاني مـن شَـلَلٍ حقيقـي، ويعمـل ضمـن هـذا القيـد المحـدَّد، لكـن لم يكـن بمقـدوره أن يكـون مشـلولًا يُثـير المـرح كـما كنـت. بعدهـا، حـاوَلَ نَسـفَ مَزاعِمـي مـن الناحيـة الفكريـة. واجَهـتُ ذلـك بخدعـةٍ بسـيطة جـدًّا. متـى حـاول قـولَ شيء مـا لا يفهمـه أحـدٌ غـيره، أُجِبْـه بـشيء مـا لا أفهمـه أنـا نفسي. "لا أتخيَّـل"، قـال حينهـا، "أن بإمكانِـكَ اسـتنباط المبـدأ القائـل بـأن التطـوُّر هـو النفـي الوحيـد؛ ففيـه تكمـن ثَغـرَةٌ، وهـي مسـألة جوهريـة للمُفاضَلـة". فأجيبـه أنـا باحتقـارٍ شـديد، "بالتأكيـد قـرأتَ كُلَّ ذلـك لـدى بينكفيرتـز؛ أن فكـرة الالتفـاف للداخـل التـي تعمـل بشـكلٍ يوچينـي مُحسِّـن للنسـل قـد كُشِـفَت منـذ زمـن طويـل عـلى يـد جلامـب". لا حاجـة لي للقـول أنـه لم يوجـد أبـدًا أنـاسٌ باسـم بينكفيرتـز وجلامـب. لكـن كل الحاضريـن (لدهشـتي في الحقيقـة) بَـدَوا وأنهـم يتذكَّرونهـما جيِّـدًا، والبروفسـور، بعـد اكتشـافه أن الطريقـة المثقَّفـة والغامضـة قـد تَرَكَتـه بالأحـرى تحـت رحمـة عَـدوٍّ ضعيـف الضمـير والشـكوك، قـد تراجَـعَ إلى أسـلوب مـن السـخرية أكـثر رَوَاجًـا. "أرى..."، قـال سـاخرًا، "أنـك سـتفوز كالخنزيـر الـكاذب في حكايـات إيسـوب". "وأنـت ستفشـل..."،

أَجَبتُه مبتسمًا، "كالقنفذ في حكايات مونتايجن". هل لا بُدَّ أن أقول إنه لا توجد قَنافِذُ في حكايات مونتايجن؟ "ها هو هُراؤكَ يتساقط"، قال لي؛ "وكذلك لِحيَتُكَ" لم تكن لديَّ إجابة ذكيَّة على قوله هذا، الذي كان صحيحًا وحاذقًا في الحقيقة. لكنني ضحكتُ ملءَ قلبي وأَجَبتُه، "كأحذية القائل بوحدة الوجود" كيفما اتَّفق، واستَدرتُ على عَقِبَيَّ بكل مَفاخِر الانتصار. طُرِح البروفسور الحقيقي أرضًا، لكن ليس بعُنفٍ، رغم أن أحد الحاضرين حاول بصبرٍ شديد انتزاعَ أنفه. يستقبلونه الآن، أعتقد، في كل مكان في أوروبا كمُدَّعٍ يثير البهجة. حماسه الظاهر وغضبه، كما ترى، جعلاه مُثيرًا أكثر للتسلية".

"حسنًا"، قال سايم، "بإمكاني إدراكُ أنَّكَ تضع لحيته العجوز القَذِرَة كمَزحَةٍ مسائية بحتَةٍ، لكنني لا أفهم لماذا لا تنزعها أبدًا ثانيةً".

"هنا تأتي بقيَّةُ القصة"، قال المدَّعي. "بعد أن غادرتُ الفرقة المسرحية، بعد أن نلتُ المديح والتبجيل، انطلقتُ بعرَجٍ على طول الشارع المظلِم، على أمل أنني سأبتعد بما يكفي للسَّير كإنسانٍ عاديٍّ ثانيةً. لدهشتي، عند استدارتي حول زاوية الشارع، شعرتُ بلمسة على كتفي، ومستديرًا، وجدتُ نفسي قابِعًا تحت ظِلِّ شُرطيٍّ هائل الحجم. أخبرني أنَّني مطلوب. اتَّخذتُ وضعًا يوحي الشَّلل، وصِحتُ بلكنَةٍ ألمانية مُدوِّية، "نعم، أنا مطلوب- من أجل مُضطهَدي العالَم. تُلقي القبضَ عليَّ بتهمة كوَني الفوضويَّ الأعظم، البروفسور دي وورمز". في يد الشرطي كانت ورقة نظر إليها بلا حراك، "لا يا سيدي"، قال بتهذيب، "ليس تمامًا على الأقل، يا سيدي. بل ألقي القبض عليكَ بتُهمَةِ أَنَّك لستَ الفوضويَّ المعروف، البروفسور دي وورمز". هذه التهمة، إن كانت مُجرَّمة في المقام الأول، كانت أقَلَّ الضَّرَرَيْن، وانطلقتُ مع الرجل، تقتلني الشكوك، لكن لست يائسًا تمامًا. أدخلوني إلى عَدَدٍ من الغرف، وفي النهاية إلى غرفة يجلس فيها شرطي آخر، شرح لي أن حملةً بالِغَة الأهمِّيَّة قد بدأت ضدَّ مراكز الفوضوية، وأن هذا، تنكُّري

المتقَـن، قـد يكـون ذا فائـدةٍ كبـيرة للأمـن العـام. عـرض عـليَّ راتبًـا جيِّـدًا وهـذه البطاقـة الزرقـاء الصغـيرة. رغـم أن حديثنـا كان قصـيرًا، إلا أننـي تبيَّنـتُ أنـه كان رَجُـلًا ذا إدراكٍ سـليمٍ وروح سُـخرية هائِلَـيْن؛ لكـن ليـس باسـتطاعتي أن أُخـبِرَكَ بالكثـير عـن شـخصه، بسـبب...".

وضع سايم السِّكِّيَن والشوكة على المائدة.

"أعرف"، قال له، "لأنك تحدَّثتَ إليه في غُرفَةٍ مُظلِمَة".

أومأ البروفسور دي وورمز برأسه وأفرغ كأسه في جوفه.

الفصل التاسع

الرَّجُلُ ذو العُوَيْناتِ

"البورجندي شيءٌ يبعث على البهجة"، قال البروفسور بحُزنٍ وهو يُنزِلُ كأسَه.

"لا يبدو أنه يُبهِجُكَ"، قال له سايم؛ "تحتسيه وكأنه دواء".

"عليكَ أن تعذر طريقتي"، قال البروفسور بكآبة، "وضعي عجيب بعض الشيء. من الداخل أنفجر حقًّا بمرح صبيانيٍّ؛ لكنني انغمست في تقمُّص دور البروفسور المشلول حتَّى لم أعد قادرًا على الخروج منه؛ لذلك عندما أكون بين أصدقائي، ولا أحتاج بأي بشكل إلى التَّنكُّر، أعجز رغم ذلك عن منع نفسي من التحدُّث ببطءٍ وتجعيد جبيني- كما لو كان جبيني فعلًا. بإمكاني أن أكون سعيدًا حقًّا، لكن فقط بطريقة مشلولة نوعًا ما. أكثر الاندهاشات بهجةً تتقافز في قلبي، لكنها تخرج من فمي على نحوٍ مختلف تمامًا. قد تسمعني أقول،

"ابتهِجْ أيُّها الزعيم العجوز!" لكنها كلمات، في الحقيقة، ستجلب الدموع إلى عينيك".

"نعم، ستفعل حقًّا"، قال له سايم؛ "لكن لا يَسَعُني سوى التفكير أنك، بعيدًا عن ذلك، مهمومٌ قليلًا".

جَفَلَ البروفسور قليلًا ونظر إليه بثَباتٍ.

"أنت حاذِقٌ جدًّا يا صديقي"، "يُبهِجُني العمل معكَ. نعم، أنا مُغتمٌّ قليلًا في عقلي. أمامي مشكلة عويصَةٌ عليَّ مُواجَهَتُها"؛ ثم أغرق جبينه الأصلع بين يديه.

ثم قال بصوت خفيض:

"هل يُمكِنُكَ العزفُ على البيانو؟".

"نعم"، قال سايم باندهاش خفيفة، "يفترض أنني أتمتَّع بلمسة بارعة".

ثم أضاف، بينما صمتَ الآخر:

"أثق أن سحابةَ الغَمِّ قد تلاشَت".

بعد صمتٍ طويل، قال البروفسور من بين ظِلِّ الكهف في يديه:

"تمامًا كما لو أنَّ بإمكانِكَ العمل على آلة كاتبة".

أشكرك على الإطراء"، قال له سايم.

"أنْصِتْ إليَّ"، قال الآخر، "وتذكَّر الشخص الذي يتوجَّب علينا رؤيته غدًا. أنا وأنت سننطلق غدًا في محاولة لإنجاز شيء أكثر خطورةً بكثير من محاولة سرقة مجوهرات التاج من برج لندن. سنسعى إلى سرقة سرٍّ ما من رجُلٍ بارِعٍ جدًّا، قوي جدًّا، وخبيثٍ جدًّا. أظنُّ أنه لا يوجد رجل بهذه المواصفات، باستثناء الرئيس بالطبع، مثير للفزع والرعب جدًّا كما ذلك الرجل العابس الضئيل ذي العوينات.

لا يتمتع ربما بالحماس المتوهِّج للموت، والاستشهاد المجنون في سبيل الفوضويَّة، الذي يُميِّز السكرتير. مع ذلك، فإن ذلك التعصُّبَ في السكرتير ينطوي على شَفَقَةٍ بشرية وما يشبه الانعتاقَ من الخطيئة. لكن هذا الدكتور الضئيل يتمتَّع بتعقُّل وحشيٍّ أكثر إثارةً للاشمئزاز من مرض السكرتير. ألم تلاحظ حيويَّته وفحولته البغيضة. إنه يتقافز ككُرَةٍ من المطَّاط الهندي. بسبب هذا، لم يَكُن الأحدُ نائمًا (أتساءل إن كان ينام أبدًا؟) عندما وضع كلَّ مُخطَّطات هذا الهجوم في رأس دكتور بولْ المستدير الأسود".

"وفي رأيك"، قال له سايم، "فإن هذا الوحش الفريد من نوعه سيهدأ عندما أعزف البيانو له؟".

"لا تكن أحمقَ"، قال مُرشِدُه. "لقد ذكرتُ البيانو لأنه يمنح المرءَ أصابِعَ سريعةً وحُرَّة. سايم، إذا كان لنا أن نمضي عبر هذا اللقاء ونخرج منه عاقِلين أو أحياء، فعلينا أن نضع شفرةً ما من الإشارات بيننا لا يراها ذلك الوحش. لقد وضعت ما يشبه الشَّفرة الأبجدية المتطابِقة على الأصابع الخمس- مثلًا، انظر، "ثم نَقَرَ بأصابعه على المائدة الخشبية: س ي ئ، سيِّئ، كلمة قد نحتاجها كثيرًا".

صبَّ سايم لنفسه كوبًا آخر من النبيذ وبدأ في دراسة الخُطَّة. كان سريعًا على نحوٍ غير طبيعيٍّ عبر عقله في حلِّ الألغاز، وعبر يديه في ألعاب الخِفَّة، ولم يستغرق الأمرُ منه كثيرًا لتعلُّم كيف يمكنه إرسال رسائل بسيطة تبدو كنَقراتٍ لا معنى لها على المائدة أو الركبتين. لكنَّ النبيذ والصحبة طالما كان لهما تأثيرٌ مُلهِمٌ عليه إلى حَدِّ الإبداع الهَزليِّ، وسرعان ما وجد البروفسور نفسَه يصارع مع الاستراتيجية المتَّسِعَة للغاية لِلُّغَة الجديدة، مع مرورها عبر العقل الثائر لسايم.

"علينا وضع عدَّة إشارات بالكلمات..."، قال سايم بجدِّية- "الكلمات التي قد نحتاجها، ظلالٌ طفيفة من المعنى. كلمتي المفضلة هي (القرين). ماذا عنكَ؟".

"توقَّفْ عن التَّصرُّف بحماقة..."، قال البروفسور بنبرةٍ حزينة. "أنت لا تُدرِكُ مدى خطورة الأمر".

"كلمة (الخصيب) أيضًا..."، قال سايم، هازًّا رأسه بحِكمَةٍ، "علينا أن نستخدم كلمة (الخصيب) -والتي تعني أيضًا: (الشهواني)- مع العُشب، أليس كذلك؟".

"هل تتخيَّل..."، سأله البروفسور بغضب، "أننا سنذهب للتحدُّث مع دكتور بول عن العُشب؟".

"لدينا العديد من الطُّرُق يمكن من خلالها تناول المسألة"، قال سايم متأمِّلًا، "وإدخال الكلمة من غير أن تبدو مُصطَنَعة. علينا أن نقول مثلًا، "دكتور بول، بصفتك ثوريًّا، تتذكَّر أن طاغيةً قد نصحنا ذات مرة بأكل العشب؛ وبالفعل فإن كثيرين منَّا، مُتطلِّعين إلى عُشب الصيف الخصيب النَّضِر... """.

"هل تدرك"، قال الآخر، "أن كل هذا مأساة؟".

"تمامًا"، أجابه سايم؛ "كُنْ هازِلًا دائمًا في المآسي. ماذا بإمكانك أن تفعل غير ذلك بحَقِّ الشيطان؟ أتمنَّى أن تحظى لُغَتُكَ بمدًى أكثر اتِّساعًا. أفترض أنه ليس بإمكاننا توسيعها من أصابع اليدين إلى أصابع القدمين؟ سينطوي هذا على نزع أحذيتنا وجواربنا أثناء الحديث، الذي ينبغي أن ينساب رغم ذلك بلا توقُّف...".

"سايم"، قال صديقه ببساطة عابسة، "اخلُدْ إلى النَّوم!".

جلس سايم، رغم ذلك، مُعتَدِلًا في فِراشه لوقت طويل يفكِّر في الشفرة الجديدة لحَدِّ الإتقان. استيقظ في الصباح التالي قبل انجلاء

الظلام بالكامل عن الشرق، ووجد حليفه ذي اللحية الرمادية جالسًا كشبحٍ بجوار فِراشه.

اعتدل سايم في فِراشِه بعينين نصف مفتوحتين؛ وببطء استجمع شتاتَ أفكاره، وطرح غطاء الفراش، ثم نهض واقفًا. بدا له بطريقة عجيبة ما أن كلَّ الشعور بالأمان والمؤانَسة التي انتابه في الليلة الماضية قد تساقَط مع تَساقُط غطاء الفِراش عنه، واستمرَّ في وقوفه يُحيط به جوٌّ من الغضب البارد. كان ما زال يشعر بولاءٍ وثِقَةٍ كاملة تجاه صاحبه؛ لكنها كانت الثِّقَةَ بين رَجُلَيْن يرتقيان سُلَّم المشنقة.

"حسنًا"، قال سايم بابتهاجٍ مُصطنَعٍ أثناء ارتدائه سرواله، "حلمتُ بأبجديَّتِك. هل استغرقَت منكَ وقتًا طويلًا لوضعها؟".

لم يُجِبه البروفسور، لكنه حدَّق بعينين بلون بحر الشتاء؛ بالتالي كرَّر سايم سؤالَه.

"أقول، هل استغرق منكَ الأمر وقتًا طويلًا لاختراع كلِّ هذا؟ يعتبرونني بارعًا في هذه المسائل، لكنِّي عاجِزٌ هذه المرَّةَ. هل تعلَّمتَ كُلَّ هذا في الحال؟".

كان البروفسور صامِتًا؛ عيناه على اتساعهما، وعلى وجهه بدت ابتسامَةٌ ثابتة، ولكنها صغيرة جدًّا.

"كم استغرق منكَ الأمرُ؟".

لم يتحرَّك البروفسور.

"اللعنة، أَلَا يُمكِنُكَ الإجابة؟" صاح سايم، في نوبَةِ غَضبٍ مُفاجِئَة تُخفي وراءها شيئًا ما يشبه الخوف. ما إذا كان البروفسور قادرًا على الإجابة، هذا لم يستطع تَبيُّنه.

كان سايم واقفًا مُحدِّقًا بدوره في الوجه المتصلِّب كالخشب والعينين الخاويتين الزرقاوين. في البداية اعتقد أن البروفسور قد أصيب بالجنون،

لكنَّ فِكرَتَه الثانية كانت أكثرَ فظاعةً. أيًّا كان الأمر، ما الذي يعرفه حقًّا عن هذا المخلوق الغريب الذي قَبِلَه بلا اكتراثٍ كصديق؟ ما الذي يعرفه، باستثناء أن الرجل كان على إفطار الفوضويِّين وأنه أخبره بحكايةٍ لا تُصدَّق؟ كم كان مُستَبعَدًا أن يوجد صديقٌ آخر على الإفطار بخلاف جوجول؟ هل كان صمت هذا الرجل مجرَّدَ طريقة شاعرية لإعلان الحرب؟ هل كانت هذه التَّحديقة المتحجِّرة مجرَّدَ سُخريَةٍ مُريعَةٍ لخائنٍ ثالوثيٍّ، بعد أن انقلب للمرَّة الأخيرة؟ كان يقف هناك عاصِرًا أذنيه في هذا الصمت عديم الشَّفَقة. تخيَّل أنه يمكنه تقريبًا سماعُ مُفجِّري الديناميت يأتون لأَسْرِه يتسلَّلون بخفوتٍ في الممر الخارجي.

ثم شَرَدَت عيناه لأسفل، وانفجر في الضحك. فرغم أن البروفسور استمرَّ في وقوفه صامتًا كتمثال، إلَّا أن أصابعه الخمس الخرقاء كانت ترقص بحيويَّةٍ على المائدة الميِّتة. راقب سايم الحركات الرَّشيقة لليد الناطقة، وقرأ الرسالة بوضوح:

"لن أتحدَّث إلَّا بهذه الطريقة. عليكَ أن تعتادها ".

أطلق الإجابة بنَفادِ صَبرٍ يشي بالارتياح.

"حسنًا. لننطلق من أجل الإفطار".

تناوَلَا قُبَّعتيْهما وعَصَوَيْهما في صمتٍ؛ لكن سايم تناوَلَ عصاه السَّيفيَّة، وأمسكها بقوَّة.

توقَّفا لبضع دقائق فحسب لتناوُلِ القهوة وشطائِرَ من خُبزٍ خَشِن سميك في كشكٍ للقهوة، ثم اتَّخذا طريقهما عبر جسر على النهر، الذي بدا من تحت الأضواء الرمادية والمتنامية، خَرِبًا وخاويًا كنهر "أخيرون" في العالم السُّفليِّ. وَصَلا إلى أسفل كتلة المباني الهائلة التي كانا قد رأياها عبر النهر، وبدآ في صمتٍ في ارتقاء الأحجار الحجرية العارية التي لا تنتهي، مُتوقِّفَيْن فقط بين حين وآخر لإبداء ملاحظات قصيرة

على حاجز الدرابزين. بين كل وطابق وآخر تقريبًا كانا يمُرَّان بنافذة؛ وكل نافذة تُظهِرُ لهما فجرًا شاحبًا ومأساويًّا يرتفع بمشقَّةٍ في سماء لندن. ومنها كانت الأسقف التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى من صخر الأردواز تبدو كأمواجٍ رصاصيَّةٍ كابِيَةٍ لبحر رمادي هائِجٍ تحت المطر. كان سايم واعيًا على نحوٍ مُتزايِدٍ بأن مُغامَرَتَه الجديدة هذه اتَّخذَت بشكلٍ ما صِفَةَ التَّعقُّل البارد بشكلٍ أسوأ من المغامرات الجامحة السابقة. في الليلة الفائتة -مثلًا- بَدَت له المساكن العالية كبُرجٍ في حلم. لكنه الآن في صعوده للدرجات المرهِقَة والأبديَّة، راوَدَه شعور الذُّعر والارتباك من تَسَلسُلِها اللانهائي. لكن الأمر لم يكن الرُّعبَ المتوهِّجَ لحلمٍ أو لأيِّ شيء قد يكون مُبالَغَةً أو وهمًا. كانت لا نهائِيَّتها كاللانهائيَّة الخاوية لشيء ما حسابيٍّ، لا يُصدَّق، ومع ذلك ضروري للتفكير. أو أن الأمر كان كالإفادات المذهِلَة لعلم الفَلَكِ عن بُعد النجوم الثابتة. كان يصعد بيت العقل، وهو شيء أكثر شناعةً من الجنون نفسه.

عندما وصَلَا إلى طابق دكتور بولْ، أظهَرَت لهم النافذة الأخيرة فجرًا أبيضَ قاسيًا محصورًا بين حوافَّ سحابَةٍ خَشِنَة حمراء، بلون الطِّين الأحمر بالأحرى. وعندما دَلَفَا إلى عِلِّيَّة دكتور بولْ العارية، وجداها غارِقَةً في الضوء.

كان سايم قد انتابته ذكرى قديمةٌ غائبةٌ ذاتُ صِلَةٍ بهذه الحجرات الخاوية وذلك الفجر المتقشِّف. في اللحظة التي رأى فيها العلِّيَّة ودكتور بولْ جالسًا يكتب على منضدة، تذكَّر ما كانته الذكرى: الثورة الفرنسية. لا بُدَّ أن فيها كانت المقصَلَة بحوافِّها السوداء أمام الأحمر والأبيض الثقيلَيْن للصباح. كان دكتور بولْ يرتدي قميصه الأبيض وبنطلونه الأسود فحسب؛ وبرأسه الدَّاكنة، الحليقة، وقد نزع عنها

الباروكة لتوِّه، بدا وكأنه "مارا" أو بالأحرى "روبسبيار" لكن بثيابٍ أكثرَ رثاثةً[1].

مع ذلك، عندما نظر إليه بتمعُّن، تلاشى الخيال الفرنسي بعيدًا. كان اليعاقِبَة مثاليِّين؛ لكن هذا الرجل كان مُستَغرِقًا في مادِّيَّة قاتِلَة. منحه وضعه في الجلوس مظهرًا جديدًا بعض الشيء. الضوء الأبيض القوي للصباح القادم من ناحيته كان يخلق ظلالًا حادَّةً، تجعله أكثر شحوبًا وخشونةً ممَّا بَدَا عليه على الإفطار في الشُّرفة. ولذلك فإن العوينات السوداء التي تحيط بعينيه قد تكون في الحقيقة تجاويفَ سوداء في جُمجمَتِه، جاعلةً إيَّاه يبدو كرأس الموت. وفي واقع الأمر، إذا كان للموت أبدًا أن يجلس للكتابة على منضدة خشبية، فقد يكون هو دكتور بولْ.

تطلَّع إلى أعلى وابتسم بإشراقٍ عندما دخل الرَّجُلان، ونهض بالسُّرعَة المرِنَة التي كان البروفسور قد حدَّث سايم عنها. أحضر لهما مقعَدَيْن، وخَطَا إلى مشجَبٍ وراء الباب، وارتدى من عليه معطَفًا وصديريَّةً من نسيجٍ صوفيٍّ خَشِن داكِن؛ زَرَّرَهما بإحكامٍ، وخطا عائدًا للجلوس على منضدَتِه.

ترك اللُّطفُ الهادئ الذي بدا في طريقته خَصمَيْه عاجزين. بصعوبة لحظيَّةٍ ما تمكَّنَ البروفسور من كسر الصمت وبدأ قائلًا، "آسف على إزعاجك في هذا الوقت المبكِّر يا رفيق"، قال له، واستأنف بحذَرٍ الأسلوبَ المتباطئ المعروف عن دي وورمز. "بالتأكيد أتممتَ كُلَّ الترتيبات اللازمة لمسألة باريس؟" ثم أضاف ببطء لا مُتناهٍ، "لدينا معلومات لا يمكن تأخيرها ولو للحظة واحدة".

---

(1) "چان بول مارا" و"ماكسميليان روبسبيار" من أهم مُفكِّري وقادَة الثورة الفرنسية الأكثر راديكاليَّةً وتَعطُّشًا للدِّماء- (المترجم)

ابتسم دكتور بولْ ثانيةً، لكنه استمرَّ في التحديق فيهما بصمت. تابع البروفسور قوله، مع التوقُّف لبرهة قبل كل كلمة مرهقة:

"أرجو ألَّا تَظُنَّ أنني فظٌّ بقولي هذا؛ لكنني أنصَحُكَ بتبديل تلك الخطط، أو إذا فات أوان ذلك، أن تمضي في خُطَطِكَ لكن بكل الدَّعم اللازم. الرفيق سايم وأنا مَرَرنا بتجربة لا وقت لدينا لسرد تفاصيلها؛ لذلك من الأفضل أن نعمل بموجبها على الفور. رغم ذلك، سأحكي الحادثة بالتفصيل، حتى مع مُخاطرة ضياع الوقت، إذا شعرتَ حقًّا أنها ذات أهمية جوهريَّة لفهم المشكلة التي أمامنا".

كان يتعثَّر في كلماته؛ ممَّا جعلها جُمَلًا مُتراخِيَةً وطويلةً بشكل لا يُصدَّق، على أمل إصابة الدكتور الضئيل ذي المزاج العَمَليِّ بالجنون حتى ينفجر من نَفادِ الصبر وهو ما قد يدفعه للكشف عن نواياه. لكن الدكتور الضئيل استمرَّ في التَّحديق والابتسام فحَسب، وأصبح المونولوج جهدًا شاقًّا. بدأ سايم في الشعور بسقَم ويأس جديدَيْن. لم تكن ابتسامة الدكتور وصمته على الإطلاق كالتحديقة المتحجِّرة والصَّمت المريع اللَّذَيْن رآهما في البروفسور منذ نصف ساعَةٍ لا غير، بل كانت ابتسامةً عجيبةً وكأنها ابتسامَةُ دُميَةٍ سوداءَ. تذكَّر سايم المِحَنَ التي مرَّ بها بالأمس كما يتذكَّر المرء خوفه من الغول في طفولته. لكن هنا كان النهار مُضيئًا؛ هنا كان رَجُلًا عريضَ الكتفين، يتمتَّع بالصحة في معطفه الصُّوفيِّ الخَشِن، لا شيء شاذ سوى مسألة عويناته القبيحة، لا غضب ولا تقطيبات على الإطلاق، بل ابتسامات ثابتة بلا أي كلمة. كان المشهد بأكمله يخلق شعورًا بحقيقة لا تحتمل. تحت ضوء الشمس المتزايد كانت ألوان بشرة الدكتور، وتقاسيم معطَفِه الصوفي، تزداد وتتوسَّع بتوحُّشٍ، تمامًا كما تزداد أهمِّيَّتها كثيرًا في الروايات الواقعية. لكنَّ ابتسامته كانت واهيةً للغاية، ووَضْعَ رأسه وقورًا؛ الشيء الوحيد المدهش كان صَمتَه.

"كما قلت"، تابع البروفسور حديثه، كرجل يمضي بمشقَّةٍ وجهد عبر الرمال الثقيلة، "فإن الحادثة التي وقعت لنا وقادتنا للبحث عن معلوماتٍ بشأن الماركيز، هي حادثةٌ قد تظنُّ أنه من الأفضل أن أروي أنا وقائعها؛ لكن بما أنها جاءت من خلال الرفيق سايم وليس من خلالي...".

بدا وكأنه يجرُّ كلماته جرًّا ككلمات في نشيد وطني؛ لكن سايم، المنغمس في المراقبة، رأى أصابعه الطويلة تهتزُّ بسُرعَةٍ على حافَّة المنضدة المجنونة. قرأ الرسالة، "عليك أن تستمرَّ. هذا الشيطان جفَّف الدماء في عروقي!".

غطسَ سايم داخلًا إلى الثغرة بشجاعة الارتجال الذي دائمًا ما يهرَعُ إلى نجدته عند الخطر.

"نعم، ذلك الأمر حدث لي حقًّا"، قال بعَجَلَةٍ. "كان من حُسن حَظِّي أن أنخرط في محادثة مع محقِّقٍ سِرِّيٍّ رأى فيَّ -بسبب قُبَّعتي- رَجُلًا محترَمًا. وساعِيًا لإثبات شُهرَةِ الاحترام هذه، أخَذتُه وجَعَلتُه يحتسي الشَّرابَ حتى الثُّمالة في ساقوي. تحت هذا التأثير أصبح ودودًا، وأخبرني بكلمات كثيرة أنهم يأملون في القبض على الماركيز في باريس في غضون يومٍ أو يومَيْنْ؛ لذلك ما لم تتمكَّن أنتَ أو أنا من تَعَقُّبه...".

كان الدكتور ما زال مُبتَسِمًا بأكثر الطرق حميميَّةً، وعيناه المحميَّتان ما زالتا غير قابِلَتَيْنْ للاختراق. بعث البروفسور بإشارَةٍ إلى سايم بأن عليه أن يتوقَّف ليتابع هو تفسيره؛ ولذلك عاد إلى التحدُّث ثانيةً بنفس الهدوء المدروس.

"على الفور جلب سايم هذه المعلومات إليَّ، وأتينا هنا معًا لمعرفة إن كنت راغِبًا في الاستفادة منها. يبدو لي من الملحِّ بلا جدالٍ أن...".

طوال هذا الوقت كان سايم يُحَدِّق في الدكتور، تقريبًا بنفس ثبات تحديقَةِ الدكتور في البروفسور، لكن دون الابتسامة بالتأكيد. كانت

أعصاب رفيقي السلاح على وشك الانكسار تحت وطأة تلك المودَّة الجامدة، وعندما انحنى سايم فجأةً للأمام، ونقر بتراخٍ على حافَّة المنضدة. كانت رسالته لحليفه تقول: "لديَّ حَدسٌ!".

أجابه البروفسور، متوقِّفًا بالكاد عن مونولوجه، "ابحَثْ فيه إذن".

أبرق سايم كالتلِّغراف، "إنه أمر استثنائي جدًّا".

أجابه الآخر، "عَفَنٌ استثنائيٌّ تَقصدُ!".

قال سايم، "أنا شاعِر".

ردَّ عليه الآخر بحسم، "أنت رجلٌ ميِّت".

كان سايم قد احمَرَّ حتى شعره الأصفر، وغَدَت عيناه تحترقان باهتياج. والحَدْسُ الذي قال إنه يراوده، أضحى الآن شكلًا من أشكال اليقين الضعيف. استأنف نَقراتِه الرمزية، وأرسل إشاراته إلى صديقه، "لن تدرك بالضبط مدى شِعريَّة حَدْسي. إنه يتَّسِم بتلك الصفة المفاجئة التي نشعر بها أحيانًا عند مَقدِم الربيع".

ثم تأمَّل الإجابة في أصابع صديقه. كانت الإجابة، "اذهب إلى الجحيم!".

وحينها استأنف البروفسور مونولوجه المتكوِّنَ من كلماتٍ مُنفَرِدَة لا غير، مُتوجِّهًا بحديثه إلى الدكتور.

"ربَّما ينبغي أن أقول"، قال سايم على أصابعه، "إنه يشبه رائحة البحر المفاجئة تلك التي قد تُصادِفُنا في قلب غابة خصيبةٍ".

ترفَّع رفيقُه عن الإجابة.

"بل إنه"، نقر سايم، "مُؤكَّدٌ وحَتميٌّ، كشَبَقِ الشَّعر الأحمر لامرأةٍ جميلة".

مكتبة
t.me/t_pdf

كان البروفسور مُستمرًّا في حديثه، لكن في منتصفه قرَّر سايم التَّصرُّف. انحنى عبر المنضدة، وقال بصوتٍ لا يمكن تَجاهُلُه:

"دكتور بولْ!".

لم يتحرَّك رأس الدكتور الأملس المبتسم، لكن كان بإمكانهما القَسَمُ على أنه تحت عُوَيناتِه الداكنة وَثَبَت عيناه بنظرَةٍ حادَّةٍ في اتجاه سايم.

"دكتور بولْ"، قال سايم، بصوتٍ واضح ودَمِث على نحوٍ عجيب، "هلَّا أسديتَ لي معروفًا صغيرًا؟ هل لكَ أن تتلطَّف وتنزع عُوَيناتِك؟".

استدار البروفسور في مقعده، وحملق في سايم بشكلٍ من أشكال الدَّهشَة الغاضبة المتجمِّدة. مال، سايم -كرَجُلٍ ألقى لتوِّه بحياته وقَدَرِه على المنضدة-إلى الأمام بوجهٍ مهتاج. لكن الدكتور لم يتحرَّك.

لبضعة ثوانٍ تَفشَّى بينهم صمتٌ كان يمكن فيه سماع صوت سقوط إبرة، انقطع فجأةً بنَعيبِ سفينة بخاريَّة نائية في التيمز. وحينها نهض دكتور بولْ، مُبتَسِمًا ما زال، وانتزع عُوَيناتِه.

قفز سايم ناهضًا، وتراجع لخُطواتٍ، وكأنه كيميائيٌّ أمام انفجارٍ ناجح. كانت عيناه مُتوهِّجَتَيْن كالنُّجوم، ولوَهلَةٍ كان بإمكانه الإشارة فقط بلا قُدرَةٍ على الحديث.

كان البروفسور قد نهض أيضًا، ناسيًا شَلَلَه المزعوم. انحنى على ظَهرِ مقعَدِه وحَملَقَ بشكٍّ في الدكتور، كما لو أن الدكتور قد تَحوَّل إلى ضفدَعٍ أمام عينَيْه. وبالفعل كان ما حدث لا يَقِلُّ عن مشهد انمساخٍ كامِلٍ.

رأى المحقِّقان السِّرِّيَّان جالسًا على الكرسي أمامهما شابًّا ذا منظرٍ صبيانيٍّ جدًّا، بعينَيْن سعيدَتَيْن، رائقتين جدًّا بلون البندق، وتعبيراتِ وجهٍ واضحة، وملابس مُبتَذَلَة كملابس موظَّف بلديَّة، تحيطه هالَةٌ لا

جدال فيها بأنه رَجُلٌ صالِحٌ وعادي بعض الشيء. كانت الابتسامة ما تزال على وَجهِه، وكأنها الابتسامة الأولى لرضيع.

"كنتُ أعرف أنني شاعر"، صاح سايم بما يشبه الانتشاء. "كنتُ أعرف أن حَدسي معصومٌ من الخطأ تمامًا كالبابا. العُوَينات هي مَن خلَقَته! إنها العوينات ولا شيء آخر. وبهاتَيْن العينين السوداوين البهيميَّتَيْن، وكل شيء آخر فيه: صِحَّته ونظراته المبتهجة؛ فإنه شيطان حيٌّ بين الشياطين الموتى".

"بالتأكيد فإن كل هذا يخلق فارقًا عجيبًا"، قال البروفسور مُرتَجِفًا. "لكن بشأن مشروع دكتور بولْ...".

"اللعنة على المشروع!"، زَمجَرَ سايم، بغضب. "انظر إليه! إلى وجهه، انظر إلى ياقَتِه، انظر إلى حذائه الطويل المبارك! أنت لا تظنُّ، بالطبع، أن هذا الشيء واحد من الفوضويِّين؟".

"سايم!"، صاح الآخر بألَمٍ عُصابيٍّ.

"لماذا، يا إلهي"، قال سايم، "سأتحمَّل مُخاطَرَة ذلك بنفسي! دكتور بولْ، أنا ضابِط شُرطَةٍ. ها هي بطاقتي"، وطوَّح بالبطاقة الزرقاء على المنضدة.

كان البروفسور ما زال يخشى أن يضيع كُلَّ شيء؛ لكنه كان مُخلِصًا. سحب بطاقته الشُّرَطيَّة ووضعها بجوار بطاقة صديقه. ثم انفجر الرَّجُلُ الثالث في الضحك، وللمرَّة الأولى في ذلك الصباح سَمِعَا صوته.

"يسعدني إلى أبعد حَدٍّ أنكما يا صديقاي جئتُمَا مُبكِّرًا جدًّا"، قال، بما يشبه وَقاحَةَ طالِبٍ في مدرسة، "لأن بإمكاننا أن نتوجَّه معًا إلى فرنسا. نعم، أنا عضوٌ في القوة صاحِبَةِ الحَقِّ"، وألقى ناحيتهما ببطاقة زرقاء بخفَّةٍ شديدة كإجراءٍ شَكليٍّ.

مُعتَمِـرًا قُبَّعَـةً خفيفـة عـلى رأسـه، ومسـتعيدًا عُوَيناتِـه العفريتيـة، خطـا الدكتـور مُسرِعًـا نحـو البـاب، وتَبِعَـه الآخـران غريزيًّـا. بـدا سـايم غـيرَ مُنتَبِـهٍ قليـلًا، وأثنـاء مـروره عـبر البـاب ضرب فجـأةً بعصـاه عـلى الممـرِّ الحجـري مُحْدِثًـا رنينًـا.

"لكـن، يـا إلهـي"، صـاح قائـلًا، "إذا كان كل هـذا صحيحًـا، فهنـاك مُحقِّقـان سِرِّيَّـان ملاعـين أكـثر مـن مُفجِّـري الديناميـت الملاعـين في ذلـك المجلـس اللعـين!".

"كان لنا أن نُقاتِلَهم بسهولة"، قال بولْ؛ "كُنَّا أربعةً ضِدَّ ثلاثة".

كان البروفسـور يهبـط عـلى الـدَّرَج، لكـنَّ صوتَـه جـاء صادِحًـا مـن الأسـفل.

"لا"، قـال الصـوت، "لم نكـن أربعـةً ضِـدَّ ثلاثـة- لم نكـن محظوظـين بهـذا الشـكل. كُنَّـا أربعـة ضـدَّ الواحـد".

استمرَّ الآخران في هبوطهما بصَمتٍ.

أصرَّ الشـابُّ المدعـو بـولْ -بتهذيـبٍ بـريء مُميَّـز لـه- عـلى أن يكـون آخِـرَ مَـن يصـل إلى الشـارع؛ لكـنَّ سُرعَتَـه النشـيطة أكَّـدَت نفسـها بـلا وعـي، وخَطَـا بسرعـةٍ نحـو مكتـبِ اسـتعلامات السِّكَك الحديديـة، مُتحدِّثًـا إلى الآخَرَيْـن مسـتديرًا برأسـه.

"مـن المبهـج أن يكـون لـدى المـرء أصدقـاء"، أوشَـكَت عـلى المـوت مـن التَّوتُّـر، كـوني وحيـدًا تمامًـا. أوشـكتُ عـلى أن أطـوِّح بذراعـي حـول جوجـول واحتضانـه، وهـو تـصرُّف طائـش بالتأكيـد. آمـل ألَّا تحتقـروني بسـبب خـوفي الأزرق".

"كُلُّ الشـياطين الزرقـاء في الجحيـم الأزرق"، تابـع سـايم، "كانـت سـببًا في خـوفي الأزرق! لكـن أسـوأ الشـياطين كانـت أنـت وعويناتـك الجهنَّميَّـة".

ضحك الشاب مبتهجًا.

"ألم تكن ذلك مَزحَةً باليةً؟" قال. "تلك الفكرة البسيطة ليست فكرتي. لا أتمتَّع بالذكاء اللازم. لم أرغب سوى في الالتحاق بخدمة المحقِّقين السِّرِّيِّين، لمكافحة مُفجِّري الديناميت بالتحديد. لكن بسبب ذلك أرادوا شخصًا ما قادرًا على التَّنكُّر كمفجِّر ديناميت؛ وأقسموا جميعًا بالجحيم أنني لن أبدو أبدًا كمفجِّر ديناميت. قالوا إن مِشيَتي تَبعَثُ على الاحترام، وأنني أبدو، عند النَّظر لي من الخلف، كالدُّستور البريطاني. قالوا إنني أبدو متمتِّعًا بصحتي جدًّا ومُتفائل جدًّا؛ وخَيِّر وجدير بالثقة على نحو أكثر من اللازم؛ نعتوني بكل أنواع الأسماء في سكوتلاند يارد. قالوا إنني لو كنتُ مُجرِمًا، فقد أجني ثروةً من مظهري كرَجُلٍ نزيه فحسب؛ لكن بما أن سوء الحظِّ جعلني رجلًا نزيهًا بالفعل؛ لم تظهر أدنى فرصة أو احتمال على أن أكون قادرًا على مساعدتهم عبر تنكُّري كمجرم. لكن في النهاية جاؤوا بي أمام عجوزٍ أحمق كان يشغل مرتبةً عاليةً في قوة الشرطة، بَدَت رأسه بلا نهاية على كتفيه. وهناك تحدَّث الجميع بيأس. سأل أحدهم ما إذا كان من الممكن إخفاء ابتسامتي اللطيفة بلِحيَةٍ كثَّة؛ وقال آخر إنهم إذا صبغوا وجهي بالسواد فقد أبدو كفوضويٍّ زِنجيٍّ؛ لكن هذا الرَّجُل العجوز جاء بأكثر الملاحظات استثنائيَّةً. "عُوينات مُعتِمَة ستفي بالأمر"، قال بيقين. "انظروا إليه الآن؛ يبدو كساعي مكتبٍ ملائكي. ألْبِسوه عُوَيناتٍ مُعتِمَةً وسيصرخ الأطفال عند مرآه". وهذا ما حدث، أُقسِم بالقدِّيس چورچ! فور أن احتجَبَت عيناي، فإن كل ما تبقَّى -الابتسامة والكتفين العريضين والشَّعر القصير- جعلني كشيطانٍ صغير حقيقيٍّ. كما قُلتُ، كان الأمر بسيطًا جدًّا، تمامًا كالمعجزات؛ لكنَّ التَّنكُّر لم يكن الجزءَ الإعجازيَّ الحقيقي في المسألة. ظهر أمرٌ مُذهِلٌ ما، ما زال رأسي يترنَّح بسببه".

"ماذا كان؟" سأله سايم.

"سأخبرك"، أجابه الرجل ذو العُوَينات. "هذا القِدْر الكبير في الشرطة الذي أخذ قياساتي حتى يعرف كيف ستبدو العُوَينات مع شَعري وجواربي- يا إلهي، لم يَرَني على الإطلاق!".

وَمَضَت عينا سايم فجأةً تجاهَه.

"كيف ذلك؟"، سأله. "ظَنَنتُ أنَّكَ تحدَّثتَ إليه".

"لقد فَعَلتُ"، قال بولْ بإشراق؛ "لكننا تحدَّثنا في غُرفَةٍ حالكة الظلام كمنجم فَحمٍ. هناك، لم أكن أبدًا لأخمِّن ما يحدث".

"ليس بإمكاني تَصوُّره"، قال سايم مُتهيِّبًا.

"إنها فكرة جديدة حقًّا"، قال البروفسور.

كان حليفهم الجديد كالعاصفة في المسائل العملية. في مكتب الاستعلامات سأل بإيجاز عمليٍّ عن القطارات إلى دوفر. بعد حصوله على المعلومات، جمع الرُّفقَةَ في عربة أُجرَة، ثم وضعهم ووضعَ نفسه داخل عربة قطار قبل أن يدركوا حقيقة العملية الدائرة مُنقَطِعَة الأنفاس. وقبل أن ينسابَ الحديثُ بينهم، كانوا قد استقلُّوا القارب المتَّجِه إلى كاليه.

"كنتُ قد رتَّبتُ كُلَّ شيء بالفعل"، شرح لهم قائلًا، "من أجل الذهاب إلى فرنسا لتناول غدائي؛ لكن يُبهِجُني أن يصحَبَني أحدهم في تناوُلِ الغَداء معي. كما ترون، كنتُ مُضطرًّا لإرسال ذلك الوحش، الماركيز، مع قنبلته؛ لأن الرئيس كان يقتلني بنظراته المتشَكِّكَة، والرَّبُّ وحده يعلم كيف. سأخبركم بالقصة يومًا ما. كان الأمر خانِقًا بشدَّة. ومتى حاوَلتُ الهروب أرى الرئيس في مكان، يبتسم من وراء نافذةٍ بارِزَةٍ لملهًى ما، أو ينزع قُبَّعته لتحيَّتي من داخل حافلة رُكَّاب. قولوا ما تشاؤون، لكن ذلك الرجل باع نفسه للشيطان؛ بإمكانه أن يوجد في ستة أماكن في نفس الوقت".

"لكنَّكَ أرسلت الماركيز بدلًا منك"، سأله البروفسور. "منذ وقتٍ طويل كما أرى؟ هل ما زال بإمكاننا اللحاق به والقبض عليه؟".

"نعم"، أجاب المرشِدُ الجديد، "لقد وَضَعتُ توقيتَ كُلِّ شيء. سيكون ما يزال في كاليه عندما نَصِل".

"لكن عندما نمسك به في كاليه"، قال البروفسور، "ماذا سنفعل به؟".

عند هذا السؤال تداعت ملامِحُ دكتور بول للمرَّة الأولى. فكَّر قليلًا، ثم قال:

"نظريًّا، أعتقد أن علينا طَلَبَ الشرطة".

"لستُ أنا"، قال سايم". "نظريًّا عليَّ أن أغرق نفسي أولًا. فقد عاهَدتُ صديقًا بائِسًا -كان تشاؤُميًّا حداثيًّا حقًّا- بِشَرفي على عدم إخبار الشرطة. يمكنني التحايُلُ على ضميري، لكن ليس نقض كلمتي مع متشائم حداثي. إن الأمر كنَقض الوَعدِ مع طفل".

"أنا في نفس القارب"، قال البروفسور. "حاولتُ إخبار الشرطة ولم أستطع، بسبب قسَمٍ سخيفٍ ما أخذته على نفسي. عندما كنتُ مُمثِّلًا كنتُ كالوحش في كل شيء. لكن حنثُ اليمين أو الخيانة هي الجريمة الوحيدة التي لم أرتكبها. إذا فعَلتُها فلن أعرف الفَرقَ بين الصواب والخطأ".

"لقد فكَّرتُ في كل هذا"، قال دكتور بولْ، "واتَّخذتُ قراري. مَنَحتُ عهدي للسكرتير- تعرفونه، الرجل ذو الابتسامات المقلوبة. أصدقائي، ذلك الرجل هو أكثر إنسان تعيس من بين البشر. قد يكون الأمر طريقة هضمه، أو ضميره، أو أعصابه، أو فلسفته عن الكون، لكنه مُصابٌ باللعنة وقابِعٌ في الجحيم. حسنًا، لا يمكنني تسليم واقتناص

رَجُلٍ كهذا. سيكون الأمر كجِلدٍ مُصابٍ بالجُذَام. قد أكون مجنونًا، لكن هكذا أشعر بالأمر؛ وهكذا سينتهي حتمًا".

"لا أظُنُّ أنكَ مجنون"، قال سايم. "أدرَكتُ أنك ستُقرِّر هذا عندما قمتَ لأول مرة...".

"أها؟"، قال دكتور بولْ.

"عندما انتزعت عُوَيناتِك لأول مرة".

ابتسم دكتور بولْ قليلًا، وخطا مُتمهِّلًا على سطح القارب للنظر إلى البحر الغارق في ضوء الشمس. ثم خطا راجعًا، راكلًا عَقِبَيه بلا مبالاة، وبعدها هبط صمتٌ لطيفٌ بين الرجال الثلاثة.

"حسنًا"، قال سايم، "يبدو أننا نتشارك ثلاثتنا في نفس الأخلاقية أو اللا أخلاقية؛ لذلك من الأفضل أن نتعامل مع الحقيقة المتأتِّية عن ذلك".

"نعم"، أكَّد البروفسور، "أنت على حَقٍّ تمامًا؛ وعلينا أن نسرع؛ لأن بإمكاني أن أرى لسان (جري- ني) بارزًا من شاطئ فرنسا".

"الحقيقة المتأتِّية عن ذلك"، قال سايم بجدِّيَّة، "هي أننا الثلاثة وحيدون على هذا الكوكب. جوجول قد رحل. يعلم الله إلى أين؛ ربما سحقه الرئيسُ كذُبابَةٍ. في المجلس كُنَّا ثلاثة رجال ضدَّ ثلاثة، كالرومان الذين دافعوا عن الجسر[1]. لَكِنَّا أسوأ حالاً منهم؛ أولاً لأنه كان بإمكانهم أن يلجؤوا إلى تنظيمهم بينما نعجز نحن عن اللجوء إلى منظَّمتنا، وثانيًا لأن...".

---

(1) يقصد جسر "Pons Sublicius"، أقدَمَ جسرٍ معروف في الإمبراطورية الرومانية، والاستبسال في الدِّفاع عنه على يَدِ هوراتيوس كوكليز ورفاقه ضدَّ جيوش الكلوسيوم الغازية في القرن السادس قبل الميلاد- (المترجم)

"لأن واحدًا من الثلاثة رجال الآخرين هؤلاء"، قال البروفسور، "ليس إنسانًا".

أومأ سايم واستغرق في صمتٍ لثانية أو ثانيَتَيْن، ثم قال:

"فكرتي كالتالي. علينا أن نفعل شيئًا ما لنُبقِيَ على الماركيز في كاليه حتى منتصف ظهيرة الغد. أدرتُ أكثر من عشرين خُطَّة في رأسي. لا يمكننا الإبلاغ عنه كمُفَجِّر ديناميت؛ هذا أمرٌ مُنتهٍ. لا يمكننا اعتقاله على خلفية تهمة تافِهَةٍ ما؛ لأنه حينها سنضطرُّ للظهور؛ وهو يعرفنا، وسيشتَمُّ رائحة الوُشاة. لا يمكننا التظاهر بالإبقاء عليه في أعمال الفوضوية؛ قد يبتلع الكثيرين بتلك الطريقة، لكن الحال ليس كهذا مع فكرة التوقُّف في كاليه حتى يمرَّ القيصر بسلامٍ عبر باريس. ربما نحاول اختطافه، واحتجازه بأنفسنا؛ لكنه رجلٌ معروف هنا. يتمتَّع بحراسة كاملة من أصدقائه؛ كما أنه قويٌّ وشجاع جدًّا؛ والحدث مُثيرٌ للشُّكوك. الشيء الوحيد الذي أرى إمكانية فعله هو الاستفادة من نفس الأشياء التي تقع في صالح الماركيز. سأستفيد من حقيقة أنه نبيلٌ يتمتَّع باحترامٍ كبير. سأستفيد من حقيقة أنه لديه العديد من الأصدقاء والصِّلات في مُجتَمَعِ الصَّفوَة".

"عَمَّاذا تتحدَّث بحَقِّ الشيطان؟"، سأله البروفسور.

"ذُكِرَت سُلالة آل سايم أوَّلَ ما ذُكِرَت في القرن الرابع عشر"، قال سايم؛ "لكن الحكايات المرويَّة تقول إن واحدًا منهم امتطى خَيلَه وراء بروس في بانوكبيرن. منذ العام 1350 كانت شجرة العائلة واضحة جدًّا".

"لقد فقد عَقلَه"، قال الدكتور الضئيل، مُحَملِقًا.

"كانت راياتنا المرفوعة"، تابع سايم بهدوء، "وشعارها "أشرِطَة من الفضَّة تحمل ثلاثة صلبان متداخِلَة" مع اختلاف الكلمات التي تَحمِلُها".

أمسك البروفسور بتلابيب سايم بعُنفٍ من معطفه.

"بالكاد ابتعدنا عن الساحل"، قال له. "هل أصابَكَ دوارُ البَحرِ أم أنَّكَ تَهذِرُ في المكان الخاطئ؟".

"ملاحظاتي عَمَليَّة على نحوٍ مُؤلِم تقريبًا"، أجابه سايم، بطريقةٍ غير مُتعجِّلة. "إن سلالة سان إيوستاش قديمة جدًّا. ليس بوسع الماركيز إنكارُ أنه واحِدٌ من النُّبَلاء. لا يمكنه إنكارُ أنَّني واحد من النُّبلاء. وحتى نضع مسألة وضعي الاجتماعي بعيدًا عن أيَّة شكوك، أقترح أن نُمسِكَ به في أقرب فرصةٍ. لكننا ما زلنا في الميناء".

انطلقوا على الشاطئ تحت الشمس الحارقة فيما يشبه الإغماءة. قادهم سايم، الذي احتلَّ الآن موضع الزَّعامة الذي احتلَّه بولْ في لندن؛ عبر مَسيرةِ استعراضٍ بَحريَّة حتى وصل بهم إلى مجموعة من المقاهي، تُظَلِّلها كُتلَةٌ هائلة من الخُضرَة وتُطِلُّ على البحر. في سَيرِه أمامهما كانت خطواته مُتمايِلَةً بعض الشيء، مُطَوِّحًا بعصاه وكأنها سَيفٌ. كان من الواضح أنه يتَّجِه إلى الطرف الأقصى من صَفِّ المقاهي، لكنه توقَّف بَغتَةً. بإيماءة حادَّةٍ طالَبَهم بالصَّمت، ثم أشار بإصبعٍ واحدة من يده ذات القُفَّاز إلى منضدة مقهى تحت ضفَّةٍ من أوراق الأشجار المزهِرَة عليها كان يجلس الماركيز دي سان إيوستاش، أسنانه تلتمع في لِحيَتِه السَّوداء الكثيفة، ووجهه الأسمر الشجاع مُظلَّلٌ بقُبَّعة قَشٍّ صفراء فاتحة، وحواف هيئته مُحدَّدة على خلفية البحر البنفسجي.

الفصل العاشر

المبارَزَة

جلس سايم على منضدة في المقهى مع رفاقه، عيناه الزرقاوان تُشِعَّان كالبحر المتلألئ من تحته، ثم طلب قِنِّينَةً من نبيذ الساومور بلهفَةٍ مُبتَهِجَة. كان لسببٍ ما في حالة من الانتشاء العجيب. مِزاجُه عالٍ على نحوٍ غير طبيعي؛ يرتفع مع هبوط الساومور، وفي نصف ساعة كان حديثه سَيلًا من الهُراء. أفصح لهما أنه بصَدَدِ خُطَّةٍ لخلق حديث سينبثق بينه وبين الماركيز المميت. كان يُدوِّنه بجنون مستخدمًا قلمًا من الرَّصاص. وأصبحت الخُطَّة على شكل تعاليمَ دينيَّةٍ مكتوبة بأسئلة وإجابات، وبكلمات متسارِعَة قدَّمها لهما.

"سأقترب منه. وقبل أن ينزع قُبَّعته، سأنزع قُبَّعتي. سأقول "الماركيز دي سان إيوستاش على ما أعتقد؟". وسيقول "السيد سايم

المعروف على ما أظنُّ؟". ثم سيقول بفرنسيَّةٍ بديعةٍ، "كيف حالُكَ؟"، ثم سأجيبه بلَهجَة كوكني أكثر إتقانًا: "أوه، سايم فحسب..."".

"أوه، توقَّف"، قال الرجل ذو العُوَينات. "تمالَكْ نفسك، وألقِ بتلك القصاصة بعيدًا. ماذا ستفعل حقًّا؟".

"لكنها تعاليمُ دينيَّةٌ رائعة"، قال سايم على نحوٍ مُثير للشفقة. "اسمَحْ لي بأن أقرأها عليك. فهي تضمُّ ثلاثة وأربعين سؤالًا وإجابةً فقط، وبعض إجابات الماركيز ذكيَّة على نحوٍ مُدهِش. أحب أن أكون منصفًا مع أعدائي".

"لكن ما الفائدة من كل هذا؟"، سأله دكتور بولْ مغتاظًا.

"أن ينتهي الأمر إلى مواجهتي، ألَا ترى"، قال سايم، بإشراق. "عندما يقدِّم الماركيز الإجابة التاسعة والثلاثين، التي تقول...".

"هل خطر على بالِكَ بأيِّ شكل"، سأله البروفسور، ببساطَةٍ تأمُّليَّة، "أن الماركيز قد لا يقول أيًّا من الأشياء الثلاثة والأربعين التي وضَعتَها له؟ في هذه الحالة -كما أفهم- ستبدو الحِكَم الساخرة التي وضَعتَها مُصطَنَعةً بشكلٍ ما".

ضرب سايم المنضدة بوجهٍ مُتألِّق.

"يا للعجب، كم أن هذا حقيقيٌّ"، قال سايم، "لم أُفكِّر في هذا أبدًا. سيدي، ذكاؤُكَ يتجاوز العادِيَّ. يومًا ستصنع اسمًا".

"أوه، أنتَ سكرانُ مثل بومَةٍ!"، قال الدكتور.

"يبقى فقط"، تابع سايم رابِطَ الجَأش تمامًا، "أن نَصِلَ لطريقةٍ ما لإذابة الجليد (إذا كان لي أن أَصِفَ الأَمرَ بذلك) بيني وبين الرجل الذي أنتوي قَتلَه. وحيث أنه لا يمكن التنبؤ بمسار الحوار من قِبَل أحد طَرَفَيْه بمُفرَدِه (كما أشرتَ بتلك الفَراسة العميقة)؛ فإن الشيء الوحيد الذي يمكن فِعلُه، في رأيي، هو أن يقوم طرفٌ واحد، إلى أقصى

حدٍّ مُمكِنٍ، بالحوار بأكمله بنفسه. وهذا ما سأفعله، بحقِّ القِدِّيس چورچ!"، ثم نهض بغتةً، وشَعرُه الأصفر يَتطايَرُ بفِعلِ نَسيم البَحر الرَّقيق.

كانت فرقةٌ موسيقيَّةٌ تعزف موسيقاها في مقهًى صاخِبٍ يختفي في مكانٍ ما بين الأشجار، وامرأة كانت قد توقَّفَت عن الغناء لتوِّها. في رأس سايم الملتَهِب كان خَبطُ فرقة الآلات النَّحاسيَّة يبدو كارتجاجِ وقَعقَعَةِ ذلك الأرغن اليَدويِّ في ميدان ليستر، الذي على أنغامه انتظر الموتَ ذاتَ مرَّةٍ. تطلَّع عبر المنضدة الصغيرة إلى حيث يجلس الماركيز. كان الرَّجلُ قد أضحى لديه رفيقان الآن، فرنسيَّان وَقوران بمعاطِفَ من الفرو، وقُبَّعاتٍ حريريَّة، أحدهما يُعلِّق الوردة الحمراء لوسام جوقَةِ الشرف الفرنسية، رجلان من وضع اجتماعيٍّ راسِخٍ كما يبدو. بجانب هذه الأزياء السوداء الاسطوانيَّة، بدا الماركيز -في قُبَّعَتِه المتراخية من القَشِّ وملابسه الربيعية الخفيفة- كبوهيميٍّ وحتى كبَربَرِيٍّ؛ لكنَّه بدا كماركيز. بل قد يقول المرء إنَّه يبدو كملك، بأُبَّهته الحيوانية، وعينيه الساخرتين، ورأسه المزهوِّ المرتفع على خلفيَّة البحر الأرجوانيِّ. لكنه لم يكن ملكًا مسيحيًّا، بأي شكل، كان -بالأحرى- طاغِيَةً داكِنَ البشرة، نِصفَ إغريقيٍّ، نِصفَ آسيويٍّ، كان، في الأيام التي بَدَت فيها العبوديَّةُ أمرًا طبيعيًّا، يتطلَّع من عَلٍ إلى البحر المتوسط، إلى سُفُنِه الشِّراعيَّة وإلى عبيده الغارقين في الأنين. هكذا بالضَّبط، فكَّر سايم، سيبدو الوجهُ الذَّهبيُّ الأسمر لذلك الطَّاغية على خلفيَّة أشجار الزيتون الخضراء الداكنة والأزرق المحتَرِق.

"هل ستذهب للتعامُل مع مسألة اللقاء؟"، سأله البروفسور مُغتاظًا، بعد أن رأى أن سايم ما زال يقف في مكانه بلا حراكٍ.

أفرغ سايم آخر كأس من النبيذ الفائِرِ.

"نعم، أجابه، مشيرًا إلى الماركيز ورفاقه، "ذلك اللقاء. ذلك اللقاء سيُصيبني بالتَّعاسة. سأذهب لِشدِّ الأنف القبيح الهائل خمريِّ اللون لذلك الاجتماع".

خطا عَبرَهم بسُرعَةٍ، وبثَباتٍ كامل. أحنى الماركيز -بعد أن رآه- حاجِبَيه الآشوريِّين الأسودين بدَهشَةٍ، لكنه ابتسم بتأدُّب.

"أنت السيد سايم، على ما أعتقد"، قال له.

انحنى سايم.

"وأنت الماركيز دي سان إيوستاش"، قال له بلُطفٍ. "اسمح لي أن أجذب أنفَكَ".

انحنى للقيام بذلك، لكن الماركيز جَفلَ متراجِعًا، هازًّا مقعده، ثم أمسك الرَّجُلان ذوا القُبَّعتين العاليتين بسايم من كتفيه.

"لقد أهانني هذا الرجل!"، قال سايم، بإيماءات تفسيريَّةٍ.

"أَهانَكَ؟"، صاح الچنتلمان ذو الوردة الحمراء، "متى؟".

"أوه، الآن لتوِّه"، قال سايم بتهوُّرٍ. "لقد أهان أُمِّي".

"أهان أُمَّكَ!"، صاح الچنتلمان مُرتابًا.

"حسنًا، أيًّا كان الأمر"، قال سايم، مُتنازلًا قليلًا، "لقد أهان عَمَّتي".

"لكن كيف يمكن أن للماركيز قد أهان عَمَّتَكَ لتوِّه الآن؟" قال الچنتلمان الثاني بتعجُّبٍ منطقيٍّ. "كان جالسًا هنا طوال الوقت".

"أها، هذا ما يقوله!" قال سايم بغموضٍ.

"لم أَقُل شيئًا على الإطلاق"، قال الماركيز، "باستثناء أمرٍ ما بشأن الفرقة الموسيقيَّة. لم أَقُل سوى إنني أحِبُّ أن يُعزَف فاجنر جيِّدًا".

"كان ذلك تلميحًا إلى أسرتي"، قال سايم بثباتٍ. "فعمَّتي كانت تعزف قاجنر على نحوٍ سيِّئ. كانت مسألةً مُؤلِمَةً جدًّا. دائمًا ما نتعرَّض للإهانة بسببها".

"يبدو هذا عجيبًا جدًّا"، قال الچنتلمان المتأنِّق، وهو ينظر إلى الماركيز بتشكُّك.

"أوه، أُؤكِّد لك"، قال سايم بجدِّيَّة، "مُحادَثتُكم بأكملها كانت مُحمَّلَةً بتلميحاتٍ واضحة لنقاط ضَعفِ عَمَّتي".

"هذا هُراء!"، قال الچنتلمان الثاني. "عن نفسي لم أَقُل شيئًا لنصف ساعةٍ باستثناء إعجابي بغناء تلك الفتاة ذات الشَّعر الأسود".

"حسنًا، هذا تلميحٌ آخر!"، قال سايم بسخطٍ. "كان شَعر عَمَّتي أحمرَ اللَّون".

"يبدو لي"، قال الآخر،"أنَّكَ ببساطةٍ تبحث عن ذريعةٍ لإهانة الماركيز".

"بحَقِّ القِدِّيس چورچ!"، قال سايم، مستديرًا ومُتطلِّعًا إليه، "يا لَكَ من صَبيٍّ ذكيٍّ!".

جَفلَ الماركيز بعينين ملتَهِبَتَيْن كعينَيْ نَمِرٍ.

"تَنشُدُ عِراكًا معي!" صاح قائلًا. "تبحث عن مُشادَّةٍ معي! يا إلهي! أبدًا لم يوجد رجلٌ مُضطرٌّ للبحث عنها طويلًا. هؤلاء السادة ربما يقومون بالأمر من أجلي. لكن ما زالَت هناك أربع ساعات من ضوء النهار. دعونا نتعارك هذا المساء".

انحنى سايم بأناقة بديعة جدًّا.

"أيُّها الماركيز"، قال له، "إن أفعالك جديرةٌ بالمجد والدِّماء. اسمح لي بالتشاوُرِ لوَهلَةٍ مع السَّادة الذين سأضع نفسي بين أيديهم".

بثلاثِ خطوات طويلة انضمَّ إلى رفيقَيْه اللَّذَيْن، بعد أن رَأَوا هجومَه تحت تأثير الشمبانيا وأنصتوا إلى تفسيراته البلهاء، جَفلَوا تمامًا من رؤيته؛ الآن وقد عاد إليهما فائقًا من أَثَرِ السُّكْر، شاحبًا قليلًا، مُتحدِّثًا إليهم بصوتٍ خفيضٍ ذي طابعٍ عَمليٍّ حماسيٍّ.

"لقد أتممت الأمر"، قال لهم بصوتٍ مبحوح. "نجحتُ في عقد عراكٍ مع الوحش. لكن انظروا وأنصِتوا بعنايَةٍ. لا يوجد وقتٌ للحديث. أنتما مُساعِداي، وكل شيء يجب أن يأتي منكما. الآن عليكما أن تُصِرَّا، على نحو قاطِعٍ، على أن ينطلق النزال غدًا بعد السابعة؛ من أجل منحي الفرصة لمنعه من اللحاق بقطار الساعة 7.45 المتَّجِه إلى باريس. إذا فاته ذلك القطار فسيُفوِّت الجريمة. لن يرفض لقاءَكما في حيِّزٍ قَصيرٍ كهذا من الزمان والمكان. لكن إليكما ما سيفعله. سيختار ميدانًا في مكان ما بالقرب من محطَّةٍ على جانب الطريق؛ حتى يمكنه استقلال القطار. إنه مُبارِزٌ بارِعٌ جدًّا، وبالتالي فإنه على ثِقَةٍ بقتلي في الوقت اللازم حتى يلحق بالقطار. لكن بإمكاني المبارزة أيضًا، وأعتقد أن بإمكاني إبقاؤه مشغولًا بالنِّزال بأي شكلٍ حتى يُفوِّت القطار. وحينها ربما يقتلني لمنح مشاعره العَزاء. هل تفهمان قَصدي؟ حسنًا جدًّا إذن، دعوني أقدِّمكما لحفنَةٍ من أصدقائي الرائعين"، ثم قادهم بسرعة عبر الاستعراض العسكري، وقدَّمهما إلى مساعِدَيْ الماركيز باسِمَيْن أرستقراطيَّيْن جدًّا لم يسمعا به من قبل.

كان سايم عُرضةً لنوبات من الإدراك العجيب، الدخيل على شخصيَّته الطبيعية. كانت هذه النوبات (كما كان الحال مع اندفاعته بشأن العُوَيناتِ) تتَّخذ أشكالًا من الحَدْس الشاعري، ترتقي أحيانًا إلى مستوى النبوءات المفرِطَة.

توقَّع بِدقَّةٍ استراتيجية غريمه في النزال. وعندما أُبلِغَ الماركيز من قِبَل مساعديه أن سايم لن يتعارك إلَّا في الصباح، فلا بُدَّ أنه أدرَكَ على

الفور العَقبَةَ التي قامت فجأةً بينه وبين مسألة إلقائه للقُنبُلة في العاصمة. بالطبع لم يتمكَّن من تفسير هذا الاعتراض لأصدقائه؛ لذلك اختار المسار الذي تنبَّأ به سايم. أوعز إلى مساعديه بالاتفاق على مرجٍ صغير لا يَبعُدُ كثيرًا عن خَطِّ السكة الحديدية، وكان على يقينٍ بالنهاية المميتة في الاشتباك الأول.

عندما جاء هابِطًا بهدوء إلى ميدان الشرف، لم يكن من الممكن تخمين أنه يعاني من أي قلق بشأن أي رحلة: يداه في جيبه، وقُبَّعتُه من القَشِّ على ظهر رأسه، ووجهه المليح النحاسيُّ يَسطَعُ في الشمس. لكن الغرباء قد يرون أنه من العجيب أن يظهر في إثره، ليس مساعداه فحسب يحملان صندوق السيوف، لكنْ اثنان من خَدَمِه أيضًا يحملان حقيبة سَفَرٍ وسَلَّة غَداء.

في هذه الساعة المبكِّرة من الصباح، أغرَقَت الشمسُ كُلَّ شيء في دفئها، واندهش سايم على نحوٍ غامِضٍ لرؤية كثيرٍ من أزهار الربيع تتوهَّج بالذهبي والفضِّيِّ بين الأعشاب الطويلة التي وقَفَت فيها الصُّحبة بأكملها غارقين حتى رُكَبِهم تقريبًا.

باستثناء الماركيز، كان جميع الرجال في زِيِّ الصباح الوقور داكِنِ اللون، مع قُبَّعاتٍ تُشبِه قِمَمَ المداخن السوداء؛ الدكتور الضئيل على الأخَصِّ، مع إضافة عُوَيناتِه السوداء، كان يشبه حانوتيًّا في مسرحية هزليَّةٍ. لم يكن في وسْعِ سايم سوى الشعور بالتناقض الهَزليِّ بين أردية مَسيرةِ الكنيسة الجنائزية هذه والمرج الغني المتلألئ والأزهار البرية النامية في كل مكان. لكنَّ حقيقة الأمر أن هذا التناقُضَ الكوميدي بين الأزهار الصفراء والقُبَّعات السوداء لم يَكُن سوى التَّناقُضِ المأساويِّ بين الأزهار الصَّفراء والعملية السوداء. على يمينه كانت غابة صغيرة؛ وعلى شماله بعيدًا يستقرُّ المنحنى الطويل لخَطِّ السِّكَك الحديدية، وهو ما كان سايم، في الحقيقة، يحجبه عن الماركيز، الذي كان بدوره

يصبو إليه كهدفٍ للهروب. من أمامه، خلف المجموعة السَّوداء لغُرَمائِه، كان بإمكانه أن يرى، كسَحابَةٍ مُخضَّبَة، أَجَمَةَ لَوزٍ صغيرة مزدحمة بالأزهار على خلفيَّة خَطِّ البحر الواهي.

اقتربُ حامِلُ وسام جوقة الشرف الفرنسي، الذي كان اسمه على ما يبدو كولونيل دوكروا، من البروفسور ودكتور بولْ بتأدُّبٍ شديد، واقترح أن يُعتَبَرَ النِّزالُ منتهيًا مع أوَّل جرح خطير.

مع ذلك، أصرَّ دكتور بولْ، الذي كان يُدرِّب سايم بعناية على هذا الاستراتيجية، بوَقارٍ شديدٍ، وفرنسيَّةٍ رديئة للغاية، أنَّ النزال لا بُدَّ أن يستمرَّ حتى يسقط واحِدٌ من المقاتلين عاجزًا. كان سايم قد اتَّخذ قراره بتجنُّب تعجيز الماركيز ومنع الماركيز من تعجيزه لعشرين دقيقةً على الأقل. في عشرين دقيقة سيكون قطار باريس قد مضى.

"بالنسبة لرَجُلٍ ذي براعة وبسالة معروفة كالسيد دي سان إيوستاش"، قال البروفسور بوقارٍ، "فإنه بالتأكيد لن يُلقي بالًا للطريقة العادية، ولاعبنا لديه أسبابٌ قوية للمُطالَبَةِ بمواجهة أطوال، أسباب تمنعني خُطورَتُها من الإفصاح عنها، لكن بسبب الطبيعة العادلة والشريفة التي يمكنني أن...".

"وَلَدٌ مُزعِج!"، انطلقت بالفرنسية من الماركيز القابع خلفه، بعد أن أظلم وجهه فجأة، "لنتوقَّفْ عن الحديث ونبدأ النزال"، ثم أطاح برأس زهرة طويلة بعصاه.

كان سايم يتفهَّم نفادَ صبره الوَقِح هذا. تطلَّع غريزيًّا من فوق كتفه لرؤية إن كان القطار قادمًا من بعيد. لكن لا دُخانَ يبدو في الأفق.

ركع الكولونيل دوكروا على رُكبَتَيْه وفتح الصندوق، مستخرجًا منه زوجًا من السيوف المتماثِلَة، استقبلا ضوء الشمس وحوَّلاه إلى شُعاعَيْن من النار البيضاء. قدَّم واحدًا إلى الماركيز، الذي اختطفه بلا أيِّ

رسميَّاتٍ، وآخر إلى سايم، الذي أخذه، وثناه، وجهَّزه للنِّزال، مُستَغرِقًا أطول وقتٍ ممكن يسمح به الوقار.

وبعدها تناول الكولونيل زوجًا آخر من النِّصال، ومتناولًا واحدًا لنفسه وآخر لدكتور بولْ، تابع مَهمَّتَه في وضع الرجال في أماكِنهم.

كان كِلا المحارِبَيْن قد انتزعا معاطِفَهما، ووقفا والسُّيوف في أيديهما. وقف المساعدان على كلِّ جانبٍ من خَطِّ النزال بسيوفٍ مسحوبة أيضًا، لكن قاتمين ما زالا في معاطِفهما الصوفية وقبعاتهما الداكنة. تبادل المحاربان التحية. ثم قال الكولونيل بهدوء، "اشتباك!" وبعدها تلامس السيفان واختلطا.

عندما استشرى اهتزازُ الحديد المتشابك عبر ذراع سايم، فإن كل المخاوف الفانتازيَّة التي كانت مَوضِعًا لقصته تساقَطَت منه كتساقُطِ الأحلام من رَجُلٍ يستيقظ لتوِّه. تذكَّرها بوضوح وبترتيب كأوهام عُصابيَّة- كيف أصبح الخوف من البروفسور خوفًا من الحوادث المستبِدَّة للكابوس، وكيف أصبح الخوف من الدكتور خوفًا من الخواء المطلق للعلم. الأول كان الخوف القديم من حدوث أي معجزة، والثاني الخوف الحديث الأكثر يأسًا من عدم حدوث أي معجزة. لكنه يرى الآن أن هذه المخاوف كانت خيالاتٍ، فقد وجد نفسه في حضرة الحقيقة العظيمة للخوف من الموت، والشعور الفَظِّ عديم الشفقة به. شعرَ وكأنه رجلٌ كان يحلم طوال الليل بالسقوط من على جُرف، ثم استيقظ في الصباح ليجد نفسه مُتدلِّيًا من حبل مشنقة. لأنه فور أن رأى شعاع الشمس يجري على نصل غريمه، وفور أن شعر بلسانَي الصُّلبِ يتلامسان، ويهتزَّان كأشياء حيَّةٍ- أدرك على الفور أن غريمه كان مُحارِبًا مُرعِبًا، وأن ساعته الأخيرة ربما قد حانت.

شعر بقيمَةٍ عجيبة وحيَّة في كل التراب من حوله، في العشب تحت قدميه؛ شعر بحبِّ الحياة في كل الأشياء الحيَّة. كان بإمكانه

تَخَيُّل العشب وهو ينمو؛ بل وتَخيُّلُ أن الأزهار النَّديَّة تنبثق وتَتَبرعَمُ في المروج من حوله- أزهار باللَّون الأحمر الدامي، وأخرى تشتعل بالذهبي والأزرق، حتى تنجز موكب الربيع الاحتفالي. ومتى شَرَدَت عيناه لومضة مُبتَعِدَةً عن العينين الهادئتين، المحدِّقَتَيْن، المنوِّمة للماركيز، كانت تريان الأجَمةَ الصغيرة لشجرة اللَّوز على خلفيَّة خَطِّ الأفق. راوَدَه شعورٌ بأنه إذا نجح في الهروب بمعجِزَةٍ ما فلن يمانع في الجلوس للأبد أمام شجرة اللوز تلك، غيرَ راغبٍ في أي شيء آخر في العالم.

لكن في حين أن الأرض والسماء وكل شيء حوله كان يتمتَّع بالجمال الحيِّ لشيء مفقود، فإن النصف الآخر في رأسه كان رائقًا كالزجاج؛ يتحاشى ضربات عدوِّه بنوعٍ من المهارة الآلية التي أبدًا لم يَظُنَّ أنه يتمتَّع بها. في إحدى الضربات انطلق طرف سيف عَدوِّه على طول رسغه، مُخَلِّفًا خيطًا رفيعًا من الدم، لكن إمَّا أنه لم يُلاحظ أو تمَّ تجاهُلُه ضِمنًا. من حين لآخر كان يردُّ بضربات انتقاميَّة، ومرَّةً أو اثنتين شعر باقترابه من إصابة هدفه، لكن بما أنه لم يَرَ أيَّ دماء على النصل أو القميص فقد اقتنع أنه مُخطِئٌ. ثم حدث توقُّفٌ تلاه تَغيُّر.

خَشيَةَ أن يفقد كلَّ شيء فإن الماركيز، قاطِعًا تحديقَتَه الهادئة، أرسل نظرةً خاطفة من فوق كتفه إلى خطِّ السكة الحديدية على يمينه. ثم عاد إلى سايم بوجهٍ مُشوَّه كوجه الشيطان، ثم استأنف النِّزالَ كما لو كان بعشرين سيفًا. كان الهجوم سريعًا وهائجًا، لحَدِّ أن السيف الوحيد المتلألئ بَدَا كزَخَّاتٍ من الأسهم المتلألئة. لم يكن أمام سايم خيارٌ سوى أن ينظر إلى خَطِّ السكة الحديدية؛ لكن أيضًا لم يَكُن به حاجَةٌ إلى ذلك. كان بإمكانه تخمين سبب جنون الماركيز المفاجئ في المعركة- كان قطار باريس على مرأى البَصَر.

لكـن طاقـة الماركيـز المروِّعـة انحرَفَـت عـن خَطِّهـا. في مرَّتَـيْن فـإن سـايم -متفاديًـا الضربـات- نجـح في إقصـاء طـرف سـيف خصمـه إلى خـارج دائـرة القتـال؛ وفي المـرة الثالثـة كانـت ضربتـه الانتقاميـة سريعـة جـدًّا، بحيـث لم يَعُـد هنـاك أي شـكٍّ بشـأن الضربـة هـذه المـرة. في الواقـع انحنـى سـيف سـايم تحـت وطـأة وزن جسـم الماركيـز، بعـد أن اخترقـه.

كان سـايم عـلى يقـين بأنـه ضرب نَصلَـه مخترقًـا عَـدوَّه كـما يَثِـقُ البُسـتانيُّ بـضرب رَفْشِـه في الأرض. مـع ذلـك، قفـز الماركيـز واقفًـا بعـد الضَّربَـةِ مُنتَصِـبَ الظهـر، ووقـف سـايم مُحَدِّقًـا في طـرف سـيفٍ كالأبلـه. لم تكـن عـلى خصمـه أي دمـاء عـلى الإطـلاق.

بعـد لحظَـةٍ مـن الصَّمـت المتخشِّـب، انقـضَّ سـايم بـدوره باهتيـاجٍ عـلى خصمـه، ممتلئًـا بفضـولٍ مُشـتَعِلٍ. ربمـا كان الماركيـز، بشـكل عـامٍّ، مبـارِزًا أفضـلَ مـن سـايم، بالنَّظَـرِ إلى تَفوُّقِـه في البدايـة، لكـن في هـذه اللحظـة بـدا الماركيـز مُهتاجًـا وفي أسـوأ أحوالـه. قاتَـلَ بوحشـيَّةٍ، بـل وبضعـف، وباسـتمرارٍ كان يتطلَّـع بعيـدًا إلى خَـطِّ السـكة الحديديَّـة، كـما لـو أنـه يخـشى القطـار أكـثر مـن خَشـيَتِه الحديـد المستدَقّ. كان سـايم، مـن ناحيتـه، يقاتـل بشراسَـةٍ وبحـرصٍ رغـم ذلـك، بغَضَـبٍ فكـريٍّ؛ توَّاقًـا لحَـلِّ لُغـز سَـيفِه الخـالي مـن الدمـاء. لهـذا السـبب؛ أصبـح يسـتهدف جسـدَ الماركيـز بشـكلٍ أقـلَّ، مُرَكِّـزًا ضرباتـه عـلى حَلقِـه ورأسـه. بعـد ذلـك بدقيقـة ونصـف شـعر بنصـل سـيفه يخـترق عُنُـقَ الرَّجُـل أسـفلَ الفَـكِّ. لكنـه خـرج نظيفًـا. مُوشِـكًا عـلى الجنـون، اندفـع ثانيـةً، وصنـع مـا ينبغـي أن يكـون نَدبـةً في عنـق الماركيـز. لكـن لم تظهـر أيُّ نَدبَـة.

لوَهلَـةٍ امتـلأت سـماءُ سـايم ثانيـةً بمظاهـر الرُّعـب السـوداء فـوق-الطبيعيَّـة. بالتأكيـد عـاش الرجـل حيـاةً مسـحورةً. لكـن هـذا الرُّعـب الروحـاني الجديـد كان أكـثر فزعًـا مـن الانقـلاب الروحـي رأسًـا عـلى عقـب الـذي تجسَّـد في القعيـد الـذي تعقَّبـه. لم يكـن البروفسـور سـوى عِفريـتٍ؛

لكن هذا الرَّجُلُ كان شيطانًا- ربَّما كان الشيطانَ ذاتَه! على أيَّة حالٍ، أصبح هذا يقينيًّا، بعد أن غاص سيفٌ بَشَريٌّ في جسده لثلاث مرات ولم يُخَلِّف أي علامة. عندما خَطَرَت تلك الفكرة على سايم، استقام في وقفته، وكل ما كان طيِّبًا في داخله صَدَحَ عاليًا في الهواء كما وكأنَّه رياحٌ عالِيَةٌ تُخَشخِشُ بين أوراق الشَّجَر. فكَّر في كل الكائنات البشرية في حكايته- في المشاكي الصينية في سافْرون بارك، في الفتاة ذات الشَّعر الأحمر في الحديقة، في البحَّارة الطَّيِّبين المرتَشِحين بالجعَّة على رصيف الميناء، في رُفَقائِه الملكيِّين الواقفين بجواره. ربما كان الأمر أنه كان مُختارًا كبطَلٍ لِكُلِّ تلك الأشياء الغَضَّة والرحيمة من أجل مُقارَعَةِ السُّيوف مع عَدوٍّ كُلِّ الخَلق. "أيًّا كان الأمر"، قال لنفسه، "أنا أكثر من مجرَّد شيطان، أنا إنسان. بإمكاني فِعلُ أمرٍ واحد يَعجَزُ عنه إبليس نفسه- بمقدوري أن أموت"، ومع اختراق السيف لرأسه، تناهى إلى سمعه نَعيبٌ خافِتٌ وناءٍ، سيتحوَّل سريعًا إلى قَعقَعَةِ قطار باريس.

انخرط في القتال ثانيةً برعونَةٍ خارِقَة، كواحِدٍ من المحمَّديِّين يلهث طَمَعًا في الفِردَوس. ومع اقتراب القطار أكثر وأكثر تخيَّل أنه يرى أُناسًا يُشيِّدون أقواسَ الزُّهور في باريس؛ ثم انضمَّ إليهم وسط الضجيج المتنامي ومجد الجمهورية العظيمة التي كان يحمي بوَّابتها ضدَّ هجوم الجحيم. تصَّاعَدَت أفكارُه أعلى وأعلى مع ارتفاع صَخَبِ القطار الذي انتهى، كما لو كان بفَخرٍ، بصفيرٍ طويل وحادٍّ. لقد توقَّفَ القطار.

بغتةً ولِدَهشَةِ الجميع تراجع الماركيز قافِزًا بعيدًا عن مُتناوَلِ السَّيفِ، وطرح سيفه أرضًا. كانت قَفزَتُه مُذهِلَةً، بعيدًا عن حقيقة أن سايم كان قد غمس سيفه قبل وَهلَةٍ في فَخِذِ الرَّجل.

"توقَّفْ!"، قال الماركيز بصوتٍ يفرض انصياعًا لحظيًّا. "أرغب في قَوْلِ شيء".

"ما الأمر؟"، سأله الكولونيل دوكروا، مُحَدِّقًا. "هل حدث خطأٌ في النزال؟".

"هناك خطأ في مكانٍ ما"، قال دكتور بولْ، الذي كان شاحِبًا قليلًا. "لقد جرح مقاتلنا الماركيز أربع مرّاتٍ على الأقل، ولم يُصَب هو بأيِّ أذًى".

رفع الماركيز يده عاليًا تحيط به هالَةٌ عجيبة من الصَّبر الشَّبحيِّ.

"رجاءً دعوني أتحدَّث"، قال لهم." إنها مسألة هامَّة، سيد سايم"، تابَعَ قوله، مستديرًا إلى خصمه، "نحن نتقاتَلُ اليوم، إذا أسعفتني ذاكرتي؛ لأنَّكَ أبدَيتَ أُمنية (أراها غير عقلانيَّة) في أن تَشدَّ أنفي. هل تفضَّلتَ وشَدَدتَ أنفي الآن بأسرع ما يمكن؟ عليَّ اللحاق بالقطار".

"أعترض بأن هذا أمرٌ مُخالِفٌ إلى أقصى حد"، قال دكتور بولْ بسخط.

"إنَّه بالتأكيد مُتضارِبٌ بشكل ما مع سابِقَةٍ"، قال الكولونيل دوكروا، مُتطلِّعًا بحُزنٍ إلى محارِبِه. "توجد، على ما أعتقد، حالةٌ في السِّجلَّات (كابتن بيلجراد والبارون زومبت) تمَّ فيها تغيير الأسلحة في منتصف المواجهة بناءً على طلب أحد المحارِبَيْن. لكن بالكاد يمكننا اعتبار الأنف كسلاح".

"هل ستقوم بشدِّ أنفي أم لا؟"، قال الماركيز بغَضَبٍ. "اقتَرِبْ، سيد سايم! كنتَ ترغب في القيام بذلك، فقُم به! لا تتصوَّر مدى أهمية ذلك بالنسبة لي. لا تَكُن أنانيًا بهذا الشكل! اجذِبْ أنفي في الحال، عندما أطلب منكَ"، وانحنى قليلًا إلى الأمام بابتسامَةٍ ساحرة. كان قطار باريس، لاهثًا ومتأوِّهًا، قد زحف داخلًا إلى محطَّةٍ صغيرة وراء التل المجاور.

راود سايم شعورٌ بأنه مرَّ بهذه المغامرات من قبل: الشعور بأن مَوجَةً مُريعةً ومُتسامِيَةً قد ارتفعت إلى السماء ثم غَدَت على وشك الانقلاب فجأة. سائِرًا في عالَمٍ يفهمه بعضَ الشيء، اتَّخذ خطوتين إلى الأمام وقبض على الأنف الرومانيِّ لهذا النبيل الاستثنائي. شدَّه بقوة، ثم انخلع في يده.

وقفَ لبضع ثوانٍ بوَقارٍ أحمَقَ، بمُقدِّمَة الأنف الكرتونيَّة بين أصابعه، مُتطلِّعًا إليها، بينما الشمس والسُّحُب وتلال الأشجار تنظر من عَلٍ إلى مشهد الحماقة هذا.

كسر الماركيز الصَّمتَ بصوتٍ صادِحٍ ومُتهلِّل.

"إذا رغب أحدكم في الاستفادة من حاجِبي الأيسر"، قال لهم، "فليأخذه. كولونيل دوكروا، فلتَقبَلْ حاجبي الأيسر! إنه من الأشياء التي قد تُفيدُكَ في أي يومٍ"، ثم بوقار انتزع واحدًا من حاجِبَيْه الآشوريَّيْن الدَّاكِنَيْن، مُمزِّقًا نِصفَ جبينه الأسمر تقريبًا معه، وبتأدُّبٍ قَدَّمه إلى الكولونيل، الذي وقف مُحمَرَّ ومبهوتًا من الغضب.

"لو كنتُ أعرف"، قال مُتَلعثِمًا، "أنني أنوب عن رِعديدٍ يحشو نفسه من أجل القتال...".

"أوه، أعرف، أعرف!"، قال الماركيز، مُلقيًا باستهتارٍ بأجزاء متنوِّعة من نفسه يمينًا وشمالًا في أرجاء الميدان. "أنت مُخطئ؛ لكن لا يمكن تفسير الأمرِ الآن. أقول لك إن القطار قد وصل إلى المحطَّة!".

"نعم"، قال دكتور بولْ باهتياجٍ، "وسيخرج القطار من المحطَّة. سيخرج بدونِكَ. نعرف جيدًا ما يقدر عليه الشيطان...".

رفعَ الماركيز الغامض يديه بإيماءَةٍ يائسة. كان كفزَّاعة عجيبة تقف هناك في الشمس بنصف وجهها وقد تقشَّر، ونِصفُه الآخر يتوهَّج ويَئِنُّ من الأسفل.

"هل ستصيبونني بالجنون؟"، صاح قائلًا. "فالقطار...".

"لن تَصِلَ إلى القطار"، قال سايم بحَسمٍ، وقبض على سيفه.

استدار الشَّكلُ البشريُّ المتوحش نحو سايم، وبدا أنه يستجمع شتاتَ نفسِه من أجل بَذلِ جَهدٍ مَهيبٍ قبل أن يتحدث.

"أنتَ أيُّها البدين الهائل، المزعج، ذو عين الدُّبِّ، المتخبِّط، الصاخب، عديم العقل، مَن نبذه الرَّبُّ، الخَرِف، الأحمق اللعين!"، قال ذلك بدون التقاط نَفَسٍ واحد. "أنت أيُّها المغفَّل، ذو الوجه الوردي، يا نبتةَ اللِّفتِ ذات الشَّعر الفاتح! أنت أيُّها...".

"لن تصل إلى هذا القطار"، كرَّر سايم.

"ولماذا بِحَقِّ الجحيم"، زمجر الآخر، "قد أرغب في الوصول إلى القطار؟".

"نعرف جميعنا"، قال البروفسور بصرامَةٍ. "ستذهب إلى باريس لإلقاء قنبلة!".

"وكأني سأذهب إلى أريحا لألقي بجابروك!"[1]، صاح الآخر، مُمزِّقًا شَعرَه، الذي تساقَطَ بسهولة.

"هل فقدتم عقولكم جميعًا، حتى لا تدركوا مَن أنا؟ هل تعتقدون حَقًّا أنني أرغب في اللحاق بذلك القطار؟ عشرين قطارًا إلى باريس قد يَمرُّ أمامي بدون أن ألحق به. اللعنة على القطارات المتَّجِهَة إلى باريس!".

"إذن لماذا أنتَ مُهتَمٌّ بالأمر؟"، بدأ البروفسور قائلًا.

---

(1) Jabberwock: شخصيَّة خَياليَّة، وحش هائج، في قصيدة الهُراء Jabberwocky التي ظهَرَت في رواية "أليس في المرآة" (1871) للويس كارول- (المترجم)

"لماذا أهتمُّ بالأمر؟ لا يشغلني إطلاقًا اللحاق بالقطار؛ لا يُقلِقُني سوى أن يَلحَقَ بي القطار، والآن، يا إلهي!، لقد لَحِقَ بي".

"يُؤسِفني إبلاغُكَ"، قال له سايم زاجِرًا، "أنَّ مُلاحظاتِكَ لا تخلق أيَّ انطباعٍ لديَّ. ربما إذا انتزعت بقايا جبينِكَ الأصليِّ وجُزءًا ممَّا كان ذقنك في السابق، سيصبح مَقصِدُكَ أكثر وضوحًا. الصَّفاء العقلي يُحقِّق نفسه بطُرُقٍ كثيرة. ماذا تعني بالقَول إنَّ القطار قد لحق بك؟ ربما يكون الأمر خيالًا أدبيًّا من جانبي، لكن بشكلٍ ما أشعر أنه يعني شيئًا ما".

"إنه يعني كلَّ شيء"، قال الآخر، "ونهاية كل شيء. لقد قادَنا الأحد الآن إلى فَجوَةِ يَدَيه العميقة".

"قادنا نحن!"، كرَّر البروفسور، كما لو كان مُخدَّرًا. "ماذا تقصد بقَولِكَ (نحن)؟".

"الشُّرطَةُ بالطَّبع!"، قال الماركيز، وانتزع فروةَ رأسه ونِصفَ وَجهِه.

كان الرأس الذي برز أشقرَ، مُمشَّطًا بعناية، رأسٌ ذا شَعرٍ ناعم شائع في أوساط الكونتسابلات الإنجليز، لكن الوجه كان شاحبًا للغاية.

"أنا المفتِّش راتكليف"، قال، بشكلٍ من أشكال العَجَلَةِ التي أوشَكَت على أن تتحوَّل إلى خشونة.

"اسمي معروفٌ جيِّدًا في الشرطة، وبإمكاني أن أرى بالطبع أنكم تابِعون لها. لكن إذا راوَدَكم أيُّ شَكٍّ بشأن موقفي، فها هي بطاقتي"، وبدأ في سَحبِ بطاقةٍ زرقاء من جيب معطفه.

أبدى البروفسور إيماءَةً مُجهَدَةً.

"أوه، لا تُرِنا إيَّاها، قال بإرهاق"؛ "لدينا ما يكفي من البطاقات لملءِ مِضمار سباقٍ كامِلٍ".

انتابت الرَّجلَ الضَّئيلَ الذي يُدعَى بولْ، كغيره من الرجال ذَوي السُّوقيَّة والابتذال، حركاتٌ مُفاجِئَة من الذَّوق الراقي. هنا بالتأكيد نَجَحَ في إنقاذ الموقف. ففي وسط هذا المشهد التحوُّلي المذهل خَطَا للأمام بكلِّ وَقاره ومسؤوليَّته كمساعدٍ في المبارزة، وخاطَبَ مُساعِدَيْ الماركيز.

"يا سادة"، قال لهما، "ندين لكما باعتذارٍ قَويٍّ؛ لكني أؤكِّد لكما أنكما لستما ضحيةً لمزحةٍ رديئة كما تتخيَّلان، أو لأي شيء، في الحقيقة، يُخجل الرجال ذوي الشرف. لم تضيِّعا وقتكما؛ فقد ساعدتما على إنقاذ العالم. لسنا مهرِّجين، بل رجال تُعساء جدًّا في حربٍ مع مؤامرة واسِعَةٍ. جمعية سِرِّيَّة من الفوضويِّين تحاول اصطيادنا كالأرانب؛ وهم ليسوا مجرَّدَ مجانين أشقياء يلقون بالقنابل هنا وهناك بسبب الجوع أو الفلسفة الألمانية، لكن كنيسة ثَريَّة وقوية ومُتعصِّبة، كنيسة التشاؤمية الشَّرقيَّة، تضع هدفًا مُقدَّسًا لها تدمير البشرية كالأفعى. يمكنكم إدراك مدى اهتياجهم لاصطيادنا عبر حقيقة اضطرارنا إلى التنكُّر بهذا الشكل، تمامًا كما تنكَّرَ ذلك مَن أُقدِّم له اعتذاري، وإلى تَحَمُّل مقالب كهذا المقلب التي مَرَرتُما به".

انحنى المعاونُ الأصغر سِنًّا للماركيز، رَجلٌ قصير بشارب أسود، بتأدُّبٍ وقال:

"بالطبع، أقبل اعتذارك؛ لكن عليك بدورك أن تُسامِحني إن رفضتُ المضيَّ معكم في مهامِّكم الشَّاقَّة القادمة، واسمح لي أن أقول صباح الخير! فمشهد صديقٍ مُتَحضِّر ومُوَقَّر، نعرفه جيِّدًا، يتحوَّل إلى شظايا في الهواء الطَّلق هو أمرٌ غير معتاد، وفي المجمَل، يكفي يومٌ واحد من المفاجآت. كولونيل دوكروا، لا أُحِبُّ بأيِّ شَكلٍ أن أؤثِّر على أفعالك، إذا شارَكتني شعوري بأن الصُّحبة الحاضرة غير طبيعيَّةٍ قليلًا، فأنا عائِدٌ الآن إلى المدينة".

تحـرَّك الكولونيـل دوكـروا بشـكلٍ آليٍّ، ثـم شـدَّ فجـأةً شـارِبَه الأبيـض وانطلـق قائـلًا:

"لا، بحَـقِّ القديـس چورچ! لـن أصحَبَـكَ. إذا كان هـؤلاء السـادة في ورطـةٍ حقيقيـة مـع حفنـة المخرِّبـين هـؤلاء، فسـأقف إلى جانبهـم. لقـد حاربـتُ مـن أجـل فرنسـا، ومـن الصعـب ألَّا أتمكَّـن مـن القتـال مـن أجـل الحضـارة".

انتـزع دكتـور بـولْ قُبَّعَتـه ولـوَّح بهـا، مبتهجًـا كـما لـو أنـه في حشـد عـام.

"لا تُثِر ضجيجًا عاليًا"، قال المفتش راتكليف، "قد يَسمَعُكَ الأحَدُ".

"الأحد!" صاح بولْ، وأسقط قُبَّعَتَه.

"نعم"، أجابه راتكليف، "قد يكون معهم".

"مع مَن؟" سأله سايم.

"مع الرُّكَّاب الخارجين من ذلك القطار"، قال الآخَر.

"مـا تقولـه يبـدو جنونيًـا بالكامـل"، بـدأ سـايم في القـول. "لمـاذا، في واقـع الأمـر- لكـن، يـا إلهـي"، صـاح عاليًـا فجـأةً، كرجُـلٍ يـرى انفجـارًا عـلى البُعـد، "يـا إلهـي! إذا كان هـذه صحيحًـا فـإن كُلَّ الحاضريـن الملاعـين مِنَّـا في مجلـس الفوضويِّـين كانـوا ضِـدَّ الفوضويـة! كل رجُـلٍ مولـود كان مُحقِّقًـا سِرِّيًـا باسـتثناء الرئيـس وسـكرتيره الشـخصيِّ. مـاذا يعنـي هـذا؟".

"يعنـي!" قـال الشُّرطـي الجديـد بعُنـفٍ لا يُصـدَّق. "يعنـي أننـا أصبحنـا أمواتًـا! ألا تعـرف الأحـد؟ ألا تعـرف أن مزحاتِـه دائمًـا مـا تكـون بسـيطةً لدرجـة أنهـا لا تَخطُـر عـلى البـال؟ هـل يمكنكـم تَخيُّـل أي شيء يُعـبِّر عـن الأحـد أكـبر مـن هـذا، أن يضـع كلَّ أعدائـه الأقويـاء في المجلـس الأعـلى، ثـم يتأكَّـد أنـه لم يكـن أعـلى؟ أقـول لكـم إنـه اشـترى كُلَّ صنـدوق ائتـمان، واسـتولى عـلى كلِّ تلغـراف، وسـيطر عـلى كل خَـطِّ سِـكَكٍ حديديـة- خاصَّـةً

خـط السـكك الحديديـة ذلـك!"، وأشـار بأصابـع مرتعشـة إلى المحطَّـة الصغيرة عـلى جانـب الطريـق. "الحركـة بأكملهـا تخضـع لسـيطرته؛ ونصف العـالم جاهـز للثَّـورة مـن أجلِـه. لكـنَّ خمسـة أشـخاص فحسـب، ربمـا، وقفـوا صفًّـا واحـدًا لمقاومتـه، ثـم وضعهـم الشـيطان العجـوز في المجلـس الأعـلى، لإضاعـة وقتهـم في مراقبـة بعضهـم البعـض. وبمـا أننـا كنَّـا حمقـى، فقـد خطَّـط لكامـل حماقاتنـا! كان الأحـد يعـرف أن البروفسـور سـيُطارِدُ سـايم عـبر شـوارع لنـدن، وأن سـايم سـيقاتلني في فرنسـا. انشـغل هـو بتكديـس رؤوس أمـوال هائلـة، والاسـتيلاء عـلى خطـوط التلِّغـراف الهائلـة، بينـما نحـن المعاتيـه الخمسـة كُنَّـا نركـض وراء بعضنـا البعـض كحفنـة مـن الرُّضَّـع المرتبكـين يلعبـون الاسـتغمَّاية".

"حسنًا؟"، سأله سايم متماسكًا بعض الشيء.

"حسـنًا"، أجابـه الآخـر بهـدوءٍ مُفاجِـئٍ، "لقـد وجدَنـا نلعب الاسـتغماية في حقـلٍ ذي جَـمالٍ ريفـيٍّ هائـل وعُزلَـةٍ شـديدة. مـن المحتمـل أنـه نجـح بالفعـل في الاسـتيلاء عـلى العـالم؛ ولم يَبـقَ أمامـه سـوى الاسـتيلاء عـلى هـذا الحقـل وكل الحمقـى عليـه. وحيـث أنَّكـم ترغبـون حقًّـا في معرفـة اعـتراضي عـلى وصـول ذلـك القطـار، سـأخبركم. اعـتراضي هـو أن الأحـد أو سـكرتيره قـد خـرج منـه لتـوِّه ".

أخـرج سـايم صيحـةً لا إراديـة، واسـتداروا جميعًـا بأعينهـم ناحيـة المحطَّـة البعيـدة. بالفعـل، كانـت مجموعـة كبـيرة مـن الأشـخاص تتحـرَّك في اتجاههـم. لكنهـا كانـت بعيـدة جـدًّا عـلى أن يتمكَّنـوا مـن تمييزهـا بـأي شـكل.

"مـن عـادة المرحـوم الماركيـز دي سـانت إيوسـتاش"، قـال الشرطـي الجديـد، مسـتَخرِجًا حقيبـةً جلديَّـة، "أن يحمـل دائمًـا نظَّـارات أوبـرا. إمَّـا الرئيـس أو السـكرتير قـادِمٌ الآن في إثرنـا مـع ذلـك الحشـد. لقـد أمسـكوا بنـا في مـكانٍ هـادئ لطيـف لـن تُلـحَّ علينـا فيـه أيُّ إغـواءات لحنـثِ يمينـنا

وإبلاغ الشرطة. دكتور بولْ، أشكُّ أنك سترى على نحو أفضل بهذه النظارات من عُوَيناتِكَ الغارقة في الزَّخرَفَة تلك".

ناولَ النَّظَّارات الميدانية إلى الدكتور، الذي انتزع عُوَيناتِه على الفور ووضع الجهاز الجديد على عينيه.

"لا يمكن أن يكون الأمر بالسُّوء الذي تقوله"، قال البروفسور، مُرتَعِشًا بعض الشيء. "هناك عدد كبير منهم بالتأكيد، لكنهم قد يكونون مُجرَّد سُيَّاحٍ عاديِّين فحسب".

"هل يرتدي السُّيَّاحُ العادِيُّون"، سأله بولْ، بنظَّارَةِ الميدان على عينيه، "أقنِعَةً سوداء تُخفي نصف وجوههم؟".

انتزع سايم المنظار من يديه انتزاعًا، ونظر من خلاله. بدا معظم الرجال في الحشد المتقدِّم عاديِّين فعلًا؛ لكن كان من الحقيقي تمامًا أن اثنين أو ثلاثة من القادة في المقدِّمة يرتدون أقنِعَةً سوداء تصل إلى أفواههم. هذا التَّنكُّر مُكتَمِلٌ جدًّا، خاصَّةً من هذه المسافة، وجد سايم أنه من المستحيل استنتاجُ أي شيء من الذقون المحلوقة النظيفة للرجال الذي يتحدَّثون في المقدِّمة. لكن أثناء حديثهم ذلك ابتسموا جميعًا وابتسم أحدُهم في جانِبٍ واحِدٍ من وجهه.

الفصل الحادي عشر

المجرِمون يُطارِدون الشُّرطَةَ

أزاحَ سايم المنظارَ من عَينَيْه بارتياحٍ يغلب عليه الخوفُ.

"الرئيس ليس معهم، على أيِّ حال"، قال لهم، ومسح على جبينه.

"لكنَّهم بالتأكيد بعيدون في الأفق"، قال الكولونيل الحائر، طارِفًا بعينيه بعد أن استردَّ أنفاسه بعض الشيء من التفسير المتعجِّل، لكن المتحضِّر، الذي كان دكتور بولْ قد قدَّمه.

"هل يُمكِنُكَ بأيِّ حال أن تتعرَّف على الرئيس بين كلِّ هؤلاء الناس؟".

"هل يمكنني أن أتعرَّف على فيل أبيض بين كل هؤلاء الناس!" أجابه سايم مهتاجًا بعض الشيء. "كما تقول حقًّا، فهم على مَبعَدَةٍ؛ لكن إذا كان يسير معهم... يا إلهي! أعتقد أن هذه الأرض ستهتزُّ".

بعد توقُّفٍ لبُرهَةٍ قال الرجل الجديد المدعو راتكليف بصرامة حزينة:

"بالطَّبع الرئيس ليس معهم. أتمنَّى من برج الجَوزاء أن يكون معهم. الأكثر احتمالًا هو أن الرئيس يمضي على خَيلِه بانتصارٍ عبر شوارع باريس، أو يجلس على أنقاض كاتدرائية سانت بول".

"هذا عبث!" قال سايم. "ربما قد وقعَ أمرٌ ما في غيابنا؛ لكن لا يمكنه أن ينجح في كل هذا بهذه السرعة. من الحقيقي تمامًا رغم ذلك"، أضاف، مقطِّبًا بتشكُّكٍ ناظِرًا إلى الحقول البعيدة التي تؤدِّي إلى المحطَّة الصغيرة، "من الحقيقي بالتأكيد أن تَجمُّعًا من الناس في طريقه إلينا؛ لكنهم لا يُمثِّلون كامل الجيش الذي ننتظره".

"أوه، بل هم كذلك"، قال المحقِّق السِّرِّيُّ الجديد باحتقار، "وعلى أي حال فهم ليسوا قوَّةً كبيرة. لكن دعني أُخبرَك بصراحة أنهم ذو قوَّةٍ كبيرة بالمقارنة بنا- نحن لسنا كُثرًا يا بني في كون الأحد. لقد استولى على كُلِّ خطوط التلغراف لنفسه. لكن أن تقتل المجلس الأعلى فهي مسألة تافِهَة بالنسبة له، كبطاقَةٍ بريديَّة؛ قد يتركها لسكرتيره الخاص"، ثم بصق على العشب.

ثم استدار إلى الآخرين وقال بحَزمٍ:

"يوجد الكثير لِيُقالَ عن الموت؛ لكن إذا كان أحدكم يرغب في البديل الآخر، فأنصحكم بشدَّة أن تمضوا في إثري".

بهذه الكلمات، أدارَ ظهره العريض وخطا بنشاطٍ صامِتٍ نحو الغابة. تلفَّت الآخرون من فوق أكتافهم، ورأوا أن السحابة المظلِمَة للرجال قد انفصلت عن المحطَّة وبدأت في تَحرُّكها بنظام عجيبٍ نحو السهل. ورأوا كذلك، بأعيُنِهم المجرَّدة فحسب، اللطخ السوداء على الوجوه في المقدِّمة، التي كانت تَدُلُّ على الأقنعة التي ترتديها.

استداروا وتبعوا قائدهم، الذي كان قد وصل بالفعل إلى الغابة، واختفوا بين الأشجار المتلألئة.

كان ضوء الشمس على العشب جافًا وحارًا؛ لذلك باختراقهم الغابة اصطدموا بظلالٍ باردة، وكأنهم غوَّاصون يغطسون في بِركةٍ مُعتِمة. كان داخل الغابة مكتظًا بأشعَّةِ شمسٍ مُتكسِّرة وظلال مهتزَّة. كانت تخلق ما يشبه حجابًا مرتجفًا، يستدعي إلى الذهن تَرنُّحَ آلةِ عرضٍ سينمائيَّة. حتى الأشكال البشرية المصمَتَة السائرة مع سايم كان بإمكانها بالكاد رؤية ما أمامها بسبب تداخُل شعاع الشمس والظلال الراقصة أمامهم. حينًا، كان رأس الرجل منهم يضاء بضوء لوحات رامبرانت، طامِسًا كل ما عداه؛ وحينًا آخر ينقلب الوضع ويتمتَّع بيَدَيْن بيضاوَيْن واضِحَتَيْن ووجهٍ زِنجيٍّ. كان الماركيز السابق قد سحب قُبَّعَة القَشِّ القديمة على عينيه، والظل الأسود لحافَّتها قد قطع وجهَه إلى نِصفَيْن متساوِيَيْن حتى بدا وكأنه يرتدي واحدًا من الأقنعة السوداء النصفية لملاحِقيهم. وأصبح شعورُ سايم الكاسح بالاندهاش غارقًا في الخيالات. هل كان يرتدي قناعًا؟ هل كان أيٌّ منهم يرتدي قناعًا؟ هل كان أيٌّ منهم أي شيء؟ غابة السِّحر هذه، التي تتحوَّل فيها وجوه الرجال إلى الأسود والأبيض بالتناوُب، التي تنتفخ فيها أشكالهم البشرية تحت شعاع الشمس ثم تتلاشى في الظلام عديمِ الشَّكل، هذه الفوضى المطلَقَة من الجلاء والقتامة (بعد ضوء النهار الصافي في الخارج)، بَدَت لسايم تجسيدًا مثاليًّا للعالم الذي كان يتحرَّك فيه لثلاثة أيام، هذا العالم حيث ينزع الرجال لِحاهم وعُوَيناتِهم وأنوفَهم، ويتحوَّلون إلى أُناسٍ آخرين. تلك الثقة المأساوية في الذات التي شعر بها عندما صدَّق أن الماركيز كان شيطانًا كانت قد اختفت على نحوٍ غريب الآن وقد أدرك أن الماركيز كان صديقًا. شعرَ بتَوْقٍ لأن يسأل بعد كلِّ هذه الاندهاشات عن معنى الصديق وماهيَّة العدو. هل كان هناك أي شيء مختفيًا وراء ما تبَدَّى؟ كان الماركيز قد انتزع أنفَه وتحوَّل إلى مُحقِّقٍ

سِرِّيٍّ. ألم يكن بإمكانه ربما نَزْعُ رأسه والتَّحوُّل إلى غُول؟ ألم يكن كل شيء، في نهاية المطاف، كأرضٍ عَجائِبَ مُذهِلَةٍ، كرقصة النُّور والظلام هذه؟ كل شيء كان نظرةً خاطفة، والنظرة الخاطفة دائمًا ما تأتي على غير انتظار، ودائمًا ما تُنسَى. فجابرييل سايم قد وجد في قلب تلك الغابة الغارقة في رذاذ الشمس ما وجده الكثير من الرسَّامين الحداثيِّين هناك. وجد الشيء الذي يُسمِّيه الحداثيُّون بالانطباعيَّة، وهو اسمٌ آخر لتلك التَّشَكُّكيَّة النهائية التي تَعجَزُ عن إيجاد أيِّ أرضيَّةٍ للكون.

تمامًا كما يتلوَّى رجلٌ في حُلمٍ شيطانيٍّ في صُراخه واستيقاظه، ناضَلَ سايم بجَهدٍ مفاجئ حتى يطرح عنه هذا الخيال الأخير والأكثر بشاعة. بخطوتَيْن نافِدَتَي الصبر تجاوز الرَّجُلُ في قُبَّعة القش التي يرتديها الماركيز، الرجل الذي أصبح يخاطبه باسم راتكليف. بصوتٍ مُبتَهِجٍ وصاخِبٍ بشكلٍ مُباغِتٍ، حطَّم الصمت الذي لا قرارَ له، وخلق حديثًا.

"هل لي أن أسأل"، قال له، "إلى أين نحن ذاهبون؟".

كانت شكوك روحه أصيلةً وحقيقية، لحَدِّ أنه ابتهج غايةَ الابتهاج لسماع رفيقه يتحدَّث بصوتٍ بَشريٍّ خفيض.

"علينا أن نهبط عبر مدينة لانسي وصولًا إلى البحر"، قال له. "أعتقد أن ذلك الجزء من البلاد هو الأقلُّ احتمالًا أن يكون معهم".

"ماذا تعني بكلِّ هذا؟"، صاح سايم. "لا يمكنهم إدارة العالم الحقيقي بتلك الطريقة. بالتأكيد ليس كل الرجال العاملين فوضويِّين، وحتى وإن كانوا كذلك، فلا يمكن لمجرد غوغاء أن تهزم الشرطة والجيوش الحديثة".

"مجرَّد غوغاء!"، كرَّر صديقه الجديد بنَخرَةِ استهزاء. "إذن فأنت تتحدَّث عن الطغام والطبقات العاملة كما لو كانوا هم المسألة. قد يكون الأمر كذلك، بفِكرَتِكَ البلهاء الأبدية، إذا كانت الفوضوية تنبع

مـن الفقـراء. لمـاذا ينبغـي أن تكـون ذلـك؟ كان الفقـراء ثـوَّارًا بالفعـل، لكـن أبـدًا لم يكونـوا فوضويِّـين؛ فهـم يسـتفيدون أكـثر مـن أي شـخص آخـر مـن وجـود حكومـةٍ مُناسِـبَةٍ مـا. الفقـير يتمتَّـع بمصلحـة حقًّـا في البلـد. بينـما الرجـل الـثري ليـس كذلـك؛ يمكنـه المضيُّ بعيـدًا إلى غينيـا الجديـدة في يَخْـتٍ. أحيانًـا مـا يعـارض الفقـراء مسـألة أن يخضعـوا للحُكـم عـلى نحـو سيِّئ؛ بينـما الأثريـاء يعارضـون مسـألة خضوعهـم للحُكـم عـلى الإطـلاق. دائمًـا مـا كان الأرسـتقراطيُّون فوضويِّـين، كـما تـرى في حـروب البارونـات".

"كمحـاضرة في التاريـخ الإنجليـزي للرجـال الضئيلـين"، قـال سـايم، "هـذا كلـه حَسَـنٌ جِـدًّا؛ لكننـي لا أفهـم بعـد مـا يعنيـه".

"مـا يعنيـه"، قـال مُحدِّثُـه، "هـو أن معظـم الرجـال، الذيـن يُمثِّلـون الـذراع اليمنـى للأحـد العجـوز، هـم مليونـيرات مـن جنـوب أفريقيـا وأمريـكا. وهـذا سـبب اسـتحواذه عـلى كل الاتصـالات، وهـذا سـببٌ أن آخـر أربعـة أبطـال مـن قـوة الشرطـة لمكافحـة الفوضويَّـة يركضـون عـبر الغابـات كالأرانـب".

"المليونـيرات، هـذا أَمـرٌ يُمكننـي فَهمُـه"، قـال سـايم متأمِّـلًا، "كلهـم مجانـين تقريبًـا. لكـن الإمسـاك بحفنـة مـن الجنتلمانـات العجائـز الأشرار ذوي الهوايـات شيءٌ، والاسـتيلاء عـلى الأُمَـمِ المسـيحية العظيمـة شيءٌ آخـر. أُراهِـنُ بنـزع أنفـي عـن وجهـي (اعـذُرني عـلى التلميـح) بـأن الأحـد سـيقف عاجـزًا بالكامـل أمـام مَهمَّـةِ تحويـل أي شـخص عـادي يتمتَّـع بالصِّحَّـة في أيِّ مـكان".

"حسـنًا"، قـال الآخـر، "هـذا يعتمـد بعـضَ الـشيء عـلى نـوع الشـخص الـذي تقصـده".

"حسـنًا، عـلى سـبيل المثـال"، قـال سـايم، "لا يمكنـه أبـدًا تحويـل ذلـك الشـخص"، وأشـار مباشرةً أمامـه.

كانوا قد وصلوا إلى مساحَةٍ مفتوحة غارقة في ضوء الشمس، بَدَت في نظر سايم كالعودة الأخيرة لإدراكه السليم؛ في وسط هذه الغابة كان الخَلاءُ بمثابة رَمزٍ قد يُعبِّر جيِّدًا عن الإدراك السليم بواقعيَّة مُريعَةٍ بعض الشيء. مُحتَرِقًا بالشمس ومُلوَّثًا بالعرق، ومُثقَلًا بالوقار الذي لا قرارَ له للمساعي الضرورية الصغيرة، كان فلَّاحٌ فرنسيٌّ مُتثاقِلٌ يقطع الأخشاب بفأس. عربته تقف على بُعد أمتار قليلة، ممتلئة إلى نصفها بجذوع الشجر؛ والحصان الذي يقتات على العشب كان -كَسَيِّده- شُجاعًا لكن ليس بائِسًا؛ بل كان -كَسيِّده أيضًا- مُنتَعِشًا لكن يشوبه بعض الحزن. كان الرجل نورمانديًّا، أطول من الفرنسي العادي وهزيلًا جدًّا؛ وهيئته الدَّاكِنَة مُنتَصِبَة حاجِبَةً مُربَّعًا من ضوء الشمس، كتشبيهٍ رمزيٍّ للعمل والكَدِّ المرسوم على أرض من الذهب.

"يقول السيد سايم"، صاح راتكليف قائلًا للكولونيل الفرنسي، "إن هذا الرجل -على الأقل- أبدًا لن يكون فوضويًّا".

"السيد سايم على صوابٍ بعض الشيء"، أجابه الكولونيل دوكروا، ضاحكًا، "فقط إن كان السبب أن لديه الكثير من الممتلكات للدفاع عنها. لكنني نسيتُ أنكم لستم مُعتادين في بلادكم على أن يكون الفلَّاحون أثرياء".

"يبدو فقيرًا"، قال دكتور بولْ متشكِّكًا.

"بالضَّبط"، قال الكولونيل؛ "ولهذا فهو ثريٌّ".

"لديَّ فكرة"، صاح دكتور بولْ قائلًا فجأة؛ "كم سيطلب مَثَلًا لأَخذِنا في توصيلةٍ في عربته؟ هؤلاء المطاردون يسيرون على أقدامهم، وبالتالي يمكننا أن نُخلِّفَهم وراءنا".

"أوه، امنَحْه ما يريد!"، قال سايم بحماس. "أحمل معي أكوامًا من المال".

"لن يقبل أبدًا"، قال لهم الكولونيل؛ "لن يمنحَكُم أيَّ احترامٍ ما لم تساوِمُوه".

"أوه، هذا إذًا فاصَلَ في السِّعر!" قال بولْ بنَفادِ صَبرٍ.

"إنه يُفاصِلُ لأنه رجلٌ حُرٌّ"، قال الآخر. "لا تفهم ذلك؛ لن يُدرِكَ معنى الكرم. لا يقبل البقشيش بالأحرى".

وحتَّى أثناء سَماعِهم لوقع الأقدام الثقيلة لمُلاحِقيهم وراءهم، اضطرُّوا للوقوف والثَّبات في أماكنهم حتى يتحدَّث الكولونيل الفرنسي إلى قاطع الأخشاب الفرنسي بكل المزاح والمشاكسة التي تليق بسوقٍ شَعبيٍّ بلا أيِّ استعجال. في نهاية الدقائق الأربعة، رغم ذلك، اكتشفوا أن الكولونيل كان على حَقٍّ؛ فقد انغمس قاطع الأخشاب في خُطَطِهم، ليس بالعبوديَّة الغامضة لعامِلٍ دُفِعَ له بسخاء، لكن بجدِّيَّة مُحامٍ يتلقَّى أتعابه الملائمة. أخبرهم أن أفضل شيء أمامهم هو أن يتَّخذوا طريقهم إلى النُّزُل الصغير على التلال المطِلَّة على لانسي، وفيه حتمًا سيتعاطَف معهم صاحب النُّزُل، وهو جنديٌّ عجوز أصبح تَقيًّا في سنواته الأخيرة، إلى درجة تَحَمُّل مخاطِرِ مُساعَدتِهم. بالتالي، تكوَّمَت الصُّحبَة بأكملها على أكداسِ الخشب، وانطلقوا متأرجحين على العربة البدائية نزولًا إلى الجانب الآخر الأكثر انحدارًا من الغابة. ورغم أن المركبة كانت مُتداعِيَةً ومتثاقلة، إلا أنها مَضَت بسرعة معقولة، وسريعًا ما راوَدَهم الانطباعُ المبهِجُ بأنهم ابتعدوا تمامًا عن مُطارِديهم، أيًّا مَن كانوا؛ ذلك أنهم لم ينجحوا حتى الآن في حَلِّ لُغزِ كيف نجح الفوضويُّون في جمع كُلِّ هؤلاء الأتباع. كان يكفيهم وجودُ رَجُلٍ واحد؛ وقد هربوا فورَ رؤيتهم للابتسامة المشوَّهة للسكرتير. كان سايم يتلفَّتُ من حينٍ وآخر إلى الجيش في إثرِهم.

مع تَخفُّف الغابة من الأشجار أوَّلًا ثم انكماشها مع ابتعادهم عنها ماضين في طريقهم، كان بإمكانه أن يرى المنحدرات المشمِسَة وراء

الغابة وحولها؛ وعبر هذه المنحدرات كان الحَشدُ الأسود المربَّع ما زال يتحرَّك كخنفسة هائلة. عبر ضوء الشمس القوي جدًّا وعينيه القويَّتَيْن جدًّا، تِلِّسكوبيَّةِ القُدرَة تقريبًا، كان بإمكان سايم رؤية هذه الكتلة من الرجال بوضوحٍ تام، بل ورؤيتهم كأشكالٍ بشريَّةٍ مُنفَصِلَةٍ؛ لكنه اندهش تمامًا من الطريقة التي يتحرَّكون بها كرَجُلٍ واحد. بَدَوا وكأنَّهم يرتدون ملابِسَ داكِنَةً وقُبَّعاتٍ بَسيطةً، كأيِّ زحامٍ عاديٍّ يخرج إلى الشوارع؛ لكنه لا ينتشر ويتمدَّد ويقتفي أثر خطوطٍ عديدة وصولًا إلى نقطة الهجوم، كما يفعل أي طُغمَة من الرِّعاع. كانوا يتحرَّكون بشكلٍ من أشكال التَّخشُّب المريع والشِّرير، كجيشٍ من الآلات الزَّاحِفَة.

أشار سايم بهذا إلى راتكليف.

"نعم"، أجابه الشُّرطيُّ، "هذا ما يُسمَّى بالانضباط. هذا هو الأحد. ربما يكون على بعد خمسمائة ميل، لكن الخوف منه مزروعٌ فيهم جميعًا، كإصبع الرَّبِّ. نعم، يسيرون بانتظام؛ ولكَ أن تُراهِنَ بحذائِكَ الطويل أنهم يتحدَّثون بانتظام، وبل ويفكِّرون بانتظامٍ. لكن الأمر الهام لنا هو أن يختفوا بانتظام".

أومأ سايم. كان من الحقيقي أن اللطخَةَ السوداء من الرجال المطارِدِين كانت تنكمش أكثرَ وأكثر كلَّما ضرب الفلَّاحُ حِصانَه بشدَّة.

انسابَت صفحةُ الأرض المشمِسَة، رغم استوائها في المجمَلِ، هابِطَةً على الجانب البعيد من الغابة في أمواج من التَّحدُّر الشديد نحو البحر، بطريقةٍ لا تختلف كثيرًا عن المنحدرات السُّفلَى لتلال ساسيكس الصغيرة. الفَرقُ الوحيد أن الطريق في ساسيكس كان أحيانًا ما ينقطع ويَذوي كينبوعٍ صغير، لكن هنا كان الطريق الفرنسيُّ الأبيض يمتدُّ أمامهم مُنطَلِقًا كشلَّال مياه. على هذا الانحدار المباشر كانت العربة تُقَعقِعُ بزاويةٍ كبيرة، وفي غضون دقائق، مع ازدياد الطريق انحدارًا،

رأوا أسفلهم ميناء لانسي الصغير وقوسَ البَحرِ الأزرق الهائل. كانت سحابة أعدائهم المتَنقِّلَة قد اختفت بالكامل من الأُفُق.

اتَّخذ الحصانُ والعربة استدارةً حادَّةً حول أَجَمَةٍ من أشجار الدِّردار، وأَوشَكَ أنفُ الحصان على ضرب وجه چنتلمان عجوز كان يجلس على المقاعد الطويلة خارج مقهى صغيرٍ اسمه "لو سولي دي أور" (شمس الذهب). غَمْغَمَ الفلَّاحُ باعتذارٍ، وهبط من مجلسه. نزل الآخرون أيضًا واحدًا بعد آخر، وتحدَّثوا إلى الچنتلمان العجوز بعباراتٍ مُتشظِّية من المجامَلات؛ ذلك أنه كان من الواضح تمامًا من طريقته الرَّحراحَة أنه مالِكُ الحانة الصَّغيرة.

كان أبيضَ الشَّعر، بوجهٍ تُفَّاحِيٍّ لصَبيٍّ صغير، وعينين ناعِسَتَيْن وشارِبٍ رَماديٍّ؛ بدين، متبطِّل، وبريء جدًّا، من النوع الذي يمكن العُثورُ عليه في فرنسا، لكنه مع ذلك أكثرُ شيوعًا في ألمانيا الكاثوليكيَّة. كل شيء بشأنه: غليونه، الإناء الذي يحتسي فيه البيرة، أزهاره، وقَفيرُ النَّحل بجواره- كان يوحي بسلامٍ مُتوارَثٍ؛ فقط عندما تطلَّع الزائرون إلى أعلى أثناء دخولهم لرَدهَةِ النُّزُل، رأوا السيف مُعلَّقًا على الحائط.

انطلق الكولونيل، بعد أن حيَّا صاحب النُّزل كصديق قديم، مُسرِعًا إلى رَدهَةِ النُّزُل، وجلس بعد أن طلب بعض المرطِّبات الطُّقوسيَّة. أثار الحَسمُ العسكري لأفعاله اهتمامَ سايم، الذي جلس إلى جواره وانتهز الفرصة بعدما انطلق صاحب النُّزُل العجوز من أجل إرضاء فضوله.

"هل لي أن أسألَكَ، يا كولونيل"، قال بصوتٍ خفيض، "لماذا جِئنا إلى هنا؟".

ابتسم الكولونيل دوكروا من وراء شاربه الأبيض المتوهِّج.

"لسَبَبَيْن، يا سيدي"، قال له؛ "وسأُخبِرُكَ بالأوَّل، ليس لأنه أكثر أهميَّةً، لكن لأنه أكثر نَفعًا. جئنا إلى هنا لأن هذا هو المكان الوحيد على مدى عشرين ميلًا الذي يُمكِننا الحصولُ منه على أحصِنَة".

"أحصنة!"، كرَّر سايم، رافعًا بصره إليه.

"نعم"، أجاب الآخر؛ "إذا شئتم أن تبتعدوا حقًّا عن أعدائكم فهي الأحصنة ولا شيء آخر، بالطبع ما لم يكن لديكم درَّاجات وسيارات في جيوبكم".

"وإلى أين تنصحنا بأن نَتَّجِهَ؟"، سأله سايم متشكِّكًا.

"بلا أدنى شَكٍّ"، أجابه الكولونيل، "من الأفضل لنا أن نُسرِعَ إلى مخفر الشرطة وراء المدينة. يبدو لي أن صديقي، الذي كنتُ معاونًا له في مُبارَزَةٍ وَقَعَت في ظلِّ ظروفٍ مُخادِعَة بعض الشيء، يبالِغُ كثيرًا في إمكانيات ثورة شامِلَة؛ لكن حتى هو ليس بإمكانه أن يقول -على ما أعتقد- أننا لن نكون في مأمَنٍ مع رجال الدَّرَك".

أومأ سايم بجدِّيَّة؛ ثم قال بغتةً:

"والسبب الثاني للمجيء إلى هنا؟".

"سببي الثاني للمَجيء إلى هنا"، قال دوكروا بوقار، "لأنه من المناسب جدًّا أن نرى رَجُلًا صالحًا أو اثنين عندما يكون المرءُ على وشك الموتِ".

تطلَّع سايم لأعلى إلى الحائط، ورأى اللَّوحَةَ الدِّينيَّة الحزينة المرسومة على نحوٍ غير بارِعٍ. ثم قال:

"أنتَ على حَقٍّ"، ثم بعد ذلك على الفور، "هل اهتمَّ أَيُّ شَخصٍ بمسألة الأَحصِنَة؟".

"نعم"، أجابه دوكروا، "لك أن تَطمَئِنَّ أنني أصدرتُ أوامري في اللحظة التي دلفتُ فيها إلى النُّزُل. أعداؤك هؤلاء لم يُبدُوا أيَّ حِسٍّ بالاستعجال، لكنهم يتحرَّكون بسرعة مُثيرَةٍ للإعجاب حقًّا، مثل جيش مدرَّبٍ جيِّدًا. لم أتخيَّل أبدًا أن يكون الفوضويُّون مُنضَبِطين بهذا الشكل. ليس أمامنا لحظة واحدة لإضاعتها".

في أثناء حديثه، جاء صاحِبُ النُّزل العجوز ذو العينين الزروقاوين والشعر الأبيض متهاديًا إلى القاعة، وأعلن أن الأحصنة السِّتَّة مُسْرَجَة في الخارج.

بحسب نصيحة دوكروا تزوَّد الخمسة الآخرون ببعض الطعام والنبيذ الذي يمكن حمله معهم، واحتفظوا بسيوف المنازَلَةِ؛ كونها الأسلحة الوحيدة المتوفِّرة، ومضوا بصخَبٍ نازلين عبر الطريق المتحدِّر الأبيض. خلَّفوا وراءهم الخادِمَيْن، اللَّذَيْن كانا يحملان حقائب الماركيز عندما كان ماركيزًا، حتى يحتَسِيَا الشراب في المقهى بعد موافقة الخمسة بالإجماع، وليس على الإطلاق ضدَّ رغبتهما.

عند هذه اللحظة، أصبحت شمس الظهيرة مائِلةً نحو الغرب، وبشُعاعها كان بإمكان سايم رؤية الشكل البشريِّ الصلب لصاحب النُّزُل العجوز ينكمش أكثر وأكثر، لكنه ما يزال واقفًا مُتطلِّعًا في إثرهم بصمتٍ. وضياءُ الشمس يتخلَّل شَعرَه الفضِّيَّ. أصاب سايم توهُّمٌ واضحٌ متطيِّرٌ، خلَّفته في عقله تلك العبارة التي نطق بها الكولونيل عَرَضًا، أن هذا الرجل ربما كان بالفعل هو آخِرُ الغُرباءِ الصالحين الذي يتوجَّب عليه رؤيته عند الموت.

كان ما زال يتطلَّع إلى هذا الشكل البشري المتلاشي، الذي كان يقف كلطَخَةٍ رماديَّة يشوبها لهبٌ أبيض على خلفية من الجدار الأخضر العظيم للمُنحَدَرِ المستقِرِّ وراءه. وبينما هو يحملق في أعلى المنحدر وراء صاحب النُّزل، تراءى له جيش الرجال الزاحفين المتَّشِحين بالسَّواد. بَدَوْا وكأنهم مُعلَّقون فوق الرجل الصالح ومنزله كسحابةٍ سوداء من الجراد، وحينها بالضَّبط ارتَقَوْا جِيادَهم.

مكتبة
t.me/t_pdf

الفصل الثاني عشر

الأَرضُ في فَوضَى

حاثِّين جِيادَهم على العَدْوِ مُسرِعَةً، بلا أيِّ اعتبار للتَّحذُّر المثلَّم بعض الشيء للطريق، سرعان ما نجح الخيَّالةُ على استعادة تفوُّقهم على الرجال الزاحفين، وأخيرًا ظهرت أوَّلُ كتلة للأبنية في لانسي وحَجَبَت عنهم مُلاحقيهم. رغم ذلك، كانت المسيرة طويلة، وفي اللحظة التي وصلوا فيها إلى المدينة الحقيقية كان الغرب يشتعل بلَونِ ومِزاجِ الغروب. أشار الكولونيل إلى أنهم -قبل التَّوجُّه في النهاية إلى مخفَرِ الشُّرطَة- عليهم أن يبذلوا جهدًا، بصورة مُؤقَّتة، لإضافة شخصٍ آخر إليهم قد يكون مُفيدًا.

"أربعة من الرجال الخمسة الأثرياء في هذه المدينة"، قال لهم، "هم محتالون معروفون. أقترح أن هذه النسبة متساوية إلى حدٍّ كبير في باقي العالم. الخامس صديقٌ لي، وهو رجلٌ رائع جدًّا؛ والأكثر أهمِّيَّة بالنسبة لنا، أنه يملك سيَّارة".

"أخشى"، قال البروفسور بطريقَتِه المنتشية، مُتَطلِّعًا إلى الوراء على طول الطريق الأبيض الذي قد تظهر عليه اللطخة السوداء، الزَّاحِفَة في أي لحظة، "أننا بالكاد لدينا أي وقتٍ من أجل زياراتٍ ما بعد الظهيرة هذه".

"منزل دكتور رينار على بُعدِ ثلاثِ دقائِقَ فقط"، قال الكولونيل.

"الخطر الذي يتربَّص بنا"، قال دكتور بولْ، "لا يبعد دقيقَتَيْن".

"نعم"، قال سايم، "إذا تابعنا طريقنا بسرعة فلا بُدَّ أن نُخلِّفَهم وراءنا، فهم مُترجِّلون على أقدامهم".

"إنه يملك سيَّارَةً"، قال الكولونيل.

"لكنَّنا قد لا ننجح في الحصول عليها"، قال بولْ.

"نعم، لكنه في صَفِّنا تمامًا".

"لكنَّه قد يكون في الخارج".

"أَمسِكْ لسانكَ"، قال سايم فجأة. "ما هذه الضوضاء؟".

لثانية تجمَّدوا في أماكنهم كتماثيل الفرسان، ولثانية -أو لثانيتين أو ثلاثٍ أو أربعٍ- بَدَت السَّماءُ والأرض وقد تجمَّدَتا بدورهما. حينها تناهت إلى سمعهم، في الْتِياعِ الانتباه، عبر الطريق، تلك الرعشة التي لا توصَفُ والخفقات التي لا تعني سوى شيء واحد: أحصِنَة!

تبدَّى على وجه البروفسور تَغَيُّرٌ لحظيٌّ، كما لو أنه قد ضُرِب بصاعِقَةٍ ومع ذلك خلَّفته بلا أذًى.

"لقد لحقوا بنا"، قال لهم، بسخرية عسكريَّةٍ مُقتَضَبَة. "استعدُّوا لاستقبال الخَيَّالة!".

"من أين تحصَّلوا على الأحصِنَة؟"، سأله سايم، وهو ينخس جواده تلقائيًّا.

كان الكولونيل صامتًا للحظات، ثم قال بصوت متوتِّر:

"كنتُ أتحدَّث بدِقَّةٍ شديدة عندما قلتُ إن "شمس الذهب" كانت المكان الوحيد الذي يمكننا التَّحصُّل منه على أحصِنَةٍ في نطاق عشرين ميلًا".

"لا!"، قال سايم بعنف، "لا أعتقد أنه يمكن أن يفعل ذلك. ليس بكل ذلك الشَّعر الأبيض".

"ربما فعل ذلك مضطرًّا"، قال الكولونيل برفق. "لا بُدَّ أنهم أقوى بمائة مَرَّة؛ لهذا السبب سنذهب جميعًا إلى صديقنا رينار، الذي يملك سيَّارةً".

بهذه الكلمات طوَّح بجواده بعُنفٍ مُنعَطِفًا عند إحدى زوايا الشارع، وانطلق قُدُمًا بسرعة مُدويَّة، لحَدٍّ أن الآخرين، رغم خَبَبِهم بسرعَةٍ معقولة، وجدوا صعوبةً في اللحاق بالذيل المتطايِر لجواده.

كان دكتور رينار يقطن في منزلٍ مُريحٍ وعالٍ على قمَّة شارعٍ مُتحدِّر؛ لذلك عندما ترجَّل الخيَّالة من على جِيادهم عند بابه كان بإمكانهم رؤية الحافَّة الخضراء للتَّلِّ، والطريق الأبيض يمرُّ عَبرَها، وهم واقفون فوق كل أسقف المدينة. التقطوا أنفاسهم من جديد عندما رأوا أن الطريق أصبح خاليًا، ثم قرعوا جرس الباب.

كان دكتور رينار ذا لِحيَةٍ برَّاقةٍ، بُنِّيَةِ اللَّونِ، مثالٌ جيِّد على تلك الطبقة المهنيَّة الصامتة، لكن المشغولة جدًّا التي طالما نجَحَت فرنسا في الحفاظ عليها مقارنةً بإنجلترا. عندما أُثيرَت المسألة أمامه أبدى استهانته المطلَقَة بفَزَع الماركيز السابق؛ وقال له، بالتَّشكُّكيَّة الفرنسية الحادَّة، إنه لا يوجد أدنى احتمال بأن تنشِبَ ثَورةٌ فَوضويَّةٌ شاملة. "الفوضوية"، قال له، هازًّا كتفيه بلا مبالاة، "مُجرَّدُ أمرٍ طفوليٍّ!".

•

"والأمر هكذا"، صاح الكولونيل فجأةً، مشيرًا من فوق كتف الآخر، "فإن ما تراه أمرٌ طفوليٌّ أيضًا، أليس كذلك؟".

تطلَّعوا جميعًا من حولهم، وشاهدوا انعطافةَ الخَيَّالة السُّود تنزاح على قِمَّة التَّلِّ بكل طاقة أتيلا[1]. لكن رغم سرعة انطلاقهم، كانوا كتلةً تحافظ على التحامها، وكان بإمكان سايم ورفاقه رؤية الأقنعة السوداء للصَّفِّ الأول مُرتَّبةً كصَفٍّ من الأَرديَة المتطابِقَة. لكن رغم أن المربَّع الرئيسي كان على نفس الشَّاكِلَة، رغم سيره على نحوٍ أسرع، لاحظوا الآن اختلافًا مثيرًا على منحدَرِ التَّلِّ، كما لو كان على خريطة مائِلَةٍ. كانت كتلة الخيَّالة في مجموعة واحدة؛ لكنَّ فارِسًا واحِدًا منهم انطلق بعيدًا متقدِّمًا على الصفوف، وبحركاتٍ مُهتاجَةٍ من رأسه وكَعبِه نَخَسَ جَوادَه أسرعَ وأسرعَ، حتى أصبح من الممكن أن يتخيَّل المرءُ أنه لم يَعُدْ مطارِدًا بل مطارَدًا. لكن حتى من تلك المسافة الكبيرة كان بإمكانهم رؤية شيء ما طائشًا لا يمكن التَّشكيك في هيئته البشرية، لحَدِّ أنهم تيقَّنوا أنه كان السكرتير نفسه. "يُؤسِفُني قَطعُ نِقاشِكُم المتحضِّر"، قال لهم الكولونيل، "لكن هل لك أن تُقرِضَني سيَّارَتَكَ الآن، في غضون دقيقتَيْن؟".

"أشكُّ كثيرًا بأنكم مجانين جميعًا"، قال لهم دكتور رينار، مبتسمًا بمودَّة؛ "لكن الجنون لا قدَّر الله لا ينبغي أن ينهي الصداقة. لنذهب إلى المرآب معًا".

كان دكتور رينار رجلًا لطيفًا ذا ثروة مهولة؛ كانت غُرَفُ منزله كمُتحَفِ دي كلوني للعصور الوسطى، يمتلك ثلاث سيارات. رغم ذلك، بدا أنه نادرًا جدًّا ما يستخدمها؛ كونه يتمتَّع بالذائقة البسيطة للطَّبقة المتوسِّطة الفرنسية، وعندما أقبل أصدقاؤه المتلهِّفون على

(1) أتيلا الهوني، كان آخِرَ حُكَّام الهون (Huns) وأقواهم، وأسَّس في إقليم روسيا وأوروبا إمبراطوريَّةً كبيرةَ الاتِّساع، عاصمتها في ما يُسمَّى هنجاريا اليوم- (المترجم)

فَحْصِها، استغرق الأمرُ منهم بعضَ الوقت لطمأنَةِ أنفسهم أنَّ واحدة منها يمكنها أن تعمل بالكاد، تلك التي نجحوا بصعوبةٍ نِسبيَّةٍ في جلبها إلى الشارع أمام منزل الدكتور. عندما خرجوا من المرآب المعتم جَفَلوا عندما اكتشفوا أن الشَّفَقَ قد حلَّ بالفعل بسرعة حلولَ الليل في الغابات الاستوائية. إمَّا أنهم ظلُّوا في المكان لأطول ممَّا يتخيَّلون، أو أن خيمةً استثنائية من السُّحُب قد تجمَّعَت فوق المدينة. تطلَّعوا إلى أسفل الشوارع المتحدِّرة، وبدا أنهم يرون ضبابًا رقيقًا يصَّعَّدُ من البحر.

"الآن أو لا للأبد"، قال لهم دكتور بولْ. "أسمع الجياد".

"لا"، صحَّح له البروفسور، "بل جواد واحد".

ومع إنصاتهم إليها، كان من الواضح أن الضوضاء، المقتربة بسرعة على أحجار الطريق المجَلجِلَة، لم تَكُن ضوضاء موكِبِ الفرسان بأكمله، بل ضجيج ذلك الخيَّال الواحد، الذي خلَّف الموكب وراءه من بعيد- السكرتير المجنون.

ذات مرَّةٍ امتلَكَت عائلة سايم -كمعظم العائلات التي لم تَعُد تحيا حياةً بسيطة- مَركَبَةً بمُحرِّك، وبالتالي كان عليمًا بها. كان قد قفز على الفور إلى مقعد السائق، وبوَجهٍ مُحتَقِنٍ انخرط في ثَنيٍ وشَدٍّ الآلة التي طال إهمالُها. انحنى بكل قوَّته على المقبض، ثم قال بهدوءٍ تامٍّ:

"أخشى أنها لن تعمل".

أثناء حديثه، توقَّفَ رَجُلٌ فجأةً حول زاوية الشارع مُتخشِّبًا على جواده المندفع، باندفاع وتخشَّب السَّهم. على وجهه انطَلَقَت ابتسامةٌ أوشَكَت على خلخلة ذقنه. انطلق بمحاذاة السيَّارة الهامِدَة، التي تكدَّسَت فيها الصُّحبَة الحاضِرَة، ووضع يده على مُقدِّمَتها. كان السكرتير، وانبثق فمُه مستقيمًا تمامًا بمهابَةِ الانتصار.

كان سايم مُنحَنيًا بشدَّة على عجلة القيادة، والصَّمت مُهَيْمِنٌ بلا أيِّ صَوتٍ سوى قَعقَعَةِ الملاحِقين الآخرين السَّائرين نحو المدينة. ثم فجأةً صَدَحَت صرخةٌ من الحديد المحتَكِّ في السيارة التي قفَزَت للأمام. انتزعت السيارة السكرتيرَ وأطارته من سَرجِه، كسكِّينٍ ينطلق من غَمدِه، وأسقطَته برَفْسَةٍ مُريعة على بعد عشرين ياردة؛ وخلَّفَته هامِدًا تمامًا على الطريق بعيدًا أمام جواده المرتعب. مع انعطاف السيارة عبر زاوية الشارع بانحناءة بديعة، كان بإمكانهم رؤية الفوضويِّين الآخرين يملؤون الشارع ويُنهضِون قائِدَهم السَّاقِطَ.

"لا أفهم لماذا أظلمت فجأةً"، قال البروفسور أخيرًا بصوتٍ خفيضٍ.

"سيتحوَّل الظلام إلى عاصِفَةٍ على ما أعتقد"، قال دكتور بولْ. "من المؤسف أننا لا نملك مصباحًا في هذه السيارة، حتى نرى طريقنا على الأقل".

"بل لدينا"، قال الكولونيل، ومن أرضيَّة السيارة أخرج مِشكاةً ثَقيلَةً حديديَّة مُنحَنِيَة، من طرازٍ قديم، بمصباح داخِلَها. كان من الواضح أنها مِشكاةٌ أثريَّة، وليس من المستَبعَد أن استخدامها الأصلي كان شِبهَ دينيٍّ بشكل بما؛ ذلك أن على أحد جوانبها برَزَت آثارٌ خَشِنَةٌ لصليبٍ.

"من أين حصَلتَ عليها؟" سأله البروفسور.

"حصَلتُ عليها من حيث حصلت على السيارة"، قال الكولونيل، ضاحِكًا بخفوتٍ، "من أعزِّ أصدقائي. فبينما كان صديقنا هنا يناضل مع عجلة القيادة، هرعتُ صعودًا عبر الدَّرَج الأمامي للمنزل وتحدَّثتُ إلى رينار، الذي كان يقف في رواق منزله كما تذكَّر. "أعتقد"، قلتُ له، "أن لا وقتَ لدينا للحصول على مصباح". تطلَّع لأعلى، طارِقًا بمودَّة للسقف المنحني البديع لشُرفَتِه الأمامية. منه كانت تتدلَّى، بسلاسِلَ من الشِّباك الحديدية المذهِلَة، هذه المشكاة، كَنزٌ من مئات الكنوز في

منزله العامر بالكنوز. بقوَّةٍ عموديَّةٍ انتزع المصباحَ من سقف منزله، مُحطِّمًا إلى شظايا الألواحَ المطليَّةَ، وبعنفه هذا أسقط مزهريَّتَيْن زرقاوين. ثم ناولني المشكاة الحديدية، ووضعتها في السيارة. ألم أكن مُحِقًّا في قولي إن دكتور رينار إنسان جدير بالمعرفة؟".

"نعم، كنتَ على حقٍّ"، قال سايم بجدِّيَّة، ثم قام بتعليق المشكاة الثقيلة على المقدِّمة. في موقفهم هذا بأكمله تَبَدَّت صورةٌ رَمزيَّةٌ بعينها عبر التناقُض بين الأتوموبيل الحديث ومصباحها الإكليركي العجيب. انطلقوا بعد ذلك عبر الجزء الأكثر هدوءًا من المدينة، مُصادِفين على الأكثر واحدًا أو اثنين من العابرين، الذين لم تظهر عليهم أي إشارة تدلُّ على مُسالَمةٍ أو عَدائيَّة المكان. الآن، رغم ذلك، بدأت النوافذ على المنازل في الاستضاءة واحدة بعد الأخرى، مانِحَةً شعورًا أكبرَ بالاستقرار والإنسانية. استدار دكتور بولْ إلى المحقِّق السري الجديد الذي كان يقود المعركة حتَّى الآن، وأضفى على نفسه واحِدَةً من ابتساماته الودودة والتلقائيَّة.

"هذه الأنوار تَمنَحُ المرءَ مزيدًا من البهجة.

قطَّب المفتِّشُ راتكليف حاجِبَيْه معًا.

"لا توجد سوى مجموعةٍ واحدة من المصابيح تمنحني البهجة"، قال له، "وهي أنوار مخفَرِ الشُّرطة الذي يُمكِنني أن أراه وراءَ المدينة. أرجو الرَّبَّ أن نَصِلَ إلى هناك في عشر دقائق".

ثم انفَجَرَت تفاؤليَّةُ دكتور بولْ وذائِقَتُه السليم المتفجِّرة من داخله.

"أوه، هذا ليس إلَّا هَذَيانًا لا معنى له!"، صاح قائلًا. "إذا كنتَ تعتقد حقًّا أن الأناس العاديِّين في المنازل العادِيَّة هم فوضويُّون بدورهم، فلا بُدَّ أنك أكثر جنونًا من الفوضويِّين أنفسهم. إذا استدرنا وحاربنا تلكم الرجال فإن المدينة كلها ستنقلب وتحارب في صفِّنا".

"لا"، قال الآخَرُ ببساطَةٍ مُتصلِّبَة، "المدينة بأكملها ستحارب في صفِّهم. سنرى".

أثناء حديثهم كان البروفسور قد انحنى باستثارَةٍ مُفاجِئَة.

"ما هذا الضَّجيج؟" قال لهم.

"أوه، الجياد وراءنا ربما"، قال الكولونيل. "ظَنَنتُ أننا تَخلَّصنا منهم".

"الجياد وراءنا! لا"، قال البروفسور، "إنها ليست الجياد، وليست وراءنا".

في نفس اللحظة تقريبًا التي نطق فيها بتلك الكلمات، ظهر من خلفهم عبر نهاية الشارع شكلان لامعان مُقَعقِعان واندفعا بجوارِهم. كانت انطلاقتهما كوَمضَةٍ تقريبًا، لكنَّ الجميع رأوا أنهما كانا سيَّارَتَيْن، وحينها انتصب البروفسور ووجهُهُ شاحِبٌ وأقسم أنهما كانتا السيارتين الأُخرَيَيْن في مرآب دكتور رينار.

"أقول لكما إنهما سيَّارتاه"، كرَّر قائلًا، بعينين هائجتين، "وأنَّهما مُكتَظَّتَيْن برجالٍ ذوي أقنعة!".

"مستحيل!" قال الكولونيل بغَضَبٍ. "ليس لدكتور رينار أبدًا أن يمنحهم سياراته".

"ربما أجبروه على ذلك"، قال راتكليف بهدوء. "المدينة بأكملها في صَفِّهم".

"ما زِلتَ تُصدِّق ذلك"، سأله الكولونيل بارتيابٍ.

"ستُصدِّقون جميعكم ذلك قريبًا"، قال الآخر بهدوءٍ يائِسٍ.

حلَّ بهم صمتٌ مُرتَبِكٌ لوَهلَةٍ، ثم بدأ الكولونيل في الحديث ثانيةً فجأةً:

"لا، لا يمكنني تصديق ذلك. الأمر كلُّه هراء. الشعب البسيط لبلدة فرنسية مسالمة...".

انقطع حديثه بسبب هديرٍ ووهج مفاجئ من النور، بدا قريبًا من عينيه. مع تقدُّم السيارة خلَّفَت وراءها بُقعَةً طافِيَةً من الدخان الأبيض، وكان سايم قد سمع صيحةً انطلقت بجواره.

"يا إلهي!"، قال الكولونيل، "أحدهم أطلق علينا النار".

"لا تجعل ذلك يقطع حديثك"، قال راتكليف المتجهِّم."اسْتَمِرَّ في ملاحظاتِكَ رجاءً يا كولونيل. كنتَ تَتحدَّث، على ما أعتقد، عن الشعب البسيط لبلدةٍ فرنسيَّةٍ مُسالِمة".

لم يكن الكولونيل المحدِّق في حالة تسمح له بتمييز أي هجاء أو سخرية. أدار عينيه حول زوايا الشارع.

"مُذهِل"، قال لهم، "مُذهِلٌ بشكلٍ لا يُصدَّق".

"إن شخصًا مُرهَفَ الإحساس"، قال سايم، "قد يرى في ذلك شيئًا بغيضًا. إلَّا أنني أعتقد أن هذه الأضواء البعيدة في الحقل وراء هذا الشارع هي لرجال الدَّرَكِ. سنصل إليهم قريبًا".

"لا"، قال المفتِّش راتكليف، "لن نَصِلَ أبدًا إلى هناك".

كان أثناء قوله هذا مُنتَصِبًا يتطلَّع إلى ما أمامه بحماس. والآن جلس وأرخى شَعرَه الأَملَسَ بحركة يَملؤها الضَّجَر.

"ماذا تعني؟" سأله بولْ بحِدَّة.

"أعني أننا لن نَصِلَ إلى هناك أبدًا"، قال التشاؤُميُّ بهدوء. "لديهم صَفَّان من الرجال المدَرَّعين على الطريق بالفعل. بإمكاني رؤيتهم من هنا. المدينة مُحتَشِدَة لمحاربتنا، كما قُلتُ إنها كذلك. لا يسعني سوى التمرُّغ في الراحة العجيبة لدِقَّة آرائي المتناهية".

ثم جلس راتكليف بارتياحٍ في السيارة وأشعل سيجارةً، لكن الآخرين نهضوا باستثارَةٍ وبدؤوا جميعًا في التَّحديق إلى نهاية الطريق. كان سايم قد أبطأ السيَّارةَ بعد أن أصبحت خُطَطُهم مَوضِعَ شَكٍّ،

وأوقفها أخيرًا عند زاوية شارعٍ جانبيٍّ يهبط على نحوٍ حادٍّ جدًّا في اتجاه البحر.

كانت الظلال تملأ المدينة بأكملها، لكن الشمس لم تغرب بعد؛ ومتى استطاع شُعاعُها اختراقَ السُّحُب، كان يصبغ كلَّ شيء بلونٍ ذَهبيٍّ مُحتَرِق. على هذا الشارع الجانبي كان الضوءُ يسطع حادًّا وضيِّقًا كعمودٍ من النور الاصطناعي على خشبة المسرح. يضرب سيَّارَةَ الأصدقاء الخمسة، ويجعلها كمَركَبَةٍ حربيَّةٍ مُحتَرِقَة. لكن بقية الشارع، على طرفَيْه خصوصًا، كان غارقًا في الشَّفَق الداكن، ولبضع ثوانٍ لم يكن بإمكانهم رؤية أي شيء. وحينها أصدر سايم -الذي كان أَحَدَّهم نَظَرًا- صفيرًا ساخرًا قصيرًا.

"إن الأمر حقيقيٌّ تمامًا. يوجد زحام أو جيش أو شيء من ذلك القبيل في نهاية ذلك الشارع".

"حسنًا، حتى إن كان هذا صحيحًا"، قال بولْ بنَفادِ صَبرٍ، "فلا بُدَّ أنه شيء آخر- شِجارٌ مُصطَنَعٌ أو عيد ميلاد العُمدَة أو شيء ما. لا يمكنني ولن أصدِّق أن هؤلاء الناس البسيطين المبتهجين يمضون في مكانٍ كهذا، والديناميت في جيوبهم. انطلق للأمام قليلًا يا سايم، ولنُلقِ نظرة عليهم".

زحَفَت السيارة مائة ياردة تقريبًا للأمام، ثم جَفلَوا جميعًا بدكتور بولْ ينفجر في نوبة عالية من الضحك.

"يا إلهي، أنتم حفنَةُ البُلَهاء!" صاح قائلًا، "بماذا أخبرتكم. ذلك الزحام مُطيعٌ للقانون كبقَرةٍ، وحتى وإن لم يَكُن كذلك، فهو في صَفِّنا".

"كيف عرفتَ؟"، سأله البروفسور، مُحدِّقًا.

"أنتَ وطواطٌ أعمى"، صاح بولْ، "ألا ترى مَن يقودهم؟".

دقَّقوا النظر ثانيةً، ثم صاح الكولونيل، باندهاشَةٍ في صوته:

"يا إلهي، إنه رينار!".

كان أمامهم -بالفعل- صَفٌّ من الأشكال البشرية الغائِمَة تركض عبر الطريق، ولم يَكُن من الممكن رؤيتهم بوضوحٍ؛ لكنها قريبةٌ بما يكفي لمعرفة أن ضوء المساء العارِض لم يكن سوى دكتور رينار يخطو جيئةً وذهابًا، بقبَّعته البيضاء، مُخَلِّلًا أصابِعَه في لِحيَتِه الداكنة الطويلة، وحامِلًا لمسدَّسٍ في يده اليسرى.

"كم كنتُ أحمقَ!" قال الكولونيل متعجِّبًا. "بالطبع، لقد جاء الصبي العجوز لنجدتنا".

كان دكتور بولْ عاجزًا عن كَتمِ ضحكاته، مُؤَرجِحًا سيفه في يده بلا مُبالاةٍ كَعُكَّازٍ. ثم قفز من السيَّارة وهرع عبر المسافة الفاصلة، صائحًا:

"دكتور رينار! دكتور رينار!".

بعد ذلك بلحظة واحدة ظنَّ سايم أن عينيه قد جُنَّتا في رأسه. ذلك أن مُحِبَّ الخير دكتور رينار قد رفع مسدَّسه ببطءٍ وأطلق النار مرَّتين على بولْ، لِحَدِّ أنَّ الطلقتَيْن صَدَحَتا عبر الطريق.

في نفس اللحظة تقريبًا التي ارتفعت فيها هَبَّةُ السحابة البيضاء من هذا الانفجار المريع انطلقت أيضًا هبَّةٌ طويلة من سحابة بيضاء من سيجارة راتكليف صاحب المذهَبِ المتشَكِّك. كجميع البقية، أصبح شاحبًا قليلًا، لكنه ابتسم. انتصب دكتور بولْ، الذي أُطلِقَت عليه الرصاصتان، فاقدًا فَروَةَ رأسه فحسب، ساكنًا تمامًا في منتصف الطريق بلا أدنى إشارة على الخوف، ثم استدار ببطءٍ وزَحَفَ راجعًا إلى السيارة، وارتقاها بثُقبَيْن في قُبَّعته.

"حسنًا"، قال مُدخِّن السيجارة ببطء، "ما رأيكم الآن؟".

"أعتقد"، قال دكتور بولْ بحسم، "أنني أستلقي على سريرٍ في العقار رقم 217، مباني بيبودي، وأنني سأستيقظ قريبًا واثِبًا من الفِراش؛ أو أنني، إذا لم يكن الأمر هكذا، جالِسٌ في زنزانة صغيرة ذات وسائِدَ في هانويل، وأن الطبيب لا يستطيع تحديدَ حالتي. لكن إذا كانت ترغبون في معرفة ما لا أعتقده، فسأخبركم به. لا أعتقد ما تعتقدونه. لا أعتقد، ولن أعتقد أبدًا، أن حفنَةَ الرجال العاديِّين هؤلاء هم جماعة من المفكِّرين الحداثيِّين القَذِرين. لا يا سيدي، أنا ديمقراطيٌّ، ولا أظنُّ رغم ذلك أن الأحد بإمكانِه تحويل واحدٍ فحسب من العُمَّال البسيطين أو القافزين من على مناضد البيع. لا، قد أكون مجنونًا، لكن الإنسانية ليست كذلك".

استدار سايم بعينيه الزرقاوَيْن المتألِّقَتَيْن ناحيةَ بولْ بلهفَةٍ لم يُبيِّن مغزاها الواضِحَ.

"أنتَ رجلٌ نَبيلٌ جدًّا"، قال له. "بمقدورِكَ أن تؤمن بسلامة عقل الآخرين على أن تؤمن بسلامة عَقلِكَ. وأنتَ على حقٍّ تمامًا بشأن الإنسانية، بشأن الفلَّاحين والناس كصاحب النُّزُل العجوز المبتهج ذلك. لكنَّكَ لستَ على حَقٍّ بخصوص رينار، راوَدَتني شكوكٌ تجاهَه من البداية. إنه عقلانيٌّ، والأسوأ، أنه ثريٌّ. إذا نجح أحدهم في تدمير الواجب والدين حقًّا، فسيكون من الأثرياء قطعًا".

"إذن فقد تدمَّرا الآن حقًّا"، قال الرجل ذو السيجارة، واعتدل بيديه في جيبه. "الشياطين قادِمون!".

تطلَّع الرجال في السيارة بقلقٍ إلى تحديقَتِه الحالمة، ورأوا أن الكتيبة بأكملها في نهاية الطريق كانت تتقدَّم ناحِيَتَهم، دكتور رينار يزحف باهتياجٍ في المقدِّمة، لحيته مُتطايِرَة في الهواء.

قفز الكولونيل خارجًا من السيارة باندهاشٍ لا يقبل المساوَمَة.

"يـا سـادة"، صـاح قائـلًا، "هـذا الأمـر لا يُصـدَّق. لا بُـدَّ أنهـا مَزحَـةٌ ملعوبـة. إذا كنتُـم تعرفـون رينـار كـما أعرفـه؛ فالأمـر يشـبه أن تُسَـمُّوا الملكـة فيكتوريـا بمفجِّـرَة الديناميـت. إذا عرفتـم حقًّـا شـخصيَّة الرَّجُـل...".

"دكتـور بـولْ"، قـال سـايم سـاخرًا، "اكتشـف جوهـر شـخصيَّتَه عـبر الثُّقبَـيْن في قُبَّعَتِـه عـلى الأقـل".

"أقول لكم إن هذا لا يمكن!" صاح الكولونيل، ضارِبًا الأرض بقدَمَيْه.

"سيشرح رينار لكم الأمر. سيشرحه لي"، ثم خطا إلى الأمام.

"لا تتعجَّل هكذا"، تَشدَّق المدخِّن. "قريبًا جدًّا سيفسِّره لنا جميعًا".

لكـن الكولونيـل المتبـرِّم أصبـح بالفعـل بعيـدًا عـن مـدى السـمع، متقدِّمًـا نحـو العـدوِّ المتقـدِّم. رفـع دكتـور رينـار المسـتثارُ مُسدَّسَـه ثانيـةً، لكـن بعـد أن أدرك هويَّـةَ خصمِـه، تـردَّد قليـلًا، حتـى تقابَـلَ الكولونيـل معـه وجهًـا لوجـهٍ بإيمـاءاتٍ مُهتاجَـةٍ مـن الاحتجـاج.

"لا فائـدةَ مـن هـذا"، قـال سـايم. "لـن يحصـل عـلى أيِّ شيء مـن ذلـك الوَثنـيِّ العجـوز. أقـترح أن نصطـدم بهـم مُقتَحِمـين المنتصـف، أن نصطـدم بهـا كالرَّصاصـات التـي اخترَقَـت قُبَّعَـةَ بـولْ. قـد نُقتَـل، لكننـا لا بُدَّ سـنقتل عـددًا معقـولًا منهـم".

"لا أوافـق عـلى ذلـك"، قـال دكتـور بـولْ، وفجاجـة فضيلتـه المخلِصـة تتزايَـد في كلِّ لحظـة. "ربمـا كان هـؤلاء البائسـين يرتكبـون خَطَـأً. امنحـوا الكولونيـل فرصـة".

"هل نتراجع إذن؟" سأل البروفسور.

"لا"، قـال راتكليـف بصـوتٍ بـارد، "الشـارع وراءنـا تحـت سـيطرتهم أيضًـا. في الواقـع، أعتقـد أننـي أرى واحـدًا آخـر مـن أصدقائِـكَ يـا سـايم".

اسـتدار سـايم بمهـارةٍ، وحـدَّق للـوراء في الأثـر الذيـن خلَّفـوه. رأى كيانًـا غـيرَ مُنتَظِـمٍ مـن خيَّالـة يتجمَّعـون ويركضـون بجيادهـم نحوهـم

في الظَّلام. رأى أعلى سَرجِ المقدِّمة الوَهَجَ الفضِّيَّ لسَيفٍ، ثم رآه يرتفع ويقترب من الوهج الفضِّيِّ لشَعرِ رَجُلٍ عجوز. في اللحظة التالية، بعُنفٍ قاصِفٍ، كان قد طوَّح بالسيارة واستدار بها مندفعًا إلى الشارع الجانبي المتَحدِّر إلى البحر، كرجُلٍ لا يرغب سوى في الموت.

"ماذا يجري بحق الشيطان؟"، صاح البروفسور، قابضًا على ذراعَيْه.

"لقد سَقطَت نَجمَةُ الصَّباح!" قال سايم، مع انحدار سيَّارته نحو الظلام كنَجمٍ ساقِط.

لم يفهم الآخرون كلماته، لكنهم عندما تطلَّعوا وراءهم إلى الشارع في الأعلى كان بإمكانهم رُؤيَةُ الخَيَّالة العَدائيِّين يستديرون حول الزاوية نزولًا على المنحدرات في إثرِهم؛ وفي مُقدِّمَتِهم كان صاحب النُّزُل الصالح، مُحتَقِنًا بالغضب البريء لضوء المساء.

"العالم مجنون!" قال البروفسور، ثم دفن وجهه في يديه.

"لا"، قال دكتور بولْ بخنوعِ قاسٍ، "إنه أنا المجنون".

"ماذا سنفعل؟"، سأل البروفسور.

"في هذه اللحظة"، قال سايم، بتجرُّدٍ عِلميٍّ، "أعتقد أننا سنصطدم بعمود الإنارة".

في اللحظة التالية كان أن ارتَطَمَت السيارةُ بجسمٍ حديديٍّ مُرتَجَّةً على نحو كارثي. في اللحظة التي تَلَتها زَحَفَ الرِّجالُ الأربعة خارجين من السيارة تحت فوضى المعادِن، ثم برز أمامهم عمودُ إنارَةٍ طويلٍ وهزيل، كان ينتصب مباشَرَةً على حافَّة الرصيف البحري، ملتويًا ومنحنيًا، كفرع لشجرة مكسورة.

"حسنًا، لقد حطَّمنا شيئًا ما"، قال البروفسور، بابتسامَةٍ خافتة. "في هذا بعض العَزاء".

"أنت في طريقك لأن تُصبِحَ فَوضويًّا"، قال سايم، نافِضًا ملابِسَه بغريزته في التأنُّق.

"الجميع كذلك"، قال راتكليف.

أثناء حديثهم، اقترب منهم الفارس ذو الشَّعر الأبيض وتابِعاه صاخِبان من الأعلى، وفي نفس اللحظة تقريبًا كان طابورٌ قاتِمٌ من الرجال يهرَعون صائِحين على طول الجبهة البحرية. انتزع سايم سيفًا، ووضعه بين أسنانه؛ وغرز اثنين آخرين تحت إبطيه، ورابعًا في يده اليسرى والمشكاة في يده اليمنى، ثم قفز من الرصيف العالي هابطًا إلى الشاطئ من الأسفل.

قفز الآخرون في إثره، بقبولٍ مُشتَرَكٍ لذلك الإجراء الحاسم، مُخلِّفين وراءهم الرُّكامَ والطُّغمَةَ المتجمِّعة في الأعلى.

"أمامنا فُرصَةٌ واحدة أخرى"، قال سايم، نازِعًا السيف الحديديَّ من فمه. "أيًّا كان ما يعنيه هذا الهَرْجُ، أعتقد أن مخفَرَ الشرطة سيمنحنا العَونَ. لا نستطيع الوصول إلى هناك؛ فقد استولوا على الطريق. لكن هناك مرفأ أو حاجز أمواج ينطلق إلى داخل البحر هنا بالضبط، وهو ما يمكننا الدفاع عنه لفترة أطول من أيِّ شيء آخر، وكأنه هوراتيوس[1] وجِسره. علينا أن ندافع عنه حتى يصل رجال الدرك. ابقَوْا في إثري".

تَبِعَه الآخرون بينما وهو ينزل مُنسَحِقًا إلى الشاطئ، وفي ثانية أو اثنتين ارتطَمَت أحذيتهم الطويلة ليس بحصى البحر الصغير، لكن بأحجارٍ عريضة مستوية. زحفوا نازلين عبر رصيف طويل واطئ، مُسرعين في صَفٍّ واحد إلى البحر القاتم الهائج، وعندما وصلوا إلى

---

(1) كان بوبليوس هوراتيوس كوكليز (Publius Horatius Cocles) ضابطًا في جيش الجمهورية الرومانية المبكِّرة، ودافَعَ عن عائلة بونس سوميشيوس ضدَّ الجيش الغازي للملك الإتروري- (المترجم)

نهاية الرصيف شعروا بأنهم قد وصلوا إلى نهاية حكايتهم. ثم استداروا وواجهوا المدينة.

كانت تلك المدينة قد تغيَّرَت معالِمُها بفعل اللغط والهياج. على طول الحاجز البحري العالي الذي هبطوا منه لتوِّهم كان يسري الضَّبابُ المظلِمُ والصاخب للبشريَّة، بأذرعٍ مُطوِّحة ووجوهٍ غاضبة تحاول تَلَمُّسَهم وتتوهَّج ناحيتهم. كان الطابور المظلم الطويل مُرَقَّطًا بالمشاعل والمشاكي؛ لكن حتى في الموضع الذي لم يتوهَّج فيه وَجهٌ غاضِبٌ بعينه بفعل المشاعل، كان بإمكانهم أن يروا في ذلك الشكل البشري القَصِيِّ -بإيماءاته الأكثر قتامةً- كراهيةً مُنظَّمَةً. كان من الواضح أنهم رجال ملعونون من بين كل البشر، لكنهم لم يعرفوا السببَ.

قفز رجلان أو ثلاثة، ضَئيلين وسودًا كالقِرَدَة، على الحافَّة كما فعلوا وسقطوا على الشاطئ. جاءوا حارثين عبر الرمال العميقة، صائِحين على نحو مُرعِب، وناضلوا من أجل الخَوضِ في البحر عشوائيًّا. كانوا مثالًا يُحتَذَى، وسرعان ما بدأت الكتلة السوداء من الرجال بأكملها في الركض والتقطُّر على الحافَّة كالعسل الأسود.

في المقدِّمة بين الرجال على الشاطئ رأى سايم الفلَّاح الذي كان قد قاد عربتهم. انغمس ناشرًا الرَّذاذَ في الأمواج المتكسِّرة على حصانِ جَرٍّ هائل، وهزَّ فأسه ناحِيَتَهم.

"الفلَّاح!"، صاح سايم. "لكنَّ الفلَّاحين لم يثوروا منذ العصور الوسطى".

"حتى وإن جاءت الشرطة الآن"، قال البروفسور بحُزنٍ، "فليس بإمكانِها فِعلُ شيءٍ مع هؤلاء الأوباش".

"هراء!"، قال بولْ بيَأسٍ؛ "لا بُدَّ أنَّ بعض البشريين قد تخلَّفوا وراءهم في البلدة".

"لا"، قال المفتِّش اليائس"، "الكائن البشري سينقرض قريبًا. نحن آخر أفراد النوع البشري".

"ربما"، قال البروفسور بذهنٍ شاردٍ. ثم أضاف بصَوتِه الحالِم، "ماذا تقول نهاية (دونكيان)[1]؟".

"'لم يَعُد الوَهجُ العامُّ؛ ولا الخاصُّ، يجرؤ على السطوع؛

لم يَبقَ أيُّ نورٍ بَشريٍّ، ولا أي لمحة إلهيَّة!

انظر! لقد استُرِدَّت الفَوضى، مَليكَتُكَ؛

خَبَا الضَّوءُ أمامَ كلمَتِكَ باعِثَةِ العَدَم؛

يَدُكَ، الفوضويَّةُ الأكبر، تُمسِكُ بالسِّتار لإنزالِه؛

والظَّلامُ الكَونيُّ يَدفِنُ كُلَّ شيء"

"توقَّفوا!" صاح بولْ فجأةً، "ها هم رجال الدَّرَك".

كانت أضواء مخفَرِ الشُّرطَةِ الواطئة مُرَقَّطة، تقطعها أشكالٌ بشرية مسرعة، وعبر الظلام تناهى إلى سَمعِهم في الظلام صوتُ قَعقَعَةٍ وتَصادُمِ خيَّالَةٍ مُنضَبِطَة.

"إنهم يَشحِنون الغوغاء!" صاح بولْ بنشوةٍ أو كتحذير.

"لا"، قال سايم، "بل يتشكَّلون على طول الحاجز".

"لقد خلعوا بندقيَّاتهم"، صاح بولْ راقصًا باستثارة.

"نعم"، قال راتكليف، "وسيُطلقون النارَ علينا".

أثناء حديثه وصَلَت إليهم فَرقَعَةُ تَراشُق بالبنادق، وبَدَت الرصاصات وكأنها تتقافز كحبَّات البرَد على الأحجار أمامهم.

"لقد انضمَّ إليهم رجالُ الدَّرَك!" صاح البروفسور، وضرب جبينَه.

---

(1) The Dunciad: قصيدة سرَديَّة بطوليَّة لألكسندر بوب- (المترجم)

"أنا في الصَّومَعة المبطَّنة"، صاح بولْ بثباتٍ.

طغى عليهم صمتٌ طويل، ثم قال راتكليف، متطلِّعًا إلى ما وراء البحر المنتفخ بشكلٍ من أشكال الأرجوانيِّ الرَّماديِّ:

"ماذا يهمُّ مَن المجنون ومَن العاقل؟ قريبًا سنموت جميعًا".

استدار سايم إليه وقال:

"أنت يائِسٌ تمامًا، إذن؟".

بقيَ راتكليف صامِتًا كالحَجَر؛ ثم قال أخيرًا بهدوء:

"لا؛ الغريب أنني لستُ يائسًا تمامًا. لا يوجد سوى أملٍ ضَئيلٍ مجنون واحِدٍ لا أستطيع إخراجه من عقلي. قوَّة هذا الكوكب بأكملها تقف ضدَّنا، مع ذلك لا يسعني سوى التَّساؤل ما إذا كان هذا الأمل الضئيل العَبَثيُّ قد تحوَّل إلى يأسٍ بعد".

"في ماذا أو في مَن يَكمُن أمَلُكَ؟" سأله سايم بفضول.

"في رَجُلٍ لم أَرَه أبدًا"، قال الآخر، مُتطلِّعًا إلى البحر الرصاصي.

"أعرف ما تعنيه"، قال سايم بصوت خفيضٍ، "الرجل في الغرفة المظلِمَة. لكن لا بُدَّ أنَّ الأَحَدَ قد قتَلَه الآن".

"ربما"، قال الآخر بثباتٍ؛ "لكن حتى إن كان الأمر كذلك، فسيكون الرَّجُلَ الوحيدَ الذي وَجَدَ الأحَدُ صعوبةً في قتله".

"سمعتُ ما قلت"، قال البروفسور، بظهره وقد استدار. "أنا أيضًا أتشبَّث بقوَّةٍ بالشيء الذي لم أَرَه أبدًا".

على نحوٍ مُفاجِئٍ تمامًا، تطوَّح سايم، الذي كان يَقِفُ كما لو كان التفكير الاستبطاني قد حَجَبَ عينيه، وصاح قائِلًا كرَجُلٍ يستيقظ من نومه:

"أين الكولونيل؟ ظَنَنتُ أنه معنا!".

"لقد ذهب للتحدث إلى رينار"، قال البروفسور.

"لا يمكننا تَركُه بين هؤلاء الوحوش"، صاح سايم. "دعنا نموت كچنتلمانات إذا كان الأمر...".

"لا تُشفِقْ على الكولونيل"، قال راتكليف، بضحكةِ استهزاءٍ شاحِبَة. "إنه يتمرَّغ في الراحة. إنه...".

"لا! لا! لا!"، صاح سايم في ما يُشبِه السُّعار، "ليس الكولونيل أيضًا! لن أصدِّق هذا أبدًا!".

"هل تصدِّق عينيكَ؟"، سأله الآخر وأشار إلى الشاطئ.

كان الكثير من ملاحقيهم قد خاضوا في الماء هازِّين قبضاتهم، لكنَّ البحر كان هائِجًا، ولم يستطيعوا الوصول إلى الرصيف البحري. رغم ذلك، انتصب شكلان بشريَّان أو ثلاثة على بداية الممرِّ الحجري، وبدا أنهم يتقدَّمون بحَذَرٍ عليه. وَهَجُ مِشكاةٍ مُتقطِّعٍ كان يضيء وجوهَ الاثنين في المقدِّمة. أحد الوجهين يرتدي قناعًا أسودَ حتى منتصفه، وتحته كان الفَمُ يتلوَّى بجنونٍ عُصابيٍّ لحَدِّ أن خُصلات اللِّحيَة كانت تلتفُّ في دوائِرَ لا تنتهي كشيءٍ حَيٍّ، مضطرب. والآخر كان الوجه الأحمر والشارب الأبيض للكولونيل دوكروا. كانا مُنغَمِسَيْن في تشاوُرٍ حماسيٍّ.

"نعم، لقد رحل هو أيضًا"، قال البروفسور، وجلس على أحد الأحجار. "لقد اختفى كلُّ شيء. لقد انتهيتُ! لا يمكنني أن أَثِقَ في آلتي الجَسديَّة ذاتها. أشعر كما لو أن يدي قد تتطاير وتصفعني".

"عندما تتطاير يدي"، قال سايم، "فإنها ستصفع شخصًا آخر"، ثم خطا على طول الرصيف ناحية الكولونيل، السيف في يَدٍ والمشكاة في اليد الأخرى.

كما لو كان لتدمير آخر الآمال أو الشكوك، فإن الكولونيل، بعد أن رآه قادمًا، صوَّب مُسدَّسه إليه وأطلق النار. أَخطَأَت الطَّلقَةُ سايم، لكنها أصابَت سيفه، مُحطِّمَةً إيَّاه عند المقبض. أسرع سايم في خُطوَتِه، وطوَّح بالمشكاة الحديديَّة على رأسه.

"يهوذا أمام هيرودس!" قال، وطرح الكولونيل أرضًا على الأحجار. ثم استدار إلى السكرتير، الذي بدأ الزَّبَدُ في التشكُّل على فَمِه المرتعب، وأمسك بالمصباح عاليًا بحركة متصلِّبة ومانِعَة، لدرجة أن الرجل، في حقيقة الأمر، تجمَّد لوَهلَةٍ، واضطرَّ إلى إصاخة سمعه.

"هل ترى هذه المشكاة؟"، صاح سايم بصوت مخيفٍ. "هل ترى الصليب المحفور عليه، واللهب داخله؟ لم تصنعه أنتَ. لم تُضِئه أنتَ. رجالٌ أفضلُ منكَ، رجالٌ بمقدورهم الإيمان والطاعة، جدلوا أمعاءَ الحديد وحافظوا على أسطورة النار. لا يوجد شارع تمشي عليه، ولا خيط ترتديه، إلَّا ويُصنَع كما صُنِعَت هذه المشكاة، عبر إنكار فلسفتك عن التراب والجِرذان. ليس بإمكانِكَ صُنعُ شيءٍ. ليس بإمكانك سوى التدمير. ستُدمِّر النَّوعَ البشريَّ؛ ستدمِّر العالَم. قد يكفيكَ ذلك. لكن هذه المشكاة المسيحية العتيقة لن تستطيع تدميرَها. ستذهب إلى حيث تعجَزُ إمبراطوريَّتُكَ من القِرَدَة عن العثور عليها".

ثم ضرب السكرتير على الفور بالمشكاة حتى ترنَّح؛ ثم أدارها في دوَّامَةٍ مَرَّتَيْن حول رأسها، وطوَّحها بعيدًا إلى البحر، حيث توجَّهَت كصاروخٍ مُصطَخِبٍ ثم سقطت.

"السيوف!"، صاح سايم، مديرًا وجهه المستَعِرَ إلى الثلاثة وراءه. "لنهجم على هؤلاء الأوباش؛ فقد حان أوان موتنا".

جاء رفاقه الثلاثة في إثره بالسيوف في أيديهم. كان سيف سايم مكسورًا، لكنه استعار نبُوتًا من قبضة صياد، طارِحًا إيَّاه أرضًا. خلال لحظة واحدة كان لهم أن يطرحوا أنفسهم على وجه الغوغاء ويموتوا،

لـو لم تتوقَّـف المسـألة فجـأة. كان السـكرتير، بعـد حديـث سـايم إليـه، مُنتَصِبًا بيـده عـلى رأسـه المضروبـة كـما لـو كان دائخًـا؛ والآن انتـزع قناعـه الأسـود.

لم يكشِـفْ الوجـهَ الشَّـاحِب، الـذي تقـشَّر بهـذا الشـكل تحـت ضـوء المصبـاح، عـن غضـب بقـدر مـا تكشَّـف عـن حـيرة ودهشـة. رفـع يـده عاليًـا بسُـلطَةٍ مُضطَرِبَـة.

"لا بُـدَّ أن هنـاك خطـأ مـا"، قـال لهـم. "سـيد سـايم، أعتقـد أنـك بالـكاد تفهـم موقِفَـكَ. أُلقـي القبـضَ عليـكَ باسـم القانون".

"باسم القانون؟" قال سايم، وأسقط عصاه.

"بالتأكيـد!" قـال السـكرتير. "أنـا مُحقِّـقٌ سِرِّيٌّ مـن سـكوتلاند يـارد"، ثـم أخـرج بطاقـةً زرقـاءَ صغـيرةً مـن جيبـه.

"ومَن تَظُنُّ أنَّنا نكون؟" سأله البروفسور، وألقى أسلحته.

"أنتـم"، قـال السـكرتير بتصلُّـبٍ، "عـلى حسـب مـا أعلـم كحقيقـةٍ، أعضـاء في المجلـس الأعـلى للفوضويِّـين. مُتنكِّـرًا كواحِـدٍ منكـم، فإننـي...".

ألقى دكتور بولْ بسيفه في البحر.

"أبـدًا لم يوجـد أيُّ مجلـسٍ أعـلى للفوضويِّـين"، قـال لـه. "نحـن جميعًـا حفنـةٌ مـن رجـال الشرطـة ننظـر إلى بعضنـا البعـض. وكل هـؤلاء الأنـاس اللطفـاء الذيـن كانـوا يُمطِرونـنا بالطَّلَقـات ظنُّـوا أننـا مـن مُفجِّـري الديناميـت. أعـرف أننـي لم أكـن لأُخطِـئَ بشـأن هـؤلاء الرِّعـاع"، قـال لـه، مُشـيرًا إلى الجُمـوع الهائلـة التـي امتـدَّت الآن عـلى الجانِبَـيْن. "إن العَـوامَّ ليسـوا مجانـين. أنـا نفـسي مـن العَـوامِّ، وأعـرف ذلـك. سـأنطلق الآن إلى الشـاطئ لحَمـلِ الـشَّراب إلى جميـع مَـن هنـا".

الفصل الثالث عشر

مُطارَدَةُ الرَّئيس

في الصَّباح التالي استقلَّ الأشخاص الخمسة المذهولون، الجَذِلون، القارِبَ المتَّجِهَ إلى دوفر. كان لدى الكولونيل العجوز البائس سببٌ ما للشكوى بشأنه، بعد اضطراره لقتال زُمرَتَيْن لا وجودَ لهما، ثم طرحِه أيضًا بمشكاة حديديَّة. لكنه كان چنتلمانَ نبيلًا، وبتحرُّره في النهاية عبر حقيقة أن أيًّا من الطرفين لا علاقة له بالديناميت، ودَّعَهُم على رصيف الميناء بلُطفٍ كبير.

كان لدى المحقِّقين الخمسة المتصالحين مائة تفصيلة وتفصيلة لتفسيرها لبعضهم البعض. كان على السكرتير أن يخبر سايم بسبب ارتدائهم للأقنعة في البداية بغَرَضِ الاقتراب من العدوِّ المفتَرَض كزُملاء في المؤامرة.

وكان على سايم أن يشرح لماذا فرُّوا هاربين بتلك السرعة عبر بلدٍ مُتحضِّر. لكن فوق كل هذه التفاصيل والمسائل التي كان من الممكن تفسيرها، ارتفع الجَبَلُ المركزي للمسألة التي لم يكن بإمكانهم تفسيرها. ماذا كان يعني كل هذا؟ إذا كانوا جميعًا ضُبَّاطًا مُسالمين، فمَن هو الأحدُ؟ وإذا لم يَكُن قد استولى على العالم حقًّا، فإلى ماذا يسعى في نهاية المطاف؟ كان المفتِّش راتكليف مُغتمًّا ما زال بشأن كلِّ هذا.

"لا أستطيع أن أكتشف خَبَايَا اللعبة الصغيرة التي يلعبها الأحدُ العجوز بأكثر من أيٍّ منكم"، قال لهم. "لكن أيًّا مَن كان الأحد، بخلاف ذلك، فهو بالتأكيد ليس مواطنًا بريئًا. اللعنة! هل تتذكَّرون وجهه؟".

"أؤكِّد لك"، أجابه سايم، "أنني غير قادر على نسيانه أبدًا".

"حسنًا"، قال السكرتير، "أفترض أننا سنعرف كل شيء تقريبًا، فغدًا لدينا اجتماعنا العام التالي. وعُذرًا منكم"، قال لهم، بابتسامةٍ مُخيفَةٍ بعض الشيء، "كوني على دراية بمهامِّي السِّكرتاريَّة".

"أعتقد أنك على حقٍّ"، قال البروفسور مُتفكِّرًا. "أعتقد أننا قد نكتشف الأمر من خلاله؛ لكن أعترف أنني أشعر ببعض الخوف من سؤال الأحد عمَّن هو حقًّا".

"لماذا"، سأله البروفسور، "خوفًا من القنابل؟".

"لا"، قال البروفسور، "خشيةَ أن يُخبِرَني".

"لنتناول بعض الشراب"، قال دكتور بولْ، بعد بُرهَةِ صَمتٍ.

طوال رحلتهم بالكامل عبر القارب والقطار كانوا في غاية الابتهاج، لكنهم ظلُّوا متقاربين على نحوٍ غريزيٍّ. حاول دكتور بولْ، الذي كان دائمًا صاحِبَ المذهب المتفائل في العُصبة، بشتَّى الطُّرق إقناعَ الأربعة

الآخرين بأن الصُّحبة بأكملها يجب أن تستقلَّ نفس عربة الخيل من ڤكتوريا؛ لكنهم رفضوا ذلك، واستقلُّوا سيارة، مع دكتور بولْ يغنِّي في المؤخِّرة. أنهوا رحلتهم في فندق في بيكاديللي سيركيس؛ حتى يكونوا على مَقرَبةٍ من الإفطار المبكِّر في الصباح التالي في ميدان ليستر. مع ذلك، لم تكن مغامرات ذلك اليوم قد انتهت بالكامل. كان دكتور بولْ -مُستاءً من الاقتراح العام بالخلود للنوم- قد خطا خارجًا من الفندق عند حوالي الساعة الحادية لرؤية والتَّمتُّع ببعضٍ من جَمال لندن. إلَّا أنه بعد ذلك بعشرين دقيقة عاد وأحدث ضجيجًا في قاعة الاستقبال. واضطرَّ سايم -الذي حاول في البداية تَهدِئَته- إلى الإنصات إليه أخيراً بانتباهٍ جديدٍ تمامًا.

"أقول لك لقد رأيته!" قال دكتور بولْ، بتأكيدٍ مُتصِّلب.

"مَن؟" سأله سايم بسرعة. "ليس الرئيس؟".

"ليس الأمر بهذا السوء"، قال دكتور بولْ، بضحكَةٍ لا داعي لها، "ليس الأمر بهذا السوء. لقد رأيته هنا".

"رأيتَ مَن هنا؟"، سأله سايم بنَفاد صَبرٍ.

"الرَّجُل كثيف الشعر"، قال الآخر بإشراقٍ، "الرجل الذي اعتاد أن يكون كثيفَ الشَّعر: جوجول. إنه هنا"، ثم قدَّم إليهم الشاب المطابِقَ للأوصاف مُمسِكًا بذراعه المتمنِّعة، وهو الشاب الذي كان قد زحف منذ خمسة أيام خارجًا من المجلس بشَعرٍ أحمر رقيقٍ ووَجهٍ شاحب، أول مَن تَمَّ كَشفُه من بين جمع الفوضويِّين المزيَّفين.

"لماذا تقلق بشأني؟" صاح قائلًا. "لقد طردتموني باعتباري جاسوسًا".

"جميعنا جواسيس!" همس سايم.

"جميعنا جواسيس!" صاح دكتور بولْ. "هيا، لِنحتسِ شرابًا".

في الصباح التالي زحَفَت كتيبة السِّتَّة الذين اتَّحدوا من جديد بإحساس مُتبلِّدٍ نحو الفندق في ميدان ليستر.

"هذا مُثيرٌ للبهجة حقًّا"، قال دكتور بولْ؛ "نحن ستَّة رجال ذاهبون لسؤالِ رجُلٍ واحد عن معنى وجوده".

"أعتقد أنه أمر عجيب بالأحرى"، قال سايم. "أعتقد أنهم ستة رجال ذاهبون إلى رَجُلٍ واحد لسؤاله عن معنى وجودهم هم".

استداروا في صَمتٍ دخولًا إلى الميدان، ورغم أن الفندق كان في الزاوية المقابلة، إلَّا أنهم رأوا على الفور الشُّرفَةَ الصغيرة وشكلًا بشريًّا بَدَا كبيرًا جدًّا بالمقارنة بها. كان يجلس بمفرده برأس مُنحَنٍ، مُمعِنًا النظر في صحيفة. لكن كل أعضاء المجلس، الذي جاؤوا للتصويت بإسقاطه، عَبَروا الميدان كما لو كانوا تحت مُراقَبَةِ سماءٍ ذات مائِة عَيْنٍ.

كانوا قد تَنازَعوا كثيرًا فيما بينهم بشأن سياستهم، وبشأن ما إذا كان ينبغي لهم ترك جوجول غير المقنَّع خارج المسألة والبدء بشكل دبلوماسي، أو إحضاره وتفجير الوضع بالبارود على الفور. انتصر في النهاية تأثيرُ سايم وبولْ لصالح المسار الأخير، رغم أن السكرتير كان يسألهم حتى النهاية عن سبب مُهاجَمَتِهم للأحَدِ بتلك القسوة.

"سببي بسيطٌ للغاية"، قال له سايم. "أُهاجِمُه بقَسوَةٍ لأنني خائِفٌ منه".

ساروا في إثر سايم صعودًا على الدَّرَج المظلِم في صمت، وخرجوا جميعًا في نفس الوقت إلى ضوء الصباح الساطع وضوء ابتسامة الأحد المبهِرَة.

"ممتاز"، قال لهم. "يُبهِجُني جدًّا رؤيتكم جميعًا. يا له من نَهارٍ بديع. هل مات القيصر؟".

استجمع السكرتير -الذي صادف أن يكون في المقدِّمَة- نفسَه من أجل اهتياجٍ وَقور.

"لا يا سيِّدي"، قال بتجهُّمٍ، "لم تحدث مَذبَحَة. لم أجلب إليك أيَّةَ أخبارٍ عن عُوَيناتٍ مُثيرَةٍ للاشمئزاز".

"عُوَيناتٌ مُثيرةٌ للاشمئزاز؟" كَرَّر الرئيسُ، بابتسامةٍ مُشرِقَة، مُتسائِلة. "هل تقصد عُويناتِ دكتور بولْ؟".

شعر السكرتير باختناقٍ لوَهلَةٍ، وتابع الرئيسُ بما يشبه الاستجداءَ المُداهِنَ:

"بالطبع، جميعنا لدينا آراؤنا، وحتى أَعيُنُنا الخاصة، لكن أن تدعوها بالمثيرة للاشمئزاز أمام الرجل نفسه...".

انتزع دكتور بولْ عُوَيناتِه وحَطَّمها على المائدة.

"عُوَيناتي بنتُ حَرامٍ"، قال لهم، "لكنني لستُ كذلك. انظروا إلى وجهي".

"أجرؤ على القول إنه من ذلك النوع من الوجوه الذي ينمو على المرء"، قال الرئيس، "في الحقيقة، إنه ينمو عليكَ؛ ومَن أنا حتى أتعارك مع الثِّمار البَرِّيَّة على شجرة الحياة؟ أجرؤ على القول إنه سينمو عليَّ يومًا ما".

"لا وقتَ لدينا لهذه الحماقات"، قال السكرتير، مُقتَحِمًا الحديثَ بوحشية. "لقد جئنا لنعرف ما يعنيه كلُّ هذا. مَن أنت؟ ما أنت؟ لماذا جَمَعتَنا هنا؟ هل تعرف مَن نحن وما نحن؟ هل أنتَ رَجُلٌ أبلَهُ يلعب دورَ المتآمِر، أم أنَّكَ رَجُلٌ ماهِرٌ يلعب دورَ الأحمق؟ أَجِبْني، أقول لك".

"المرشَّحون"، هَمْهَمَ الأحدُ، "مُطالَبون فقط بالإجابة عن ثمانية من السبعة عشر سؤالًا على الورق. حسب ما أرى، فأنتم تطلبون مني

إخبارَكُم بما أنا، وما أنتم، وما هذه المنضدة، وما هذا المجلس، وما هذا العالَمُ حسب معرفتي. حسنًا، سأذهب بعيدًا لتمزيق الحجاب عن مسألة غامضة واحدة. إذا كنتم ترغبون في معرفة ما أنتم، فأنتم مجموعة من الشباب الحَمْقى ذوي النوايا الطَّيِّبة".

"وأنتَ"، قال سايم، مُنحَنِيًا للأمام، "ما أنت؟".

"أنا؟ ما أنا؟" زمجر الرئيس، ونهض ببطءٍ إلى ارتفاعٍ لا يُصدَّق، كمَوجَةٍ هائلة على وشك أن تتقوَّس فوقهم وتبتلعهم. "ترغبون في معرفة ما أنا، أليس كذلك؟ بولْ، أنت رَجُلُ عِلْمٍ. فتِّشْ في جذور هذه الأشجار واكتَشِفْ حقيقَتها. سايم، أنت شاعِرٌ. حدِّقْ في سحابات الصباح هذه. لكنِّي أقول لكم هذا، إنكم ستعرفون حقيقةَ آخِرِ شَجَرةٍ وأعلى سحابَةٍ قبل أن تُدركوا حقيقتي. ستفهمون البحرَ، وسأظَلُّ أنا لُغزًا مُقفَلًا أمامكم؛ ستعرفون ماهيَّةَ النجوم، ولن تعرفوا ماهيَّتي. منذ بدء العالم دأب الرِّجالُ جميعهم على اصطيادي كذِئبٍ: الملوكُ والحُكَماءُ، الشُّعراءُ والمشَرِّعون، كل الكنائس، وكل الفلسفات. لكن أبدًا لم أَقَعْ في المصيدة، وستسقط السَّماوات في اللحظة التي أستدير فيها لمواجَهَة مُلاحِقِيَّ. لقد مَنحتُهم مُتعَةً تليق بما أنفقوه من أموال، وهذا ما سأفعله الآن".

قبل أن يتمكَّن أحدهم من التحرُّكِ، كان الرَّجُلُ الوحشيُّ قد تَمايَلَ كإنسانٍ غابٍ عملاق على حاجز الشرفة. مع ذلك وقبل أن يسقط جَذَبَ نَفسَه لأعلى ثانيةً على قضيبٍ أفقي، ودافِعًا ذقنه الهائلة على حافَّة الشرفة، قال لهم بجلال:

"شيء واحد سأخبركم به رغم ذلك بشأن مَن أنا. أنا الرجل في الغرفة المظلِمَة، الذي جعلكم جميعًا رجالَ شُرطَة".

بعد قوله هذا سقط من الشرفة، متقافزًا على الأحجار في الأسفل ككرة هائلة من المطاط الهندي، وانطلق متجهًا إلى زاوية شارع

الحمراء، حيث لوّح لعربة أجرة تجرها الخيول وقفز داخلها. كان المحققون السريون الستة واقفين مصعوقين وشاحبين في ضوء تأكيده الأخير؛ إلّا أنه عندما اختفى في عربة الأجرة، استعاد سايم حواسه العملية، وقفز من على الشرفة بتهور شديد أدّى إلى كسر قدميه تقريبًا، ثم استدعى عربة أجرة أخرى.

قفز هو وبولْ إلى عربة الأجرة معًا، والبروفسور والمفتِّش في عربة أخرى، بينما تسلَّق السكرتير وجوجول في إثرهم عربةً ثالِثَةً بصعوبة في آخر لحظة للَّحاقِ بسايم المحلِّق، الذي كان يلحق بالرئيس المحلِّق. قادهم الأحَدُ في مُطارَدَةٍ شَرِسَة في اتجاه الشمال الغربي؛ ذلك أن سائِقَ عَرَبَتِه -الذي كان من الواضح أنه تحت تأثير ما يفوق المحفِّزاتِ العاديَّة- حثَّ حِصانه على الخَبَبِ بسرعةٍ تَكسِر الأعناق. لكن سايم لم يكن في مِزاجٍ رائِقٍ للمُلاطَفات، فانتصب واقِفًا في عربته صائحًا، "أوقفوا اللص!" حتى هرع المارة بجوار عربته، وبدأ رجال الشرطة في التوقُّف وطَرحِ أسئلة. كل هذا كان له تأثيره على سائق عربة الرئيس، الذي بدأ في التطلُّع بشَكٍّ، وأبطأ عربته تدريجيًّا. ثم فتح مشبَكَ الحاجز للتحدُّث بعقلانيَّةٍ مع زبونه، وفي فعله هذا ترك السَّوطَ الطويل متراخيًا على مقدِّمة العربة. انحنى الأحد للأمام، قبض عليه، وانتزعه بعُنفٍ من يَدِ الرجل. ثم واقفًا في مقدِّمة العربة بنفسه، جَلَدَ الحصانَ وزَمجَرَ عاليًا، حتى أصبحوا ينهبون الشوارع كعاصفة طائِرَةٍ. شارعًا بعد شارعٍ، وميدانًا بعد ميدان انطلقت هذه العربة المدوَّمَة المستحيلة، التي كان راكبها يحثُّ الحصان على الخَبَب، وسائقها يحاول يائسًا إيقافَها. جاءت العربات الثلاث الأخرى في إثرها (إذا كانت العبارة مقبولة لعربة تجرُّها الخيول) ككلابٍ لاهثة. الدكاكين والشوارع وكأنها تُضرَب بأسهُمٍ مُجَلجِلَة.

في ذروة نشوة السرعة، استدار الأحدُ على الجدار الفاصل حيث يقف، ومُبرِزًا رأسه العَبوسَ الهائِلَ من العربة، بشَعرِه الأبيض يتطاير

في الهواء، نظر إلى مُلاحِقيه بوجهٍ مُفزِعٍ، وكأنه قُنفذٌ عملاقٌ. ثم رافعًا يده اليمنى بسرعة، طوَّح بَكُرَةٍ من الورق في وجه سايم واختفى. أمسك سايم بالشيء أثناء محاوَلَةِ تَحاشيها غريزيًّا، ثم اكتشف أنها تتكوَّن من ورقتين مُتغضِّنَتَيْن. واحدة موجَّهةً له والأخرى لدكتور بولْ، بسلسلة طويلة -تَهكُّميَّة ربما- من الأحرُفِ بعد اسمه. كانت تحيَّات وألقاب دكتور بولْ -على أيِّ حال- أطولَ كثيرًا من الرسالة الموجَّهة له؛ ذلك أن الرسالة نفسها لم تتكوَّن سوى من الكلمات:

"ماذا بشأن مارتن تابر[1] الآن؟".

"ماذا يعني ذلك المختَلُّ العجوز؟"، سأل بولْ، محدِّقًا في الكلمات. "ماذا تقول رسالَتُكَ يا سايم؟".

كانت رسالة سايم رغم ذلك أطولَ، وتقول التالي:

"لا أحد سيندم مقدارَ نَدَمي على أي شيء بسبب طبيعة تدخُّل رئيس الشَّمامِسَة. أثق أن الأمر لن يَصِلَ إلى ذلك. لكن، للمرَّة الأخيرة، أين أحذيتكم المطَّاطِيَّة؟ المسألة في غاية السوء، خاصة بعد ما قاله العم".

بدا سائق عربة الرئيس وأنه يستعيد بعضَ السيطرة على حصانه، والملاحِقون قد تقدَّموا قليلًا مع زَحفِهم دائرين للدخول إلى طريق إدجوير. وهنا حدث ما بدا للحُلَفاء أنه توقُّفٌ في صالحهم. ففي وسط حركة المرور من كل نوع، التي كانت تتوقَّف أو تنحرف يمينًا أو يسارًا، انطلقت من آخر الطريق الطويل زَمجَرَةٌ لا يمكن إخطاؤها لسيَّارَةِ إطفاءٍ، ظهرت بعد بضع ثوانٍ كعاصِفَةٍ نحاسيَّة. لكن سريعًا بعد مرورها، كان الأحد قد قفز خارجًا من عَرَبَتِه، مُنقَضًّا على سيَّارة الإطفاء، مُمسِكًا بها، ومُتدلِّيًا من عليها، وكان بالإمكان رؤيته وهو

(1) Martin Tupper (1889-1810): كاتب وشاعر إنجليزي، مُؤلِّف كتاب "فلسفة الأمثال"- (المترجم)

يختفي على البُعد الضَّاجُّ مُتحدِّثًا إلى رَجُل الإطفاء المذهول بإيماءاتٍ تَفسيريَّة.

"في إثره!" عوى سايم. "لن ينجح في تضليلنا الآن. لن يُخطِئَ أحدٌ سيَّارةَ إطفاء".

جَلَدَ سائقو العربات الثلاث -الذين ظلُّوا مَبهوتين لوَهلَةٍ- جيادَهم وقَلَّلوا بعض الشيء من المسافة بينهم وبين فريستهم المختَفِيَة. اعترف الرئيس بهذا الاقتراب عبر المجيء إلى مؤخِّرة العَرَبة، مُنحَنيًا بتكرار، مُقبِّلًا يَدَيه، وأخيرًا مطوِّحًا بورقة مطويَّةٍ بعناية إلى صدر المفتِّش راتكليف. عندما فتحها الچنتلمان، ليس بلا بنفادِ صَبرٍ، وجد أنها تحتوي على الكلمات:

"اهربْ على الفور. الحقيقة بشأن مشدَّات سروالِكَ أصبحت معروفةً.

الإمضاء: صديق".

كانت سيارة الإطفاء قد اقتربت من الشمال، في منطقة لم يتعرَّفوا عليها؛ ومع جَرْيِها بجانب خَطٍّ من الأسوار العالية المظلَّلة بالأشجار، جَفَلَ الأصدقاءُ السِّتَّة، لكنهم شعروا ببعض الارتياح بسبب رؤيتهم للرئيس يقفز من سيارة الإطفاء، رغم عدم تبيُّنِهم ما إذا كان ذلك بسبب نَزوةٍ أخرى أو الاعتراض المتزايد لمستضيفيه. رغم ذلك، وقبل أن تتمكَّن العربات الثلاثة من الوصول إلى تلك البُقعَة، كان الرئيس قد تسلَّق الأسوار العالية كقِطٍّ رَماديٍّ ضخم، وطوَّح بنفسه من فوقها، ثم اختفى في ظلام الأوراق.

بإيماءة غاضِبَةٍ أوقف سايم العَرَبَةَ، قفز خارجًا منها، وانقضَّ بدوره مُتسلِّقًا الأسوار. بعد أن وضع قدمًا واحدة فوق السور، يتبعه أصدقاؤه، استدار بوجهه إليهم شاحِبًا بشدَّة في الظِّلِّ.

"ما هذا المكان؟" سألهم. "هل يمكن أن يكون مَنزِلَ الشيطان العجوز؟ سمعتُ أنه يمتلك منزلًا في شمال لندن".

"هذا أفضلُ كثيرًا"، قال السكرتير مُتجهِّمًا، مُثبِّتًا قَدَمَه، "سنجده في منزله".

"لا، لكنه ليس كذلك"، قال سايم، عاقِدًا حاجِبَيْه. "يتناهى إلى سمعي أبشعُ أشكال الضَّجيج، وكأنها شياطين تضحك وتعكس وتنفخ أنوفها الشيطانية".

"إنها كلابه تنبح بالطبع"، قال السكرتير.

"لماذا لا تكون خَنافِسُه السوداء تنبح!" قال سايم بغضب، "الحلزونات تنبح! نباتات الغرانيق تنبح! هل سمعت من قبل كلبًا ينبح هكذا؟".

أمسك بيده عاليًا، وهنا خَرَجَت من الأجَمَةِ زمجرَةٌ هادِرَةٌ طويلة، بَدَت وكأنها تنسلُّ إلى ما تحت الجلد وتُجَمِّد اللحم- زَمجَرَةٌ مُهَيِّجة واطئة جعلت الهواء ينبض من حولهم.

"كلاب الأحد لن تكون كلابًا عاديَّةً"، قال جوجول، مُرتَعِشًا.

كان سايم قد قفز على الجانب الآخر، لكنه وقف منتبِهَ السَّمع بنفادِ صَبرٍ.

"حسنًا، أَنصِتوا إلى هذا"، قال لهم، "هل هذا كلب، كلبُ أيِّ إنسان؟".

هنا تحطَّمَت آذانُهم بصراخٍ خَشِن كما لو كان صراخ أشياء تحتجُّ وتصطخب بألَمٍ مُفاجئ؛ وبعدها، كما لو كان صدى، ما بدا كنفيرٍ أنفيٍّ طويل.

"حسنًا، لا بُدَّ أن هذا المنزل هو الجحيم ذاته!" قال السكرتير؛ "وإذا كان هو الجحيم بالفعل، فأنا دالِفٌ إليه!"، ثم قفز عبر الحواجز الطويلة بأرجَحَةٍ واحدة بالكاد.

تَبِعَه الآخرون. اخترقوا تشبيكةً من النباتات والأَجَمَة الصغيرة، وخرجوا إلى مَرْجٍ خالٍ من النباتات. لا شيءَ يبدو أمام نظرهم، لكن دكتور بولْ ضرب بيديه معًا فجأة.

"يا لكم من حمقى"، صاح قائلًا، "إنها حديقة الحيوانات!".

فيما هم يتطلَّعون حولهم بجنونٍ بحثًا عن أي أثر لفريستهم البرِّيَّة، تقدَّم حارِسٌ بِزِيٍّ رَسميٍّ على طول المسار بصُحبَةِ رَجُلٍ بملابِسَ عاديَّةٍ.

"هل جاء من هذه الناحية؟" قال الحارس لاهِثًا.

"هل ماذا؟" سأله سايم.

"الفيل!"، صاح الحارس. "لقد جُنَّ جُنون أَحدِ الفِيَلَةِ وفَرَّ بعيدًا!".

"لقد فرَّ مع چنتلمان عجوز"، قال الغريب الآخر مُنقَطِعَ الأنفاس، "چنتلمان عجوز بائِسٌ بِشَعْرٍ أبيض!".

"أي نوع كان من الچنتلمانات العجائز؟" سأل سايم، بفضولٍ كبير.

"چنتلمان عجوز ضخم وبدين جدًّا بملابِسَ رَماديَّةٍ فاتحة"، قال الحارس بحماس.

"حسنًا"، قال سايم، "إذا كان من ذلك النوع من الچنتلمانات العجائز، وإذا كنتَ على يقينٍ تامٍّ بأنه چنتلمان عجوز بدينٌ وضَخمٌ بملابس رمادية؛ فلك أن تتأكَّد أن الفيل لن يمضي بعيدًا معه. لقد فرَّ على ظهر الفيل، والله لم يخلق الأفيال حتى تهرب بعيدًا مع ذلك الرجل إذا لم تُوافِقْ على الهروب. ولكن، بِحَقِّ الصواعق، ها هو!".

لم يراودهم أيُّ شَكٍّ بخصوصه هذه المرة؛ ذلك أنه عَبرَ مساحَةٍ مفتوحَةٍ من الأعشاب، على بُعد مائتي ياردة تقريبًا، مع حَشْدٍ يصرخ ويُسرِعُ هاربًا بلا جدوى على أعقابه- انطلق فيلٌ رَمادِيٌّ عِملاقٌ بخطواتٍ هائِلَة، بخرطومِه، مُرسَلًا بصَلابَةٍ كصاري السَّفينة المائلة، ونافِرًا نفيرَ يوم البعث. على ظهر الحيوان المندفع المُجَعْجِعِ كان يجلس الرئيسُ الأَحدُ بكلِّ الهدوء اللائق بسُلطان، لكنْ ناخِسًا الحيوان إلى سُرعَةٍ مهتاجَةٍ بجسمٍ ما في يده.

"أوقِفوه!"، صاحت الجُموعُ. "سيخرج من البوابة!".

"أوقِفوا انهيارًا سيقع!" صاح الحارس. "لقد أصبح خارجَ البوَّابة!".

وحتى بينما يتحدَّث، أعلن تحطُّمٌ نهائيٌّ وهَديرٌ من الرُّعب عن أن الفيلَ الرَّماديَّ العظيم قد حطَّم بوَّابات "زولوچيكال جاردنز" خارِجًا منها، وأصبح الآن يعدو مُسرِعًا على طول شارع ألبيني كنوعٍ جديد وسريع من الحافلات.

"يا إلهي العظيم!" صاح بولْ، "أبدًا لم أَرَ فيلًا بإمكانه الرَّكضُ بهذه السرعة. حسنًا، لا بُدَّ أنها عربات الخيل ثانيةً إذا أردنا اللحاق به".

بينما هم يسرعون إلى البوابة التي كان الفيل قد خرج منها واختفى، شعر سايم بانوراما متوهِّجة من الحيوانات الغريبة في الأقفاص التي مرُّوا بها. فكَّر بعد ذلك أنه كان من الغريب أن يراها بهذا الوضوح. تذكَّر على نحوٍ خاصٍّ رؤيةَ البَجَع، بأعناقها المتدلِّية، المستحيلة. تساءل لماذا كانت البجعة رمزًا للإحسان، وقال لنفسه ربما لأن الأمر يتطلَّب قدرًا هائلًا من الإحسان حتى يُعجب المرءُ بطائِرِ البَجَع. تذكَّر طائر "أبو قرن"، الذي لم يكن سوى منقارًا أصفرَ هائِلًا بطائِرٍ صغير مربوط وراءه. في المجمَل انتابَهُ شعورٌ، لم يكن ليقدر على تفسير حيويَّتِه، بأن الطبيعة دائمًا ما تُطلِقُ دُعاباتٍ في غاية الغموض.

كان الأحد قد أخبرهم أنه سيفهمونه عندما يفهمون النجوم. تساءل ما إذا كان باستطاعة رؤساء الملائكة أنفسهم فهم طائر "أبو قرن".

اندفع المحقِّقون السِّتَّة التُّعَساء إلى داخل العربات ولَحِقوا بالفيل آخِذين نَصيبَهم من الرُّعبِ الذي يَنشُرُه عبر الامتداد الطويل للشوارع. في هذه المرَّة لم يستَدِر الأحد، لكنه قدَّم لهم الامتدادَ الصُّلبَ لظهره غير الواعي، وهو ما أثار جنونهم، إنْ كان هذا مُمكِنًا، أكثر من سخرياته السابقة. إلَّا أنه قبل وصولهم إلى شارع بيكر بلحظات، كان يمكن رؤيته يُطوِّح بشيء ما بعيدًا في الهواء، كما يفعل الصِّبيانُ عادةً في الكرة مع الإشارة إلى التقاطها ثانيةً. لكن بسرعة سباقهم هذه سقَطَت الكرة بعيدًا وراءهم، بالضبط بجوار العربة التي تضمُّ جوجول؛ وعلى أملٍ خافتٍ ما بمفتاحٍ لحَلِّ اللغز، أو نتيجة دافع ما لا يمكن تفسيره، أوقف عَرَبَتَه لالتقاطها. كانت مُوجَّهَةً لها، على شكل صُرَّة ضخمة بعض الشيء. إلَّا أنه عند فحصها، اكتشف أنها تتكوَّن من ثلاث وثلاثين قصاصة ورقية بلا قيمة، ملفوفة حول بعضها البعض. وعند تمزيقه للغطاء الأخير؛ تكشَّف في النهاية عن رُقاقَةٍ صغيرة من الورق، مكتوبٌ عليها:

"الكلمة، أعتقد، هي (وردي)".

لم يَقُل الرجل الذي عُرِفَ ذات مرَّةٍ باسم جوجول شيئًا، لكن حركات يديه وقدَمَيْه كانت كحركات رَجُلٍ يَحثُّ جوادًا على الخَبَبِ من جديد.

شارعًا إثرَ شارعٍ، وحيًّا إثرَ حَيٍّ، انطلَقَت مُعجِزَةُ الفيل الطائر، مُناديًا الجموع إلى كلِّ نافذة، ومُسَيِّرًا العَرَبات في الشارع يمينًا ويسارًا. ورغم ذلك، عبر كل هذا الاستعراض المجنون، كافَحَت العربات الثلاثُ للَّحاق به، حتى أصبحت جزءًا من المسيرة، وربما الإعلان عن سيرك. انطلقت بتلك السرعة حتى ضاقت المسافاتُ بينها بشكل لا يُصدَّق،

وحتى رأى سايم ألبرت هول في كينسنجتون فيما كان يعتقد أنه ما زال في بادينجتون. كانت خطوة الحيوان أكثرَ سُرعَةً وحرِّيَّةً عبر الشوارع الأرستقراطية الخاوية لجنوب كينسنجتون، وفي النهاية اتَّجه نحو ذلك الجزء من خَطِّ الأفق حيث تنتصب عَجَلَة "إيرلز كورت" الهائلة عاليًا في السماء. ازدادت العجلة ضخامةً، حتى مَلأت السماوات بالكامل كعَجَلَةِ النجوم.

نجح الوحش في تخطِّي العربات. فقدوا أثره حول زوايا كثيرة، وعندما وصلوا إلى واحدة من بوَّابات معرض "إيرلز كورت" اضطرُّوا إلى التوقُّف أخيرًا. أمامهم كان زحامٌ هائلٌ؛ وفي وسطه كان فيلٌ هائلٌ، مُهتاجٌ ومُضطَرِبٌ تمامًا كالمخلوقات عديمة الشَّكل. لكنَّ الرئيس كان قد اختفى.

"إلى أين ذهب؟" سأل سايم، مُنزلِقًا إلى أرضيَّة الشارع.

"لقد أسرع الچنتلمان إلى المعرض، يا سيدي!" قال لهم أحد المسؤولين مذهولًا. ثم أضاف بصوتٍ جريح؛ "چنتلمان لطيف، يا سيدي. طلب منِّي أوَّلًا أن أُمسِكَ بفيلِه، وأعطاني هذه".

أخرج لهم بامتعاضٍ قِطعَةً مَطويَّةً من الورق، مُوجَّهَةً إلى: "سكرتير المجلس المركزي للفوضويِّين".

مزَّقها السكرتير، غاضِبًا، لفتحها، ووجد مكتوبًا داخلها:

"عندما تمضي سمكة الرِّنجة مِيلًا؛

لِيَبتَسِمْ السِّكرتير؛

وعندما تحاول الطيران،

فَليَمُتْ السِّكرتير.

حكمة ريفيَّة".

مكتبة
t.me/t_pdf

"لماذا بحَقِّ المسيح الخالد"، بدأ السكرتير قائلًا، "سَمَحتَ للرَّجل بالدخول؟ هل يأتي الناس عادةً إلى معرِضِكَ راكبين أفيالًا مجنونة؟ هل...".

"انظروا!" صاح سايم فجأةً. "انظروا هناك!".

"ننظر إلى ماذا؟" سأله السكرتير بوحشيَّة.

"انظروا إلى البالون المقيَّد!" قال سايم، مشيرًا إليه بجنون.

"لماذا بحقِّ الجحيم قد ننظر إلى بالونٍ مُقيَّد؟" سأله السكرتير.

"ما الغريب في بالون مُقيَّد؟".

"لا شيءَ"، قال سايم، "باستثناءِ أنَّه ليس مُقيَّدًا!".

استداروا بأعينهم جميعًا إلى حيث يتأرجح البالون وينتفخ فوق المعرض على حبلٍ رفيعٍ، كبالونِ طِفلٍ. بعد ذلك بثانِيَةٍ انقسم الحَبلُ الرفيع إلى اثنين تحت المقصورة بالضَّبط، وارتفع البالون، بعد أن انفَكَّ عِقالُه، طافِيًا إلى أعلى بِحُرِّيَّةٍ تليق بفُقَّاعةِ صابون.

"عشرة آلاف شيطان!" صرخ السكرتير. "لقد أصبح داخِلَه!" وهزَّ قَبضتَيْه إلى السماء.

وصل البالون، محمولًا برياحٍ عابِرَة، إلى فوقهم تمامًا، وكان بإمكانهم رؤيةُ الرأس الأبيض العظيم للرئيس ينطلق من الجانب ويتطلَّع بإحسانٍ إليهم من أعلى.

"لِيُبارِكْ الرَّبُّ روحي!" قال البروفسور بطريقَة العجائِزِ التي لم يتمكَّن أبدًا من فصلها عن لِحيَتِه المبيضَّة ووَجهِه رقيقِ الجِلد. "ليُبارِكْ الرَّبُّ روحي! يبدو وأن شيئًا قد سقط على أعلى قُبَّعتي!".

رفع يدًا مُرتَعِشَةً وتناول من حافَّة القُبَّعة قطعةَ ورقٍ مُلتوية، ثم فتحها بذهن شاردٍ ليكتشف أنها منحوتة بعُقدَةِ عاشقٍ حقيقيَّة، وتحمل الكلمات:

"جَمالُكِ لم يُخَلِّفني لا مُباليًا.

الإمضاء: قطرةُ جليدٍ صغيرة".

غَشِيَهم صَمتٌ قصير، ثم قال سايم، عاضًّا على لِحيَتِه:

""لم أُهزَمْ بَعدُ. ذلك الشيء اللعين حتمًا سيهبطُ في مكانٍ ما. لِنَتبَعْهُ!".

الفصل الرابع عشر

الفَلاسِفَةُ السِّتَّة

عَبرَ الحقول الخضراء، مُقتَحِمين السِّياجات المزدهرة، ناضلَ المحقِّقون السِّتَّة المشرَّدون طوال خمسة أميال تقريبًا خارج لندن. كان المتفائل في تلك العُصبة قد اقترح أنَّ عليهم أوَّلًا أن يتبعوا ذلك البالون عبر جنوب لندن في عربات تجرُّها الجِيادُ. لكنه تَراجَع في النهاية؛ نتيجةَ الرَّفضِ المستَمِرِّ للبالون أن يتبع الطُّرقَ العادية، والرفض الأكثر عِنادًا من جانب سائقي العربات أن يتبعوا البالون. بالتالي فإن المسافرين الذين لا يعرفون الكَلَلَ، المغتاظين رغم ذلك، اقتحموا الأَجَمَةَ السوداء وزحفوا عبر الحقول المحروثة حتَّى تحوَّل كلٌّ منهم إلى شكلٍ بَشَريٍّ مُخزٍ جدًّا، لِحَدٍّ أنهم بَدَوْا كصعاليكَ على نَحوٍ لا يُمكِنُ إخطاؤه. شَهِدَت حقولُ "سارِّي" الخضراء هذا الانهيارَ الأخير ومأساة الحُلَّة الرَّماديَّة الفاتحة البديعة التي انطلق سايم وهو يرتديها من سافرون بارك. انْثَنَت قُبَّعَتُه الحريرية على أنفه بسببِ غُصنٍ مُتأرجِحٍ،

وتمزَّقت أطراف معطَفِه حتى الكتف بسبب أشواكٍ مُعيقَةٍ، وانتثر طميُ إنجلترا حتى ياقَتِه؛ لكنه ما يزال يحمل لِحيَتَه الصَّفراءَ قُدُمًا بعزمٍ صامِتٍ وغاضِب، بعينَيْه مُثبَّتَتَيْن على كُرَةِ الغاز الطافية، التي بَدَت في الاحمرار الكامل لغروب الشمس وقد تلوَّنَت كسَحابَةٍ تحت الشمس الغارِبة.

"أيًّا كان الأمر"، قال لهم، "فإن المشهد جميل!".

"إنه جميل على نحوٍ عجيب وفريد!" قال البروفسور. "أتمنَّى أن تنفجر حقيبةُ الغاز البهيميَّة تلك!".

"لا"، قال دكتور بولْ، "آمل ألَّا تنفجر؛ حتى لا تؤذي الصَّبيَّ العجوز".

"تؤذيه!"، قال البروفسور المحبُّ للانتقام، "تؤذيه! لكن ليس بقدر إيذائي له لو تَمكَّنتُ من الصُّعود إليه. قطرة الثلج الضئيلة تلك!".

"لا أرغب في إيذائه، بشكلٍ ما"، قال دكتور بولْ.

"ماذا!"، صاح السكرتير بمرارَةٍ. "هل تُصدِّقون حكاية أنه رَجُلُنا في الغُرفَةِ المظلِمَة؟ قد يقول الأَحَدُ إنه أي شخص".

"لا أعرف ما إذا كنتُ أصدِّقها أم لا"، قال دكتور بولْ. "لكن ليس هذا ما أعنيه. لا يمكنني تَمنِّي انفجار بالون الأحد العجوز؛ فقط بسبب...".

"حسنًا"، قال سايم بنَفادِ صَبرٍ، "بسبب؟".

"حسنًا، لأنه مُبهِجٌ جِدًّا تمامًا كالبالون نفسه"، قال دكتور بولْ بيأس. "لا أفهم كلمةً من فكرة كَونِه نَفسَ الرَّجُل الذي منحنا جميعًا بطاقاتنا الزرقاء. يبدو الأمر وكأنه يجعل من كلِّ شَيءٍ هُراءً لا معنى له. لكنني لا أهتم بمَن يَفهَمُه؛ ذلك أنني دائمًا ما تعاطَفتُ مع الأحد العجوز نفسه، رغم كونه شريرًا. تمامًا كما لو كان رضيعًا مُتقافِزًا

هائلًا. كيف يمكنني تفسير تعاطُفي العجيب هذا؟ إنه لا يمنعني من قتاله كالجحيم! هل سيصبح الأمر واضحًا إن قلتُ إنه يعجبني لأنه بدين جدًّا؟".

"لا، لن يكون واضحًا"، قال السكرتير.

"لقد فهمتُ الآن"، صاح بولْ، "لقد أثار إعجابي لأنه بدينٌ جدًّا وخفيفٌ جدًّا. تمامًا كالبالون. دائمًا ما نعتقد أن البدينين ثقيلون، لكنه كان قادِرًا على منافسة حوريَّةٍ سَماويَّةٍ في الرَّقص. أرى الآن ما أعنيه. القوة المعتدلة تظهر في العنف، والقُوَّة الفائقة تظهر في الخِفَّة. كان الأمر كالتنبُّؤات القديمة- ماذا سيحدث إذا استطاع فيل القفز عاليًا في السَّماء كالجُندُب؟".

"فيلُنا"، قال سايم، متطلِّعًا لأعلى، "قد قفز إلى السماء كجُندُب".

"وبِشَكلٍ ما"، استنتج بولْ، "لهذا لم يَسَعني سوى الإعجاب بالأحد العجوز. لا، إنه ليس إعجابًا بالقُوَّة، أو بأيِّ شيءٍ سخيف كالقُوَّة. أرى نوعًا من البهجة في المسألة، كما لو أنه ينفجر دَومًا بأخبار جيِّدة ما. ألم تشعروا بذلك أحيانًا في يومٍ رَبيعيٍّ؟ تعرفون أن الطبيعة تلعب مكائِدَها، لكن بشكلٍ ما فإن ذلك اليوم أثبت أنها مَكائِدُ ذات طبيعة خَيِّرَة. لم أقرأ الإنجيلَ بنفسي أبدًا، لكنَّ ذلك الجزء الذي يثير الضحك هو حقيقةٌ حرفيًّا، "لماذا تقفزين، أنتِ أيَّتُها التِّلال؟" التلال تقفز حقًّا- على الأقل، تُحاوِلُ أن... لماذا أنا مُعجَبٌ بالأَحَد؟... كيف يُمكِنُني أفسِّر لكم؟... لأنَّه صاخِبٌ ومَرِحٌ لا نَحوَ ولا مَثيلَ له".

غَشِيَهم صمتٌ طويل، ثم قال السكرتير بصوتٍ غريبٍ، متوتِّر:

"لا تعرفون الأحد على الإطلاق. ربما لأنكم أفضل منِّي، وأنكم لا تعرفون شيئًا. كنتُ رجلًا مُهتاجًا، ومُتمارِضًا عابِثًا. اختارني الرَّجلُ الذي يجلس في الظلام، ذلك الذي يختارنا جميعًا؛ لأنني كنت أبدو بالمنظر المجنون للمتآمِرين تمامًا- لأن ابتسامتي كانت مُنبَعِجَة،

وعيناي مُتجهِّمَتَيْن، حتى عندما أبتسم. لكن لا بُدَّ أن هناك شيئًا آخر داخلي أثار أعصاب كُلِّ هؤلاء الرجال الفوضويِّين؛ ذلك أنني عندما رأيتُ الأحدَ لأوَّل مرَّةٍ رأيتُ فيه، ليس حيويَّتكم الوهميَّة، بل شيئًا ما خطيرًا وحزينًا في طبيعة الأشياء. وجَدتُه يُدَخِّن في غُرفةٍ مُظلِمَة، غرفة ذات ستائر بُنِّيَّة مُسدَلَة، كئيبة على نحوٍ لا نهائي مُقارَنَةً بالظلام المعتدل الذي يعيش فيه سيِّدُنا. كان يجلس هناك على مقعد طويل، كومةً هائلة على شكل رَجُلٍ، قاتم بلا شكل. أنصتَ إلى كُلِّ كلماتي دون أن ينطق بكلمةٍ أو يُبدي أيَّ حركة. صببتُ عليه توسُّلاتي الأكثر اتِّقادًا، وطرحتُ أسئلتي الأكثر بلاغةً. وبعد صَمتٍ طويل، بدأ الشيء في الاهتزاز، واعتقدتُ أنه يهتزُّ بسبب مرضٍ ما خفيٍّ. كان يهتزُّ كهُلامٍ مُقزِّزٍ حَيٍّ. ذكَّرني بكُلِّ شيء قرأتُه عن الأجسام الأساسية التي هي أصل الحياة- الرُّكامات والبروتوبلازم في البحر العميق. لم يكن أمامي سوى إخبارِ نفسي، من ارتعاشاته، أن ما يحدث قد يعني أن هذا الوَحش كان بائسًا ربَّما. ثم جَفَلتُ عندما رأيتُ أن الجبل البهيميَّ كان يهتزُّ بضِحكَةِ الوحدَة، وأن الضحكة كانت مُوجَّهَةً لي. هل تطلبون مني أن أَغفِرَ له ذلك؟ ليس من الهيِّن أن يكون المرءُ مَوضِعَ ضحكٍ من قِبَل شيءٍ ما أدنى وأقوى منه في نفس الوقت".

"بالتأكيد، أنتُم يا رفاقي تُبالِغون بتوحُّشٍ"، قاطَعَه الصَّوتُ الواضح للمُفتِّش راتكليف. "الرئيس الأحد رَجُلٌ مُريعٌ بالنِّسبة لإدراكنا، لكنه ليس مَسخًا في سيرك بارنوم كما تَظنُّون. لقد استقبلني في مكتبٍ عاديٍّ، مُرتَدِيًا مِعطفًا كاروهات رماديًّا، في وَضَحِ النهار. تَحدَّث إليَّ بطريقةٍ عادية. لكن لِأَقُلْ لكم ما هي التَّفصيلَةُ المرعِبَة بشأن الأحد. غرفته مُرتَّبة، ملابسُه مُهَندَمَة، كلُّ شيء يبدو مُنظَّمًا؛ لكنه شارِدُ الذِّهن. أحيانًا ما تُصاب عيناه البرَّاقتان الهائلتان بالعَمَى الكامِل. لساعاتٍ يَنسى أنَّنا في حَضرَته. لكنَّ غيابَ الذِّهن هذا قد يكون مسألةً مُخيفَةً للغاية في رجُلٍ سيِّئ؛ فنحن نرى الأشرار يَقِظين تمامًا. لا يمكننا تَخيُّل

رجُلٍ شرِّيرٍ حالِمٍ على نَحوٍ صادِقٍ ومُخلِص؛ لأننا لا نجرؤ على التفكير في رَجُلٍ شرِّير وهو وحيدٌ مُختَلِيًا بنفسه. رجُلٌ غائِبُ الذِّهن يعني رَجُلًا ذا طبيعة خَيِّرة. يعني رجلًا -إذا صادَفَ ورآكَ- على استعدادٍ للاعتذار. لكن هل سَمِعتُم من قبل عن رَجُلٍ غائِبِ الذِّهن على استعداد -إذا صادف ورآكَ- لِقَتلِكَ؟ هذا ما يُنهِكُ الأعصابَ، شرود الذهن مُجتَمِعًا مع القسوة. يشعر به الرِّجالُ أحيانًا عندما يمضون عبر الغابات البرِّيَّة، ويَشعرون أنَّ الحيوانات بريئةٌ وعديمةُ الشَّفَقَة في آنٍ. قد يتجاهلونها أو يَذبحونها. هل تُحبُّون قضاءَ عَشرِ ساعاتٍ قاتِلَة في رَدهَةِ استقبالٍ مع نَمِرٍ شارِدِ الذِّهن؟".

"وكيف ترى الأحد، يا جوجول؟" سأله سايم.

"لا أنظُرُ إلى الأحد من ناحية المبدأ"، أجابه جوجول ببساطَةٍ، "بأكثر ممَّا أُحدِّق في شمس الظهيرة".

"حسنًا، هذه وجهة نظر"، قال سايم متأمِّلًا. "ما رأيُكَ، يا بروفسور؟".

كان البروفسور يخطو برأسٍ مُنحنٍ وساحبًا عصاه وراءه، ولم يُجِب على الإطلاق.

"استيْقِظْ، يا بروفسور!" قال سايم بابتهاج. "أخبرنا بما تظنُّه في الأحد".

تحدَّث البروفسور أخيرًا ببطء شديد.

"أظنُّ فيه شيئًا ما"، قال له، "لا يمكنني التعبير عنه بوضوح. أو أنني، بالأحرى، أظنُّ فيه شيئًا لا أستطيع التفكير فيه بوضوح. لكنه قد يكون قريبًا من هذا. حياتي الأولى -كما تعرفون- كانت كبيرة جدًّا ومُنفَلِتَةً جدًّا".

"حسنًا، عندما رأيتُ وجه الأحد اعتقدتُ أنه كبيرٌ للغاية- الجميع يعتقد ذلك، لكنني اعتقدتُ أيضًا أنه كان مُنفلِتًا جدًّا. الوجه كان كبيرًا جدًّا، لِحَدٍّ أن المرء لا يُمكِنُه مَلءُ نظره به وإدراك أنه وجهٌ على الإطلاق. كانت العين بعيدةً جدًّا عن الأنف، لحَدٍّ أنها لم تكن عينًا. والفَم مُفرِطًا جدًّا في حَدِّ ذاته، لِحَدٍّ أن المرء يضطرُّ للتفكير فيه بمفرده. المسألة بأكمله عَصِيَّة على التفسير".

توقَّف عن الحديث لبرهة، ساحبًا -ما زال- عصاه، ثم تابع قائلًا:

"لَكِنْ لِنَقُلْ إنها كانت كما يلي. سائرًا على طريق ليلًا، رأيتُ حَمَلًا، ونافِذَةً مُضاءةً وسَحابةً تصنعان معًا وجهًا مكتمِلًا تمامًا لا يمكن إخطاؤه. إذا تمتَّع أيُّهم بذلك الوجه في الفردوس فسأعرفه مجدَّدًا، مع ذلك، عندما سِرتُ أبعَدَ قليلًا اكتشَفتُ أنه لم يكن هناك وجهٌ، وأن النافذة كانت على بُعدِ عشر ياردات، وأن الحَمَل على بُعدِ مائة ياردة، وأن السحابة وراء العالم. حسنًا، أفلَتَ منِّي وَجهُ الأَحَدِ؛ هرع بعيدًا إلى اليمين واليسار، تمامًا كما تفرُّ الصور التي تطرأ صُدفَةً على ذهن المرء. لكلِّ ذلك؛ جَعَلَني وجهُه -بشكلٍ ما- مُتشكِّكًا بشأن ما إذا كانت هناك أيَّة وجوه. لا أعرف ما إذا كان وجهك، يا بولْ، وجهًا فِعلًا أم تَجميعًا لمجموعة احتمالات في المنظور. قد يكون قُرصٌ أسودُ واحِدٌ من عُوَيناتِكَ البهيميَّة قريبًا جدًّا، والآخر على بُعدِ خمسين ميلًا. أوه، إن شكوكَ صاحب المذهب المادِّيِّ لا تساوي قمامَةً. علَّمَني الأَحَدُ آخِرَ وأسوأ شكوكِ أصحابِ المذهَبِ الرُّوحيِّ، أنا بوذيٌّ، فيما أظنُّ، والبوذية ليست عقيدةً؛ إنها شَكٌّ. عزيزي البائِس بولْ، لا أؤمن بأنَّ لديكَ وجهًا حقًّا. لا أتمتَّع بما يكفي من الإيمان للاعتقاد في المادَّة".

كانت عينا سايم مُثبَّتَتَيْن على المدار السَّماويِّ المنحرف الذي بدا، باحمراره في ضوءِ المساء، كعالَمٍ أكثر تَورُّدًا وأكثرَ براءَةً.

"هل لاحَظتَ الشيء العجيب"، قال، "بشأن أوصافِكَ؟ كلُّ رَجُلٍ منكم يرى الأحدَ بشكلٍ مُختَلِفٍ تمامًا عن الآخر، مع ذلك فإن كلَّ رَجُلٍ منكم لا يمكنه سوى إيجادِ شيء واحِدٍ لمقارَنَتِه به- الكون نفسه. يراه بولْ كالأرض في الربيع، وجوجول كالشَّمس في نهارِ ظَهيرَةٍ. بينما يُذكِّر السكرتير بالبروتوبلازم عديمَةِ الشَّكل، والمفتش بلا مُبالاة الغابات العذراء. في حين يقول البروفسور إنه يُشبِهُ مَشهدًا طبيعيًّا مُتغيِّرًا. هذا غريب، لكنَّ الأكثرَ غَرابَةً أنني أيضًا لديَّ فكرتي العجيبة عن الرئيس، وأنا أيضًا أظنُّ في الأحد ما أظنُّه في العالَم بأكمَلِه".

"تابع بشَكلٍ أسرعَ قليلًا، يا سايم"، قال بولْ؛ "لا تَشغَلْ بالَكَ بالبالون".

"عندما رأيتُ الأحدَ للمرَّة الأولى"، قال سايم ببُطءٍ، "لم أرَ سوى ظَهرِه؛ وعندما رأيتُ ظَهرَه، أدركتُ ساعتها أنه أسوأُ الرِّجال طُرًّا في العالم. عُنُقُه وكتفاه كانوا وحشيِّين، كعُنُقِ وكَتِفَيِ إلهِ القِرَدَة. في رأسه انحناءَةٌ بَشريَّةٌ بالكاد، كانحناءَةِ ثَورٍ. واقع الأمر، واتَتني على الفور الفِكرَة المثيرة للاشمئزاز بأنه ليس إنسانًا على الإطلاق، بل بهيمة مُتَّشِحَة بملابس الرِّجال".

"تابع"، قال له دكتور بولْ.

"ثم حَدَثَ الشَّيءُ الغريب. كنتُ قد رأيتُ ظَهرَه من الشارع، بينما يجلس في الشرفة. ثم دَلَفتُ إلى الفندق، ومُتَّجهًا إلى الجانب الآخر منه، رأيتُ وجهه في ضوء الشمس. أرعَبَني وَجهُه، كما حدث مع الجميع؛ لكن ليس لأنه كان وحشيًّا، ليس لأنه كان شريرًا. على العكس، لقد أَرعَبَني لأنه كان في غايَةِ الجَمال، لأنه كان في غاية البهاء".

"سايم"، صاح السكرتير، "هل أنتَ مريضٌ؟".

"كان وجهَ رئيسِ مَلائِكَةٍ من الأزمنة العَتيقة، حاكِمًا عادِلًا بعد حروبٍ بطوليَّةٍ. في العينين كان ضحِكٌ، وفي الفم شَرفٌ وحُزن. كان هناك

نَفسُ الشَّعرِ الأبيض، ونفس الكَتِفَين الهائلتَيْن المتَّشِحَتَيْن بالرَّماديِّ، اللَّتَيْن كنتُ قد رأيتهما من الخلف. لكن عندما رأيته من الخلف كنتُ متيقِّنًا أنه حيوان، وعندما رأيته من المقدِّمة أدركتُ أنه إله".

"بان"[1]، قال البروفسور حالِماً، "كان إلهًا وحيوانًا".

"وبعدها، ومُجدَّدًا ودائمًا"، تابَع سايم كرَجُلٍ يتحدَّث إلى نفسه، "كان ذلك لغز الأحد بالنسبة لي، وهو أيضًا لغز العالَم. عندما أرى ظهره المخيف، أصبح على يقينٍ بأن الوجه النبيل ليس سوى قناعٍ. عندما أرى الوجه ولو لِوَهلَةٍ، أدرك أن الظَّهر ليس إلَّا مَزحَةً مُهرِّج. السيِّئ سيِّئٌ للغاية، لحَدِّ أنه لا يَسَعُنا سوى التفكيرِ خَيرًا في الحوادث؛ والخَيِّر خَيرٌ للغاية، لِحَدِّ أننا نشعر بيقينٍ بأن الشَّرَّ قابِلٌ للتفسير. لكنَّ المسألة بأكملها بَلَغَت ذُروَتَها بالأمس عندما تسابَقتُ مع الأحد في عَربَةِ الأُجرة، وأوشَكتُ على اللحاق به طوال الطريق".

"هل كان لديكَ وقتٌ للتفكير حينَها؟" سأله راتكليف.

"الوقت؟" أجابه سايم، "نعم، من أجل فِكرَةٍ شَنيعَةٍ واحدة. تملَّكَتني فجأةً فكرةُ أنَّ الظَّهر الأعمى -الخاوي- لرأسه كان في الحقيقة وَجهَه- وجهًا مُريعًا، بلا أَعيُنٍ، يُحدِّق فيَّ! وتخيَّلتُ أن الشكل الذي يركض أمامي كان في الحقيقة شكلًا بشريًّا يركض للوراء، ويرقص في رَكضِه".

"مُفزِع!" قال دكتور بولْ، مُرتَعِشًا.

"مُفزِعٌ ليسَت الكلمة الملائمة"، قال سايم. "كانت بالضَّبط أسوأَ لَحظَةٍ في حياتي بأكملها. ومع ذلك، بعد عشر دقائق، عندما أخرَجَ

---

(1) الإله بان (Pan): حسب الميثولوجيا الإغريقية هو إلهُ المراعي والصَّيد البرِّيِّ، بِقُرونٍ وأرجُلِ ماعِزٍ، ووَجهٍ بَشريٍّ- (المترجم)

رأسَه من العربة وتلوَّى وَجهُه كتماثيل الكُرغل[1] البشعة النَّاتِئَة، أدرَكتُ أنه لم يكن سوى أَبٍ يَلعَبُ الاستغمَّاية مع أطفاله".

"لعبة طويلة"، قال السكرتير، ونظره إلى حذائه الطويل الممزَّق عابِسًا.

"أنصِتوا إليَّ"، صاح سايم بتأكيدٍ استثنائي. "هل لي أن أُخبِرَكُم بِسِرِّ العالَمِ بأكمَلِه؟ إنها الحقيقة أننا لم نعرف سوى ظَهرِ العالَم. نرى كلَّ شيءٍ من الخلف، ويبدو وحشيًّا. تلك ليس شجرَةً، بل ظَهرَ شَجَرة. وتلك ليست سَحابة، بل ظَهْرَ سحابة. ألا ترون أن كُلَّ شيء ينحني ويُخفي وجهًا؟ فقط لو استطعنا الاستدارةَ إلى المقدِّمة...".

"انظُرْ"، صاح بولْ بصَخَبٍ، "البالون يهبط إلى الأرض!".

لم يَكُن بولْ في حاجَةٍ للصُّراخ مناديًا على سايم؛ لأنه لم يبتعد بعينيه أبدًا عن البالون. رأى الكُرَةَ المضيئَةَ الهائلة تَتمايَلُ فجأةً في السماء، تُعدِّل من نفسها، ثم تغرق ببطءٍ وراءَ الأشجار كشمسٍ غارِبَة.

ألقى الرَّجُلُ المدعو جوجول، الذي بالكاد نَطَقَ بكلمَةٍ واحدة طوالَ أسفارهم المرهقة، بِيَدَيْه فجأةً كرُوحٍ ضائِعَةٍ.

"إنه مَيِّتٌ!" صاح قائلًا. "والآن أدرك أنه كان صديقي- صديقي في الظلام!".

"ميِّتٌ!" نَخَرَ السكرتير. "لن تجده مَيِّتًا بسهولة. حتى وإن كان قد سقط من السيارة، فسنجده يتدحرج كوَلَدِ الحِصان في الحقول، رافِسًا ساقَيْه من أجل المتعة".

مكتبة
t.me/t_pdf

(1) الكُرغل أو الجرجول هو حيوان أسطوري منحوت على شكل ميزاب في الجدران الخارجية لعدد من كنائس العصور الوسطى مثل كاتدرائية نوتردام في باريس.

"تَضارُب الحوافر"، قال البروفسور. "ولد الحصان يفعل ذلك، وكذلك بان".

"بان ثانيةً!" قال دكتور بولْ مُهتاجًا. "يبدو أنَّكَ تعتقد أن بان هو كلُّ شيء".

"هو كذلك بالفعل"، قال البروفسور، "في اليونانية، Pan تعني (كل شيء)".

"لا تَنسَ"، قال السكرتير، مُتطلِّعًا للأسفل"، أنه أيضًا يعني الفزع (Panic)".

كان سايم قد انتصب واقفًا دون سماع أيٍّ من هذه العبارات الانفعاليَّة.

"لقد سقط هناك"، قال بعد ذلك ببُرهَةٍ. "لِنَلحَقْ به!".

ثم أضاف بإيماءَةٍ يَتعذَّر وَصفُها:

"أوه، إذا كان قد خَدَعَنا بمسألة مَقتَلِه! فسيكون الأمر مُجرَّدَ واحِدَةٍ من مَزحاتِه".

خطا مُبتَعِدًا نحو الأشجار البعيدة بطاقَةٍ مُنتَعِشَة، أَسمالُه وأَشرِطَتُه تُرَفرِفُ في الرِّياح. تَبِعَه الآخَرون بأقدامٍ مُتقرِّحَة وبطريقَةٍ أكثر تَشكُّكًا. وتقريبًا في نفس اللحظة أدرك الرِّجال السِّتَّة جميعهم أنهم لم يكونوا بمفرَدِهم في الحقل الصغير.

عبر مُربَّع الأرض كان رَجُلٌ طويلٌ يتقدَّم ناحِيَتَهم، مُستَنِدًا على عصا طويلَةٍ غريبةِ الشَّكل كالصَّولجان. كان مُتَّشِحًا بحُلَّةٍ راقِيَةٍ، لكن على طراز قديم، بسروالٍ يَصِلُ إلى الرُّكبَتَيْن، لونها يتراوح بين الأزرق، والبنفسجي والرمادي؛ ألوان كان يمكن رُؤيَتُها في ظِلالٍ مُعيَّنة على أرض الغابة. شَعرُه ذو لونٍ رماديٍّ مُبيَضٍّ، وعند النظرة الأولى عليه، ومُقارَنته بسرواله الذي يَصِلُ للرُّكبَتَيْن، بدا مُغبَرًّا بمسحوقٍ رماديٍّ. كان

تقدُّم الرجل هادئًا جدًّا؛ ولولا الجليد الرمادي على رأسه، كان بإمكانه التَّخفي في واحد من ظِلال الغابة.

"يا سادة"، قال لهم، "سيِّدي ينتظركم في عَربَةٍ في الطريق المجاوِر".

"مَن هو سَيِّدُكَ؟" سأل سايم، مُنتَصِبًا بهدوءٍ ما زال.

"أُخبِرتُ أنَّكم تعرفون اسمه"، قال الرجل باحترامٍ.

غَشِيَهم الصَّمتُ، ثم قال السكرتير:

"أين هذه العَرَبَة؟".

"إنها تَنتَظِرُ منذ بضعةِ دقائِقَ"، قال الغريب. "وصل سيِّدي لتوِّه إلى منزله".

نظر سايم إلى يَسارِه ويَمينِه على رُقعَةِ الحقل الأخضر الذي وَجَدَ نفسه فيها. كانت الأسيجَةُ من النوع العاديِّ، وبَدَت الأشجارُ أشجارًا عادِيَّةً؛ مع ذلك شَعَرَ وكأنَّه أسيرٌ في أرض الجِنِّ.

نظر إلى المبعوث الغامِضِ من رأسه إلى أخمَصِ قَدَمَيْه، لكنه لم يتمكَّن من اكتشاف أيِّ شيءٍ باستثناء أن مِعطَفَ الرَّجُل كان بالضَّبطِ بِلَون الظِّلال الأرجوانيَّة، وأن وجه الرَّجُل كان بالضبط بلونِ السَّماء الحمراء والبُنِّيَّة والذَّهبيَّة.

"أرشدنا إلى المكان"، قال سايم بإيجازٍ. بلا كلمَةٍ واحِدَةٍ استدار الرَّجُلُ ذو المعطَفِ الأرجوانيِّ وسار عبر الفَجوَةِ في السِّياج، الذي قادهم فجأةً إلى نور طريقٍ أبيضَ.

بينما الجوَّالون السِّتَّة ينسلُّون عَبرَ هذا الشارع الكبير، رأوا الطريقَ الأبيض مسدودًا بما بدا أنه صَفٌّ طويلٌ من العَرَبات، كصفوف العربات التي تنتهي عادةً عند منزل ما في بارك لين. على طولِ جانِبِ هذه العربات كان يَقِفُ طابورٌ من الخَدَم المتأنِّقين، المتَّشِحين جميعهم بزِيٍّ رَماديٍّ أزرق، وكلهم يتمتَّع بخَصلَةٍ مُعيَّنَةٍ من الفخامة

والحريـة لا يتمتـع بهـا عـادَةً خَـدَمُ أيِّ چنتلـمان، لكنهـا بالأحـرى جديـرة بمسـؤولي وسُـفراء مَلِـكٍ عظيـم. كان مـا لا يَقِـلُّ عـن سِـتِّ عَربـاتٍ تَقِـفُ في انتظارهـم، واحـدة لـكلِّ واحِـدٍ مـن العُصبَـة البائسـة والمنهَكَـة. كان الخَـدَمُ جميعهـم (كـما لـو أنهـم في بـلاطٍ مَلَـكيٍّ) يحملـون سـيوفًا، وبينـما يزحـف كلُّ رَجُـلٍ إلى عَرَبَتِـه سـحبوها مـن أغمادهـا وأطلقـوا تحيَّـةً بانفجـارٍ مُفاجِـئٍ مـن الحديـد الصُّلـب.

"مـاذا يعنـي كُلُّ هـذا؟" سـأل بـولْ سـايم أثنـاءَ افتراقهـم. "هـل هـي مَزحَـة أخـرى مـن مَزحـاتِ الأحـد؟".

"لا أعلـم"، قـال سـايم بينـما يسـترخي مُرهَقًـا عـلى وسـائد عربتـه؛ "لكـن إذا كان الأمـر كهـذا، فإنـه واحِـدَةٌ مـن المزحـات التـي سـنتحدَّث عنهـا كثـيرًا. مَزحَـة خـيِّرة".

كان المغامِـرون السِّـتَّة قـد مَـرُّوا بمُغامـراتٍ كثيرةٍ، لكـنَّ أحـدًا لم يَحمِلْهم عـن الأرض عـلى نحـو مُطلَـقٍ كـما عرفـوا في مغامـرة الرفاهيـة الأخـيرة هـذه. كانـوا جميعًـا قـد اعتـادوا عـلى أن تمـضي الأمـورُ عـلى نحـوٍ قـاسٍ وصعـب؛ لكـنَّ الأمـور أغرقتهـم بتحوُّلهـا إلى السَّلاسَـة والنعومـة بغتـةً. لم يكـن بمقدورهـم أن يتخيَّلـوا بـأيِّ شـكلٍ إلى أيـن تمـضي العَرَبـاتُ بِهِـم؛ كان يكفيهـم أن يدركـوا أنهـا عَربـاتٌ، وأنهـا عَربـاتٌ بوسـائِدَ. وأبـدًا لم يتصـوَّروا مَـنْ هـو ذلـك الرَّجُـلُ العجـوز الـذي قادهـم فيهـا، لكـن كان يكفـي تمامًـا أنـه قـد قادهـم بالتأكيـد إلى العَرَبـات.

مَضَـت عربـة سـايم عـبرَ ظـلامٍ مُنسـابٍ بعُنـفٍ مـن الأشـجار في عُزلَـةٍ مُطلَقَـة. كان مـن الطبيعـيِّ بالنسـبة لـه -حامِـلًا ذَقنَـه الملتَحِيَـةَ للأمـام باهتيـاجٍ لأطـولِ حَـدٍّ مُمكِـنٍ، بعـد أن خرَجَـت المسـألةُ بأكملهـا مـن يَـدِه- أن يتراجَـعَ سـاقِطًا عـلى الوسـائد بانهيـارٍ وإجهـادٍ واضِحَـيْن.

عـلى نحـوٍ تَدريجـيٍّ جـدًّا وغامِـضٍ جـدًّا أدرك إلى أيِّ طُـرُقٍ وافِـرَةٍ كانـت تحملـه العربـة. رأى أنهـم مـرُّوا بالبوَّابـات الحجريَّـة لمـا قـد يكـون

حديقةً، وأنهم بدؤوا تدريجيًّا في صعود تَلٍّ كان بشكلٍ ما، بأشجار على جانِبَيْه، أكثر سلاسةً من الغابات. وهناك بدأ يراوده، كما لو كان رجلًا يخطو ببُطءٍ مُستَيقِظًا من نومٍ قريرٍ، شعور باللَّذَّة في كل شيء. شعر أن الأَسْيِجَةَ كانت كما ينبغي أن تكونَ عليه الأَسْيِجَة: جدران تغصُّ بالحياة، أن الأسيجة كجيشٍ مُنضَبِطٍ من البَشَر، وفوق كل هذا: أكثر حياةً. رأى أشجار الدِّردار السَّامِقَة وراء الأسيجة، وفكَّر على نحوٍ غامض كيف يمكن للصِّبيان السعداء أن يتسلَّقوها. ثم اتَّخذَت عربتُه مُنعَطَفًا على الطريق، ورأى بغتةً وعلى نحوٍ هادئ، كسحابة غروب ممتدَّة واطئة، منزلًا ممتدًّا واطئًا، يانِعًا في ضوء الغروب الرقيق. قارن الأصدقاء الستة جميعهم بين آرائهم بعد ذلك وتعاركوا؛ لكنهم اتَّفقوا جميعًا على أن تلك البُقعَة -بطريقةٍ ما، لا يُمكِنُ تَفسيرُها- تُذكِّرهم بصِباهم. على الأَخَصِّ قِمَّة شجرة الدِّردار تلك، أو ذلك الممشى المتعرِّج، أطلال ذلك البستان أو شكل تلك النافذة؛ لكنَّ كُلَّ رَجُلٍ منهم اعترف أنه سيتذكَّر هذا المكانَ قبل أن يتمكَّن من تَذَكُّر أمِّه.

عندما درَجَت العرباتُ أخيرًا إلى مدخلٍ كبير، واطئ، غائر، تقدَّم لاستقبالهم رَجُلٌ آخر بنفس الزِّيِّ، لكنه يرتدي نَجمَةً فضِّيَّةً على الصدر الرمادي لمعطفه. ثم قال هذا الرَّجُلُ المثير للإعجاب لسايم المذهول:

"ستُقدَّم لكم المرطِّبات في غُرفَتِكم".

انطلق سايم، تحت نفس تأثير التنويم المغناطيسيِّ للدَّهشة، صاعِدًا على دَرَج البلُّوط الكبير في إثر الخادم المحترم. دَلَفَ إلى جناحٍ فَخمٍ من الغُرَف، بَدَت وأنها مُصمَّمة خصِّيصًا من أجله. خطا إلى مرآةٍ طويلة، بالغريزة المعتادة لطبَقَتِه الاجتماعية؛ لِضَبطِ رَبطةِ عُنُقِه أو تشذيب شعره، وهناك رأى الشَّكلَ المرعِبَ لما أصبح عليه- الدَّمُ يسيل عبرَ وَجهِه من الموضع الذي أصابه الغُصن، وشَعره مُنتَصِبٌ

كالأسمال الصَّفراء في صفوف العُشبِ، وملابسه مُمزَّقة إلى مزقاتٍ طويلة، مُتمايِلَة. على الفور انبثق اللُّغزُ بأكمله، وكذلك السؤال كيف وصل إلى هنا، وكيف له أن يخرج ثانيةً. وفي نفس اللحظة بالضَّبط قال له رَجُلٌ مُتَّشِحٌ بالأزرق، كان قد تَمَّ تعيينه كخادِمٍ له، بوَقارٍ شديد:

"لقد أخرجتُ ملابِسَكَ، يا سيِّدي".

"ملابِسُ!" قال سايم بطريقة ساخرة. "لا أمتلك أيَّ ملابِسَ باستثناء هذه"، ورفع المزقَتَيْن الطويلتين من معطَفِه الصُّوفيِّ كحِبالِ زينَةٍ بديعة، وأبدى حركةً كما لو كان لإدارة فتاةٍ في رقصَةِ باليه.

"يطلب مني سيِّدي أن أُخبِرَكَ"، قال الخادم، "أننا سنُقيم حفلةً راقِصَةً تَنكُريَّة الليلة، وأنه يرغب أن ترتدي الزِّيَّ الذي أعددتُه. في أثناء ذلك، سيِّدي، توجد قِنِّينة بورجندي وبعضٌ من لحم طائِرِ الدَّرَّاج البارد، وهو ما يأمل ألَّا ترفضه، حيث أن العشاء لن يُقدَّم قبل بضعِ ساعات".

"الدَّرَّاجُ البارد شيءٌ طيِّب"، قال سايم مُتأمِّلًا، "والبورجندي شيءٌ طيِّبٌ هائل. لكنني لا أرغب حقًّا في أيٍّ منهما بقدر ما أرغب في معرفة ماذا يعني كل هذا بحقِّ الشيطان، وأي نوع من الأزياء قد جَهَّزتَه لي. أين هو؟".

رفع الخادِمُ ما يشبه قماشًا عُثمانيًّا طويلًا من الجوخ، ذا لَونٍ أزرق مُخضَرَّ كالطاووس، يشبه قطعةَ دومينو بالأرجح، عليه كانت شَمسٌ ذهبيَّةٌ كبيرة مُزَركَشَة تنتثر حولها نجومٌ وأهِلَّةٌ مُتوهِّجة.

"سترتدي زِيَّ الخميس يا سيدي"، قال الخادم مُلاطِفًا بعضَ الشيء".

"مُتَّشِحٌ بِزِيِّ الخميس!" قال سايم بتأمُّلٍ. "إنه لا يبدو زيًّا مريحًا".

"أوه، نعم، يا سيدي"، قال الآخر بحماس، "إن زِيَّ الخميس مُريحٌ تمامًا، يا سيِّدي. إنه ينغلق حتى الذَّقن".

"حسنًا، لا أفهم أي شيء"، قال سايم، مُتنهِّدًا. "اعتَدتُ طويلًا جدًّا على المغامرات المرهِقَة لِحَدٍّ أنني قد أُصعَقُ من أيِّ مُغامَرَةٍ مُريحة. رغم ذلك، اسمَحْ لي بالسؤال لماذا يُفتَرَضُ أن أكون كالخميسِ في معطَفٍ أخضرَ مُرقَّطٍ بالشُّموس والأقمار من كُلِّ جانب. هذه المدارات، في رأيي، تَسطَعُ في أيامٍ أخرى. أتذكَّر أنني رأيتُ القمر يوم الثلاثاء ذات مرَّة".

"معذرةً، سيدي"، قال الخادم، "نقدِّم لك أيضًا الكتابَ المقدَّس"، وبإصبعٍ غارِقةٍ في الاحترام والتَّصلُّب أشار إلى فقرة في الإصحاح الأوَّل من سِفر التَّكوين. قرأه سايم مُتسائِلًا. كانت الفقرة التي تحكي عن ارتباط اليوم الرابع من الأسبوع بخَلْقِ الشَّمس والقمر. إلَّا أن هذا كان انطلاقًا من نهاية الأسبوع في يومِ أَحَدٍ مَسيحيٍّ.

"الأمر يزداد غموضًا أكثرَ وأكثر"، قال سايم، بينما يجلس على مقعد. "مَن هؤلاء الناس الذين يُقدِّمون لحوم الدَّرَّاج الباردة والبورجندي، والملابس الخضراء والأناجيل؟ هل يُقدِّمون كلَّ شيء؟".

"نعم سيِّدي، كُلُّ شيء"، قال الخادم بوَقارٍ. "هل لي أن أُساعِدَكَ في ارتداء زِيِّكَ؟".

"أوه، أَمْسِكْ بالشَّيء اللعين!" قال سايم بنَفادِ صَبرٍ.

لكن رغم أنه كان مَيَّالًا لازدراء هذه المسرحية الصامتة، إلَّا أنه شعر بتلقائيَّةٍ وحُرِّيَّة عجيبة في حَرَكاتِه، بينما الرداء الأزرق والذهبي يَنسلُّ حول جسده؛ وعندما اكتشف أنه مُضطَرٌّ لحَملِ سَيفٍ، أثار ذلك فيه حُلمًا صبيانيًّا. وبينما يخطو خارِجًا من الغرفة طوَّح بالثَّنيات على كتفه بحَرَكةٍ واحِدَة، وبرز سيفُه مائِلًا، ثم انطلق بكُلِّ خُيَلاء وغرور الشُّعراء الجَوَّالين؛ ذلك أن هذه الملابس التَّنكُّريَّة لا تخفي، بل تَكشِفُ.

الفصل الخامس عشر

الرَّجُلُ مُلقي الاتِّهامات

خطا سايم على طول الردهة وفي أثناء ذلك رأى السكرتير واقفًا على قمَّة دَرَجٍ مُتطاوِلٍ هائل. أبدًا لم يَبدُ الرجل بهذا النَّبالة من قبل. كان ملتفًّا بحبلٍ طويل من أَسوَدِ لَيلٍ بلا نجوم، في منتصفه يَنسابُ رباطٌ أو شريطٌ عَريضٌ من الأبيض النَّقيِّ، كعمود ضوءٍ وحيد. في المجمَلِ بدا كرداءٍ كهنوتيٍّ شديد التَّزَمُّت. لم يكن سايم في حاجَةٍ إلى البحث في ذاكِرَتِه أو في الإنجيل حتى يتذكَّر أن اليوم الأول في الخَلْقِ شَهِدَ خَلقَ النُّور من الظَّلام فحسب. وأن هذا الرِّداء كان كافيًا في حدِّ ذاته للإيحاء بالرَّمز؛ وشعر كم أن هذا الشكل ذا الأسود والأبيض النَّقيَّ يُعبِّر تمامًا عن السكرتير الشاحب والزَّاهد، بكل حقيقته غير البشريَّة وهَيَجانِه البارد، الذي كان أداتَه في شَنِّ الحرب على الفوضويِّين، والتَّخفِّي مع ذلك كواحِدٍ منهم. بالكاد اندهش سايم أن يلاحظ -وسط كلِّ هذه الأريحية والحفاوة في كل ما يُحيطُ بهم- أن عينَيْ الرَّجُل كانتا

مُتجهِّمَتَيْن رغم ذلك. لا رائِحَة جعَّة الشعير ولا بساتين الفاكهة كان بمقدورها أن تُوقِفَ السِّكرتير عن طرح أسئلة عقلانيَّة.

إذا كان سايم قادِرًا على رؤية نفسه، فسيدرك أنه -أيضًا- كان يبدو كنفسه لأوَّل مرَّةٍ، وليس كأيِّ شخصٍ آخر؛ ذلك أنه إذا كان السكرتير يُمثِّل الفيلسوف الذي يُحبُّ الأصل والنُّورَ عديمَ الشكل، فإن سايم كان من نوع الشُّعراء الذي يبحثون دائمًا عن خَلقِ النور بأشكالٍ مُميَّزة، عن شقِّه وفَصلِه إلى الشَّمس والنجوم. قد يُحبُّ الفيلسوفُ "اللانهائيَّ" أحيانًا، ولكن الشَّاعِرَ يعشق "النهائيَّ" دائمًا. بالنسبة إليه، فإن اللحظة العظيمة ليست خَلقَ النُّور، بل خلق الشمس والقمر.

بينما هما يهبطان الدَّرجات الواسعة رَأَيَا في الأسفل راتكليف، الذي كان مُتَّشِحًا بأخضرَ ربيعيٍّ كالصَّيَّادين، والشكل الذي على ردائه كان تَداخُلًا مُخضَرَّ من الأشجار. ذلك أنه يُمثِّل اليومَ الثالث الذي خُلِقَت فيه الأرض والأشياء الخضراء، ووجهه العقلاني مُتناسِق الملامح، بشكوكيَّته التي لا تخلو من الحميميَّة، بدا مُناسِبًا للغاية لذلك اليوم.

اندفعوا خارجين من مَمَرٍّ آخرَ عريضٍ وواطئ إلى حديقةٍ إنجليزيَّة قديمةٍ وكبيرة جدًّا، تغصُّ بالمشاعل ومصابيح النِّيران، تحت ضوئها المنكَسِر كان كرنفالًا هائِلًا من الناس يرقصون بأزياءَ مُتنافِرَة. بدا لسايم أنه يرى كلَّ شيءٍ في الطبيعة وقد أصبح مُجرَّد مُحاكاةٍ عَبرَ أزياءَ مَجنونَةٍ ما. أمامه كان رَجلٌ يرتدي زيَّ طاحونَةٍ بأشْرِعَةٍ هائلة، ورَجُلٌ في زيِّ فيلٍ، وآخر على شكل بالون؛ واثنان آخران، بَدَوا معًا وكأنهما يحافظان على مجرى مُغامراتهما الهَزليَّة. بل إن سايم رأى، بارتعاشةٍ غريبَةٍ، راقِصَة ترتدي ما يشبه طائِرَ "أبو قرن" ضخم المنقار، بمنقارٍ أطول منه شخصيًّا بمرَّتَيْن- الطائر الغريب الذي كان قد استقرَّ بقوَّةٍ في خياله كسؤالٍ حيٍّ بينما كان يندفع عبر الطريق الطويل في "زولوچيكال جاردنز". كان أمامه أيضًا ألفُ كائِنٍ آخر بهذا

الشَّكل. عمود إنارةٍ راقِصٌ، شجرة تفاح راقصة، سفينة راقصة. كان للمَرءِ أن يتخيَّل أن الأنغام الهائجة المتمرِّدة لموسيقيٍّ مجنون ما قد وَضَعَت كلَّ الكائنات العادية في الحقول والشوارع في رقصَةٍ سريعة أبديَّة. وبعد ذلك بزمَنٍ طويل، عندما أصبح سايم هادئًا في منتصف العمر، لم يتمكَّن أبدًا من رؤية واحدٍ من تلك الكائنات بعَينِها: عمود الإنارة، أو شجرة التُّفَّاح، أو الطاحونة- دون أن يُفكِّر أنه ليس سوى عِربيدٍ ضَلَّ طريقه من عَربدَة الحفلة التَّنكُّريَّة هذه.

على أحد جانِبَيْ هذا المرج، الغاصِّ بالراقصين، كان يوجد ما يشبه مُرتفعًا أخضر، يشبه الشُّرفات في الحدائق قديمة الطراز.

على جوانبها، فيما يُشبه الهلال، انتصَبَت سبعةُ كَراسٍ عظيمَةٍ، عروش الأيام السبعة. كان جوجول ودكتور بولْ قد جلسا على مقعدَيْهما بالفعل؛ والبروفسور في طريق صعوده إليه. جوجول، أو الثلاثاء، ببساطته قد تجسَّدت جيِّدًا برداء مُصمَّمٍ على شكل تَشعُّب المياه، ينفصل عند جبينه وينساب إلى قدَمَيْه، بالرَّماديِّ والفضِّي، كصفحة من الأمطار. بينما يرتدي البروفسور، الذي كان يومه ذلك الذي خُلِقَت فيه الطيور والأسماك -أشكالُ الحياة الأكثر بدائيةً- زيًّا ذا لون أرجوانيٍّ قاتِم، تنتشر عليه أسماك ذات أعين جاحظَةٍ وطيور استوائية وحشيَّة، بما يُمثِّل اتحاد الخيال الغامض والشَّكِّ داخله. وارتدى دكتور بولْ، آخِرُ أيام الخلق، معطَفًا مُغطًّى بحيواناتٍ شِعاريَّة باللَّونَيْن: الأحمر والذهبي، وعلى شعار نبالته إنسانٌ جامِحٌ. استلقى مسترخيًا في مقعده بابتسامة عريضة؛ صورة المتفائل مُجسَّدةً.

واحدًا بعد آخر ارتقى الجوَّالون المرتفع واستقرُّوا في مقاعدهم العجيبة. وأثناء جلوس كُلٍّ منهم انطلق صخبٌ حماسيٌّ من الكرنفال، صَخَبٌ جدير بحشودٍ تستقبل الملوك. قُرِعَت الكؤوس وارتعشت المشاعل، وتطايَرَت قُبَّعاتُ الريش في الهواء. الرجال الذين هُيِّئَت لهم

تلك العروش كانوا رجالًا مُتوَّجين بأكاليلَ استثنائية. لكن الكرسي في المنتصف كان شاغِرًا.

كان سايم على يسار ذلك الكرسي، والسكرتير على يمينه. تطلَّع السكرتير عبر العرش الشَّاغر إلى سايم، وقال زامًّا شفَتَيْه:

"لا نعرف بَعدُ ما إذا كان مَيِّتًا في أحد الحقول".

فور أن سمع سايم هذه الكلمات بالكاد، رأى على بحر الوجه البَشريِّ أمامه تَبدُّلًا مُرعبًا وبديعًا، كما لو أن السماء قد انفتحت وراء رأسه. لكنه الأحد قد مرَّ بصمتٍ فحسبُ على طول المقدِّمة كظِلٍّ، وجلس على مقعد المنتصف. كان مُتَّشِحًا بملابِسَ بسيطة، بأبيضَ نَقيٍّ ومُرعِب، وشَعرُه كَلَهبٍ فضِّيٍّ على جبينه.

لزَمَنٍ طويل -بدا كساعات- تَمايَلَت حفلةُ تَنكُّر النَّوع البشري الهائلة تلك، وخَطَت بقوَّةٍ أمامهم على وَقْعِ موسيقى زاحِفَةٍ ومُبتَهِجَة. بدا كُلُّ زَوجٍ راقص كغراميَّاتٍ مُتنافِرَة، قد تكون جِنِّيَّةً ترقص مع صندوق بريد، أو فتاة مُزارِعَة ترقص مع القمر؛ لكنَّ الأزواج جميعها -بشكلٍ ما- بَدَت عَبثيَّةً كأليس في بلاد العجائب، ومع ذلك وقورة وحانية كقِصَّة حُبٍّ. أخيرًا، رغم ذلك، بدأ الحشد السميك في التلاشي وتفكيك نفسه. الأزواج يمضون بعيدًا إلى مماشي الحديقة، أو يبدؤون في الاندفاع نحو نهاية المبنى حيث تنتصب قُدورٌ هائلة كأوعية السمك، تنبعث منها أدخِنَةٌ خلائِطُ، حارَّةٌ، ذاتُ روائِحَ من الشعير أو النبيذ. وفوق كل هذا، على ما يشبه إطارًا أسود على سقف المنزل، كانت شُعلَةٌ عملاقَةٌ تزأر في سَلَّتها الحديدية، مضيئةً الأرض لأميالٍ. كانت تُطوِّح بالتأثير البيتي لضوء النار على وجه الغابات الشاسعة ذات اللون الرمادي أو البني، بل وبَدَت أنها تملأ بالدفء خواءَ الليل الأعلى. مع ذلك، فهذه أيضًا، بعد بُرهَةٍ، بدأت في الخفوت، واحتشَدَت الجماعات الشَّاحِبَةُ أكثر وأكثر حول المراجل الهائلة، أو

مَضَت، ضاحِكَةً وصاخِبةً، إلى الممرَّات الداخلية لذلك المنزل القديم. سرعان ما لم يتبقَّ سوى عشرة تقريبًا من المتسكِّعين في الحديقة؛ ثم أربعة. في النهاية هرع صانِعُ البهجة المتشرِّد الأخير إلى داخل المنزل زاعقًا لمناداة رفاقه. خَبَت النيران، وظهرت النجوم المتباطِئَة، القوية، وتخلَّف وراء كل ذلك الغُرباءُ السَّبعة وحيدين، كسبعةِ تَماثيلَ حجريَّة على مقاعدهم الحجرية. أيٌّ منهم لم يكن قد نطق بكلمة.

لم يكونوا في عَجَلةٍ من أمرهم في التحدُّث بكلمة، لكنهم أنصتوا في صَمتِهم إلى هَمهَمَةِ الحشرات وإلى الأغنية البعيدة لطائرٍ وحيد. ثم تكلَّم الأحد، لكن بشكل حالِمٍ جدًّا لحَدِّ أنهم اعتقدوا أنه يُكمِلُ حديثًا بدأه في خياله.

"سنأكل ونشرب لاحِقًا"، قال لهم. "لِنَبْقَ معًا قليلًا، نحن مَن أحببنا بعضنا البعض بكل هذا الحزن، وحاربنا معًا طويلًا. يبدو لي أنني لا أتذكَّر سوى قرونِ الحرب البطولية، التي كُنتُم فيها أبطالًا دومًا- ملحمة بعد ملحمة، إلياذة بعد إلياذة، وإخوةً متشابِكي الأذرع دومًا. ربما حدث هذا بالأمس القريب ليس إلَّا (فالزمن لا شيء) أو في بداية العالم ربما، لكنني أرسلَتُكم إلى الحرب. جلستُ في الظلام، حيث لم يُخلَقْ أيُّ شيء، وبالنسبة لكم لم أَكُن سوى صوتٍ يأمركم بالشجاعة والفضيلة الاستثنائية. سَمِعتُم الصوت في الظلام، ولم تسمعوه ثانيةً أبدًا. الشمس في السماء أنكَرَته، الأرضُ والسَّماء أنكَرَته، وكلُّ الحكمة البشرية أنكَرَته. وعندما واجَهتُكُم في وَضَحِ النَّهار أنكَرتُه بنفسي أيضًا".

اضطرب سايم بحِدَّة في كُرسيِّه، لكن بخلاف ذلك كان الصمت مُحيطًا بهم، وتابَعَ الملَغَّزُ الغامِضُ حديثَه.

"لكنَّكم كنتُم رجالًا. لم تغفلوا عن مَوضِع شَرَفِكم السِّرِّيِّ، رغم أن الأكوان بأكملها تحوَّلَت إلى محرِّك عذابٍ لانتزاعِه منكم. أدركتُ كم اقتَرَبتُم من الجحيم. أدركت كيف تقاتَلتَ، أيُّها الخميس، بالسَّيف

مع الشيطان الملك، وكيف أنَّكَ، أيُّها الأربعاء، قد نادَيتَ باسمي في لحظة الاحتياج بلا أَمَلٍ".

كان الصَّمتُ المطبِقُ قد غَشِيَهم بالكامل في تلك الحديقة الغارقة في ضوءِ النجوم، ثم استدار السكرتير، الأسمر كثيف الحاجبين، حَرونًا، في مقعده ناحية الأحد، وقال بصوتٍ مبحوحٍ:

"مَن، وماذا أنتَ؟".

"أنا السَّبتُ المقدَّس"، قال الآخَرُ بلا حراكٍ. "أنا سَلامُ الرَّبِّ".

جَفلَ السكرتير، وانتصب في مكانه ساحِقًا رداءه الثمين في يَدِه.

"أُدرِكُ ما تعني"، صاح قائلًا، "وهو بالضَّبط أنني عاجز عن الصَّفح عنك. أعرف أنَّكَ الرِّضا، التفاؤل، بماذا تدعون ذلك الشيءَ، المصالحة المطلَقَة. حسنًا، لستُ مُتصالِحًا. إذا كنتَ حقًّا الرَّجُلَ في الغرفة المظلِمَة، فلماذا كنتَ الأَحَدَ أيضًا، إهانةً لنور الشمس؟ إذا كنتَ من البداية أبانا وصديقَنا، فلماذا كنتَ أيضًا عَدوَّنا الأكبر؟ لقد بَكَينا، وفَرَرنا في فزع؛ والحديد قد دخل إلى أرواحنا- ثم تقول إنَّكَ سلامُ الرَّبِّ!، أوه، باستطاعتي الصَّفحُ عن غضب الرَّبِّ، رغم أنه دمَّر أُمَمًا كثيرًا؛ لكنَّني عاجِزٌ عن الصَّفح عن سلامه".

لم يُجِب الأحدُ بكلمة، لكنْ بطيئًا جدًّا أدار وجهًا من حَجَرٍ إلى سايم كما لو كان لسؤاله.

"لا"، قال سايم، "لا أشعر بمثل ذلك الغضب. بل أنا مُمتَنٌّ، ليس فقط من أجل النبيذ وحُسن الضيافة هنا، لكن من أجل كلِّ ذلك الهروب الراقي والقتال الحُرِّ. لكن أُحبُّ أن أعرف. روحي وقلبي سعيدان وهانئان هنا في هذه الحديقة العتيقة، لكنَّ عقلي يصرخ طالِبًا الحقيقة. أحبُّ أن أعرف".

تطلَّع الأحد إلى راتكليف، الذي قال بصوَتِه الواضح:

"يبدو من العبث جدًّا أن تكون في صَفِّ الجانِبَيْن، وأنَّكَ قاتَلتَ نفسَكَ".

ثم قال بولْ:

"لا أفهم شيئًا، لكنني سعيدٌ. في الحقيقة، سأخلد إلى النوم".

"لستُ سعيدًا"، قال البروفسور ورأسه بين يديه، "لأنني لا أفهم. تركتني أهيم حتى اقترَبتُ كثيرًا من الجحيم".

ثم قال جوجول، ببساطَةِ طِفلٍ مُطلَقَة:

"أَنشُدُ معرِفَةَ سبب إيذائي بشدَّة".

ما زال الأحد لم يَقُل شيئًا، لكنه جالِسٌ فحسب بذَقنِه الهائل مُستَنِدًا على يده، ومُحدِّقًا إلى البُعد. ثم قال أخيرًا:

"لقد سمعتُ شكايتَكم جميعًا. وهنا سيأتي آخَرُ للشكوى، وسنسمعه أيضًا".

ألقَت النَّارُ الخابِيَةُ في المشعل الهائل بآخر وَهَجٍ طويل، كقضيبٍ من الذهب المحترق، على العُشب المظلِم. على يده المتوهِّجة كان تظهر بالأسود الحالك ظِلالُ السِّيقان المتقدِّمة لشكلٍ بَشريٍّ مُتَّشح بالسَّواد. بدا وأنه يرتدي حُلَّةً مُكتَنِزَة أنيقةً بسروالٍ يَصِلُ إلى الرُّكبَتَيْن كذلك الذي ارتداه خَدَمُ المنزل، فقط بفَرقِ أنه لم يكن أزرقَ، بل من فَرعِ السَّمُّور الأسود. كان يحمل، كبقيَّة الخَدَم، سيفًا في جنبه. وفقط عندما اقترب بما يكفي من هلال السَّبعَة وطوَّح بوجهه للنظر إليهم، تمكَّن سايم، بجلاءٍ صاعِقٍ، من رؤية أن الوجه كان نفسَ الوجه العريض، شبيه القردة، لصديقه القديم جريجوري، بشَعرِه الأحمر المفروق وابتسامته الشَّامِتَة.

"جريجوري!" قال لاهثًا، وموشِكًا على القيام من مَجلِسه، "يا للعجب، هذا هو الفوضويُّ الحقيقيُّ!".

"نعم"، قال جريجوري، بضبط نَفْسٍ عظيم وخطير، "أنا الفوضويُّ الحقيقيُّ".

"(وكان ذات يومٍ)"، غمغم بولْ، الذي بدا وأنه سقط نائمًا حقيقةً، "(أن جاء بنو الله ليمثُلوا أمام الرَّبِّ، وجاء الشَّيطانُ أيضًا في وسطهم)[1]".

"أنتَ على حَقٍّ"، قال جريجوري، وحدَّق فيهم جميعًا. "أنا مُدمِّر، وسأدمِّر العالم إن استَطَعتُ".

استولى على سايم شعورٌ بالشَّفَقَة من أعماق الأرض، وتحدَّث بكلماتٍ مُتكسِّرة.

"أوه، أكثر الرِّجال تَعاسةً"، صاح قائلًا، "تحاول أن تكون سعيدًا! لديكَ شَعرٌ أحمرُ كشَقيقَتِكَ".

"شَعري الأحمر، كاللهيب الأحمر، سيحرق العالم"، قال جريجوري. "اعتقدتُ أنني أبغِضُ كلَّ شيء أكثر ممَّا يمكن للرَّجُل العادي أن يبغض أيَّ شيء؛ لكنني اكتشَفتُ أنني لا أمقتُ شيئًا بقدر ما أمقُتُكَ!".

"أبدًا لم أبغِضْكَ"، قال سايم بحُزنٍ شديد.

ثُمَّ مِن هذا المخلوقِ المستَغلِق انطلَقَت آخِرُ الصَّواعق.

"أنتَ!" صاح قائلًا. "أبدًا لم تُبغِضني لأنَّكَ أبدًا لم تَعِش. أعرف أنكم جميعًا، من أولكم لآخركم- أنتم أناسُ السُّلطة! أنتم الشرطة: الرجال البدينون، الضِّخام، المبتسمون ذوو الأزرار الزرقاء! أنتم القانون، أبدًا لم تنكسروا. لكن ألا توجد روحٌ حُرَّةٌ حيَّة لا تتوق إلى كَسرِكُم، فقط لأنكم أبدًا لم تنكسروا؟ نحن في ثورتنا نتحدَّث عن كل أنواع

(1) سِفرُ أيوب، الإصحاح السادس، الآية 1.

الهُراء بلا أيِّ شَكٍّ عن هذه الجريمة أو تلك الجريمة للحكومة. وكل هذا ما هو إلَّا حماقة! الجريمة الوحيدة للحكومة أنها تَحكُم. الخطيئة التي لا تُغتَفَرُ للسُّلطَة العليا هي أنها عُليا. لا ألعنكم لكَونِكُم قُساة. لا ألعنكم (رغم أنني قد أفعل) لكونِكُم رُحَماء. ألعنكم لأنكم آمنون. تجلسون على مقاعدكم الحجرية، وأبدًا لا تهبطون منها. أنتم ملائكةُ السماء السبعة، لا تُعانون من أي مشاكِلَ. أوه، بإمكاني أن أغفر لكم كُلَّ شيء، أنتم مَن تحكمون النَّوعَ البشريَّ، فقط إذا شعرتُ أنكم عانَيتُم ألمًا حقيقيًّا لساعَةٍ واحدة كما عانيتُ أنا...".

وَثَبَ سايم ناهضًا، مُرتَعِشًا من رأسه إلى قدمه.

"أرى كُلَّ شيء"، صاح قائلًا، "كلُّ شيء موجود. لماذا يتحارَبُ كُلُّ شيءٍ على الأرض ضِدَّ كُلِّ شيء آخر؟ لماذا يضطرُّ كلُّ شيء صغير في العالم أن يتقاتَلَ مع العالَمِ ذاته؟ لماذا ينبغي على الذُّبابة أن تُحارِبَ الكونُ بأكمَلِه؟ لماذا ينبغي على نَبتَةِ هِنْدِباء برِّيَّة أن تُحارِب الكون بأكمله؟ لنفس السبب الذي اضطررتُ من أجله أن أكون وحيدًا في مجلس الأيام الرهيب. حتى ينالَ كُلُّ شيء ينصاع للقانون مَجدَ وعُزلَةَ الفَوضويِّ. حتى ينالَ كُلُّ رَجُلٍ يحارب من أجل النِّظام شجاعَةَ وخَيرَ مُفجِّري الديناميت. حتى يُمكِنَ قَذفُ كذبَةِ الشَّيطان الحقيقية في وجه هذا المجدِّف؛ حتى ننالَ، بالدُّموع والعذاب، الحَقَّ في أن نقول لهذا الرَّجل: "أنتَ كاذِبٌ!". لدينا عذابات تَكفي لشراء الحق في القول لملقي الاتهامات هذا: "لقد عرفنا المعاناة"".

"ليس حقيقيًّا أننا أبدًا لم ننكسر. لقد انكسرنا على العَجَلَة. ليس حقيقيًّا أننا أبدًا لم نهبط من عروشنا. لقد هبطنا إلى الجحيم. نشكو مآسي لا تُنسَى حتى في هذه اللحظة التي دَلَفَ فيها هذا الرَّجُلُ لاتهامنا بالسَّعادة بِكُلِّ وَقاحَةٍ. أرفض الافتراءَ والبُهتان؛ لم نكن سُعداءَ.

باستطاعتي الإجابةُ باسم كُلِّ حارسٍ من حُرَّاس القانون العِظام الذين ألصق بهم التهمة. على الأقل...".

كان قد استدار بعينيه حتى ينظر فجأة إلى وجه الأحد الكبير، الذي كانت تعلوه ابتسامةٌ غريبة.

"هل عَرفتَ"، صاح بصوت مُرعِب، "المعاناة من قبل؟".

بينما هو يحدِّق، تَعاظَمَ الوَجهُ الكبير إلى حَجمٍ مُرعِب، حتى أصبح أكبر من القناع الهائل لتمثال مِمْنون[1]؛ ما جعله يصرخ كطِفلٍ. تَعاظَمَ الوَجهُ أكثرَ وأكثر، مالئًا السَّماء بأكملها؛ ثم اسودَّ كُلُّ شيء. في السَّواد فحسب قبل أن يتهشَّم دماغه بالكامل بدا وأنه سمع صوتًا بعيدًا يقول نصًّا معروفًا سمعه من قبل في مكانٍ ما، "هل يُمكِنُكَ أن تشرب من الكأس الذي أشرب منه؟".

* * *

عندما يستيقظ الرِّجالُ في الكُتُبِ من رؤيةٍ ما، فعادَةً ما يجدون أنفسهم في المكان الذي كانوا قد استغرقوا في النوم فيه: يتثاءبون في مقعد، أو ينهضون بأطراف مرضوضَةٍ من حقل. لكنَّ تجربة سايم كانت شيئًا ما أكثر غرابَةً بكثير من الناحية السيكولوچية بالمعنى الأرضيِّ، هذا إذا كان في المسألة أيُّ شيءٍ غير حقيقيٍّ بالفعل بشأن الأشياء التي مرَّ بها. لفترة من الزمن كان قادرًا دائمًا على التَّذكُّر أنه غُشِيَ أمام وجه الأَحَدِ، لكنه لم يتذكَّر أبدًا أنه استردَّ وَعيَه على الإطلاق. لم يكن بإمكانه سوى تَذَكُّرِ أنه، تدريجيًّا وتلقائيًّا، أدرك أنه استمرَّ لفترة في السَّير عبر طريقٍ ريفيٍّ مع رفيق مُتَبسِّطٍ يحب الحديث. ذلك الرفيق كان جزءًا من مغامرته الأخيرة؛ كان جريجوري الشَّاعِرَ ذا الشَّعْرِ الأحمر. كانا يسيران كصديقَيْن حميمَيْن، في خِضَمِّ مُحادَثَةٍ عن

(1) تمثالان ضخمان شُيِّدا تخليدًا لذكرى أمنحتب الثالث- (المترجم)

أمرٍ تافِهٍ ما. لكن سايم لم يكن بمقدوره سوى الشُّعور بنشاطٍ وخِفَّةٍ استثنائية في جسده، وصَفاءٍ بِلَّوريٍّ في عقله، بما يفوق كلَّ شيء قاله أو فعله. شعر أن في حَوزَتِه أخبارٌ طَيِّبَة مستحيلة ما، جعلت كلَّ شيء آخرَ بالمقارَنَةِ تَفاهَةً، لكنها تفاهَةٌ فاتِنَة.

كان الفَجرُ المنبَلِجُ يُلقي على كُلِّ شيء بألوانه الرَّائِقَة والمتردِّدة في آنٍ؛ كما لو أن الطبيعة قد حاوَلَت في المرَّةِ الأولى بالأصفر، وفي الثانية بالورديِّ. هَبَّ نَسيمٌ شَديدُ العُذوبَةِ والصَّفاء، لِحَدِّ أن المرءَ يَعجَزُ عن تَخيُّل أنه قد هَبَّ من السماء؛ بل عبر ثُقبٍ ما في السماء. شعر سايم بدَهشَةٍ بريئَةٍ عندما رأى الأبْنِيَةَ الحمراءَ المشعَّثة لسافرون بارك ترتَفِعُ من حَولِه على جانِبَيْ الطَّريق. لم يخطر بباله أنه سارَ حتى اقترب من لندن لهذا الحدِّ. مضى بحسٍّ الغريزَةِ على طول طريقٍ أبيضَ، عليه كانت الطيورُ المبكِّرَةُ تتقافَزُ وتُغنِّي، ثم وجد نَفسَه خارِجَ حَديقةٍ بأسوار. هناك رأى شَقيقَةَ جريجوري، الفتاة ذات الشَّعرِ الذَّهَبي- الأحمر، تقطِفُ زُهورَ اللَّيلَكِ الأرجوانيَّةَ قبل الإفطار، بالوَقارِ العظيمِ غير الواعي لفَتاةٍ.

مكتبة
t.me/t_pdf

مكتبة

telegram @t_pdf

الرجل الذي كان الخميس

"عليكَ أن تعذر طريقتي"، قال البروفسور بكآبة، "وضعي عجيب بعض الشيء. من الداخل أنفجر حقًّا بمرح صبيانيٍّ؛ لكنني انغمست في تقمُّص دور البروفسور المشلول حتَّى لم أعد قادرًا على الخروج منه؛ لذلك عندما أكون بين أصدقائي، ولا أحتاج بأي بشكل إلى التَّنكُّر، أعجز رغم ذلك عن منع نفسي من التحدُّث ببطءٍ وتجعيد جبيني- كما لو كان جبيني فعلًا. بإمكاني أن أكون سعيدًا حقًّا، لكن فقط بطريقة مشلولة نوعًا ما. أكثر الاندهاشات بهجةً تتقافز في قلبي، لكنها تخرج من فمي على نحوٍ مختلف تمامًا. قد تسمعني أقول، «ابتهِجْ أيُّها الزعيم العجوز!» لكنها كلمات، في الحقيقة، ستجلب الدموع إلى عينيك".

الغلاف:
عبد الرحمن الصواف

ISBN 978-977-313-832-5

مركز المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات